النبي موسى
وآخر أيام تل العمارنة

الجزء الأول

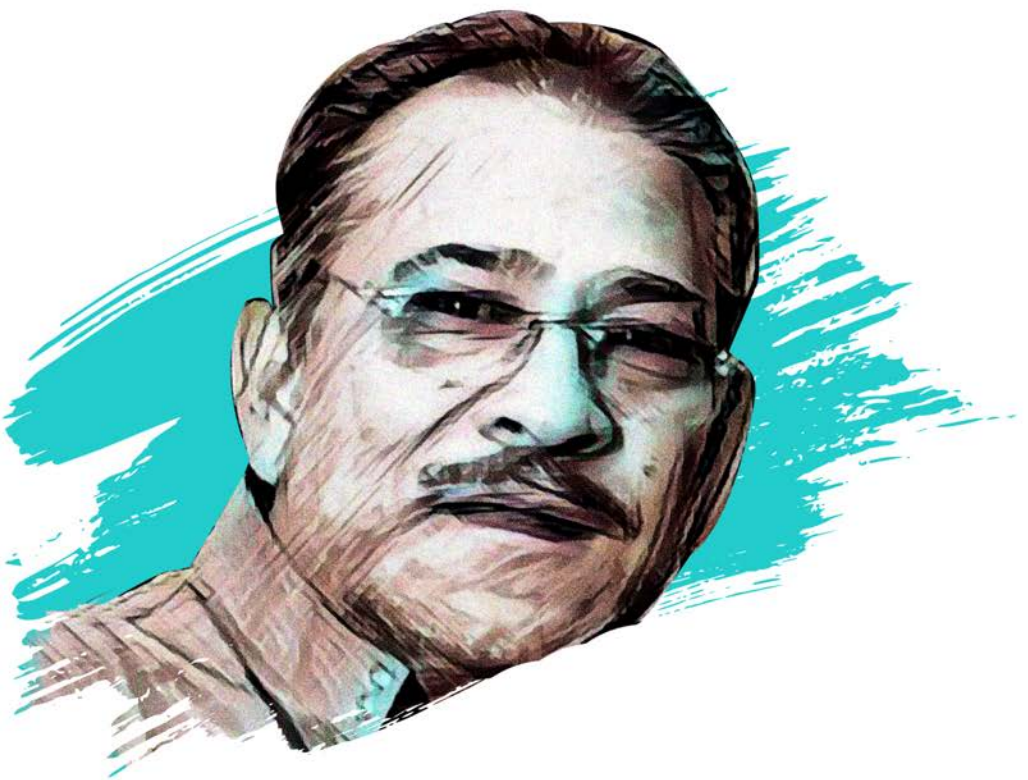

سيد القمني

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الأول)

موسوعة تاريخية جغرافية إثنية دينية

تأليف
سيد القمني

هنـــداوي

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الأول)

سيد القمني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٠ ٢٣٠٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٩
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، ومن ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights reserved.

المحتويات

الإهداء	٧
مُقدمة الطبعة الثانية	٩
مقدمة الطبعة الأولى	١٥
توطئة	٢٣
تمهيدٌ تاريخي مع إعادة ترتيب جغرافية الخروج	٢٧
الباب الأول: شعب التوراة	٢٩
١- التوراة وربُّها وشعبها	٣١
٢- «كل إسرائيل» أو مملكة إسرائيل الموحدة	٦١
الباب الثاني: مصر والتوراة	٨٣
١- قبل زمن الخروج	٨٥
٢- النظريات التاريخية للخروج	٩٣
٣- جغرافية الخروج	١٣٩
٤- الأخطاء الكبرى في النظريات المطروحة	١٨٣
الباب الثالث: نظرية المؤلف لضبط جغرافية الخروج وتاريخها	٢٠١
١- رعمسيس تلك المدينة اللغز!	٢٠٣
٢- قناة سيزوستريس وهندسة المكان	٢١٥
٣- إحداثيات مواضع الخروج	٢٤٧

الإهداء

على أوتار الحشا بين الجوانح والضلوع، تسكنينني يا حبيبتي، ذبتُ فيك حبًّا ووجدًا، فأعطيتُك عمري كله مهرًا، وسكبتُ في أحشائك عصارة عقلي كلمات، أستزرعها في رحمك أجنَّةً؛ كي تلدي للدنيا ابن العهد الآتي، وقرَّبت إليك نفسي أضحيةً يا معشوقتي، يا أم الدنيا حقًّا وصدقًا.

فلكِ يا مصر السلام وعليك السلام ... يوم تتفتح أزاهيرك مواليد ... صبايا يعرفن كيف يتكلمن لغة الحرية، وصبيةً يصوغون معجم مفردات النهار ... ويهزُّون معًا جذوع المسلات لتساقط على صفحة الزمن علمًا وعدلًا وحضارةً ومدنية.

سيد القمني

مُقدمة الطبعة الثانية

في هذه الطبعة الثانية من كتاب «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة»، سيجد القارئ تعديلاتٍ واسعة بالكتاب؛ فقد حذفنا أبوابًا اكتشفنا أنها تثقل كاهل القارئ بمادةٍ علميةٍ كثيفة، ليست بذات تأثيرٍ جوهري على العمل نفسه وأهدافه، فاستبعدنا مثلًا من الجزء الأول بابًا كبيرًا هو «التاريخ النبوي»، خاصةً أنه كان شديد الجفاف والثقل، كذلك حذفنا جميع الملاحق المتعلقة بتاريخ مصر القديمة؛ لتخصصها الشديد، والمتخصصون أدرى بها وليسوا بحاجةٍ إليها، أما القارئ غير المتخصص فهي بالنسبة له غير ذات جدوى كبيرة.

ثم قمنا بإعادة ترتيب الكتاب مرةً أخرى، فدمجنا الجزء الرابع بالجزء الأول، مع تصويباتٍ جديدةٍ شتى متناثرة بالكتاب، نتج معظمها عن أخطاء الطابع في الطبعة الأولى، وبعضها ارتكبها المؤلف، خاصةً ما كان يتعلق بإجراء عملياتٍ حسابية لتزمين فتراتٍ معينة من التاريخ، كذلك أعدنا تغيير مواضع الأشكال والخرائط؛ ليكون تناولها أكثر يسرًا، مع إدخال أشكالٍ ولوحاتٍ جديدة من مواقع الأحداث، تدعم النظرية المطروحة في هذا الكتاب.

وكان لأخطاء الطابع دورٌ في الْتباساتٍ في عدة مواضع، خاصةً مع تشابه الأسماء وتقاربها، سواء كانت أعلامًا أو مواضعَ جغرافية؛ ولما كان البحث يعتمد التدقيق الشديد في هذه الأسماء، فإن خطأً واحدًا كان كفيلًا بضياع القارئ، وسط الحشد المعلوماتي الكثيف، وضياع الهدف والقصد، بل وربما جهد صفحات بكاملها. وكان يكفي أن يُدوِّن الطابع على خريطة شرقي الدلتا مثلًا موضعًا باسم هيروبوليس، فيكتبه الطابع هليوبوليس (لأنها الأشهر والمعتادة)، حتى يضيع القارئ، والمعنى والقصد جميعًا؛ لأن هليوبوليس مكان وحكاية وتاريخ، يختلف تمامًا عن هيروبوليس، وهي مكانٌ آخر وحكايةٌ أخرى وتاريخٌ آخر، أو أن يُكرِّر تسجيل اسم مقبرة حويا (حيث لوحات للفرعون إخناتون هامة، ولها دورٌ هام في بحثنا) باسم مقبرة يويا، رغم أن مقبرة يويا غرفةٌ صخرية، لم يدوَّن بها شيء،

لا لشيءٍ إلا لأنه كان من محبي المصريات، وسمع أو قرأ كثيرًا عن يويا فقرر تصويب الاسم، بقرارٍ من عنده وأجره وثوابه على الله.

ونظرًا لأن المؤلف هو واضع الخرائط بالكتاب، مُستعينًا بالخرائط المساحية القديمة، في مشقةٍ لا يعرفها إلا من جرَّبها، وليست خرائطَ منقولة عن مصادرَ أخرى، فإن الطابع بالطبعة الأولى، لم يراعِ الدقة في وضع العلامات والأعلام في أماكنها، مما كان بدوره مدعاةً لخلطٍ في الفهم. والمدهش أن بعض الناقلين عنا، أو بالأحرى السارقين تصوَّروا أن هذه خرائطُ متفقٌ عليها، وموجودة في مصادرَ ما، فأخذوها أو سرقوها على علَّاتها في استسهالٍ مُضحِك، غير مُدركين أن إعادة رسم الحدود أو فروع الأنهار القديمة، ووضع المواضع القديمة في أماكنها على الخرائط، قد استدعى سفرًا شاقًّا وتدقيقًا وقياسًا، ورجوعًا إلى مراجعَ شتى ومصادرَ متضاربة، حتى إن دار المساحة المصرية أكلت من عرقي وشربت، إضافة إلى أسفارٍ مضنية بفيافي سيناء ووادي عربة الأردني؛ لذلك فإن الخريطة الواحدة تكمن وراءها معاناةٌ حقيقية وجهدٌ جهيد، وليست مجرد خريطةٍ مأخوذة من مصدرٍ متفق عليه، بل وضعها المؤلف ورسمها ووضع عليها الأعلام القديمة، بعد أسفارٍ إلى بلاد وبراري وأصقاع، وعمليات تدقيق أخذت من عمره عمرًا. وكان تشتت المواضع الجغرافية في النصوص القديمة، مع تدخل الميول الإنسانية والأغراض السياسية والدينية في عملية التدوين، مع اتساع مساحة البحث الجغرافية والتاريخية، مدعاةً دائمًا للسقوط في شراكٍ وفخاخ؛ لذلك كان تدقيق المواضع الجغرافية، وإعادة ضبطها ضرورة لضبط التاريخ وخط سير الحملات، وحدود الدول والعلاقات الدولية وخط سير الهجرات، وهذا كله كان الخلفية التي كان يجب ضبطها لتنطق بما لم تنطق به من قبل عملنا هذا، كذلك كانت تلك الأسفار تثمر دائمًا ثروةً عظيمة من الأدلة والقرائن على صدق أطروحة الكتاب، قمت بتسجيلها بالتصوير الفوتوغرافي قبل اكتشاف المنظومة الرقمية واختراع الكمبيوتر، لتنطق بصدق أطروحتي، وهي أسفارٌ بدأت بشرقي الدلتا المصرية عبورًا على سيناء مرتَين، ثم وادي عربة جنوب الأردن ثم العراق في أقصى شماله، مع المعاناة التي لا بد أن يلقاها باحثٌ مستقلٌّ في بلادنا، ليتلقفه الأمن من كل موطئ قدم؛ ليشرح عمله لرجل مخابرات أو أمن، هو أجهل أهل الأرض طرًّا وقاطبة، وفي بلادٍ هي أشد بلاد العالم بُعدًا عن العلم، وأكثرها قمعًا وديكتاتورية، ويكفيني حتى اليوم أن أذكر سفري إلى العراق تحت حكم صدام، إبان الحصار الدولي، ليقشعرَّ بدني مما عانيتُ هناك من أجل هذا الكتاب، كذلك المخابرات الأردنية على الحدود العراقية الأردنية، وحجم الإهانة الإنسانية التي لقيتُها هناك،

والصَّغار أمام صغار الأقزام من عسكر المخابرات، الذين هم علينا أسود وفي الوغى صياصي دجاج، بلا حولٍ ولا قوة، مع العسكرية العمياء فهم صمٌّ بكمٌ غلاظٌ شداد، ولا يكادون يفقهون قولًا، رغم أني كنت لا أحمل قنابل، بل مجرد أدوية وأقلام وأوراق وكتب، وخرائط وكاميرات وبعض الملابس الضرورية ... ودمتم.

وقد تعرَّض هذا الكتاب لسوء الحظ مرتَين: الأولى بعد جمع المادة العلمية اللازمة، وقبل بدء الكتابة، عندما وقع المؤلف صريع القلب، وتم إجراء جراحةٍ له في كليفلاند بولاية أوهايو بأمريكا. والمرة الثانية عند طباعة الكتاب، عندما اضطر المؤلف لإجراء جراحةٍ دقيقة بجذع المخ، سامح الله الدكتور أحمد حلقة، فمن يومها وأنا في معاناةٍ دائمة لا تتوقف، وقمت بمراجعة بروفات الطابع بالمستشفى، وأنا بين الوعي والغيبوبة، ففات عليَّ الكثير من أخطاء، احتاجت التصويب في هذه الطبعة الثانية. وهنا لا أدَّعي مطلقًا أن هذه الطبعة، ستكون خلوًّا من أخطاءٍ محتمَلة، في تزمينات التأريخ أو الأخطاء الطباعية، إنما ما أقول هو أن هذا أقصى جهدي في ظرفي الصحي الحالي، وإذا وُجدتْ بعض الأخطاء الطباعية، فلن تفوت على القارئ الفطن، أو حتى لو وُجدت أخطاءٌ في متن الموضوع، فإن هناك من النقاد المحترمين من يمكنه، أن يصلح الشأن والتصويب دومًا.

وبمناسبة النقد والنقاد، فقد تعرض لهذا الكتاب طرفان، كان أعلاهما صوتًا هو من عمد إلى التشويه والافتراء والدسِّ والوقيعة، ولا أدَّعي أني أعلم لماذا؟ وقد زعم بعض هؤلاء أن كتابي يؤسس لإسرائيل في تاريخ مصر، وأيضًا لا أعرف كيف؟ فالكتاب بين يدي القارئ، لا علاقة له بكل المفاهيم الأيديولوجية، والمواقف المسبقة بالمرة، ولا يسعى لغير العلم وحده، ولا يعمل بغير قواعد البحث العلمي وحده، حتى إن بعضهم وهو يعرض اتهاماته ضد الكتاب، وضع في ثنايا عرضه لوحاتٍ مصريةً مدمجة بالرؤى الإسرائيلية، مثل لوحة لرمسيس الثاني، وعليها نجمة داود أو الشمعدان (لا أذكر)؛ ليوعز إلى القارئ أنها لوحةٌ في كتابي، لاتخاذ موقفٍ نفسيٍّ مسبق منه، رغم أنه خلو منها، ورغم أني لم أعرف هذه اللوحات المزيَّفة، إلا في مقالات الأستاذ الناقد، ورغم أني لا أرى في كتابي أن رمسيس الثاني، هو فرعون الاضطهاد أو الخروج، كما ترى بعض المدارس البحثية الإسرائيلية وغيرها من المدارس، بل ذهبت مذهبًا مُغايرًا بالمرة. والكتاب بطبعتيه الأولى والثانية بين يدي القارئ، ليرى إلى أي منحدر، وإلى أي تسفُّلٍ خبيث، وصل مناخنا الثقافي منذ صحوتهم الإسلامية، التي حوَّلتهم إلى أشرارٍ حقيقيين، عن عمدٍ واختيارٍ إرادي وواعٍ.

وعلى نفس الخط أخذ أحد أساتذة التاريخ المصري القديم على عاتقه، شنَّ حملة على الكتاب مُتهمًا إياه أنه يشوِّه تاريخ مصر، ووقف إلى جواره بعض محبي المصريات، انطلاقًا

من تقدسيهم الفرعون إخناتون، بحسبانه أول الموحِّدين في التاريخ، وأن كتابي يكشف أنه لم يكن كذلك حقًّا، وأن على إخناتون مآخذَ أخلاقيةً كثيرة، بمقاييسنا الأخلاقية اليوم، وأنه ارتكب في سبيل دروشته الدينية وتعصُّبه وتطرُّفه، أول لون من الاضطهاد الديني الواسع النطاق في مصر، التي عاشت زمنها السابق له في حريةٍ دينيةٍ شبه مطلقة، وأن تلك الحرية على مستوى الضمير والفكر، كانت السبب وراء إبداعاتها العبقرية، رغم مركزيتها الصارمة على مستوى الإدارة، فكان إخناتون أول متعصبٍ طائفيٍّ قوي في تاريخ مصر، قضى على التعددية العقدية والحريات، لصالح ربه آتون وحده، مما أدَّى إلى تردِّي أحوال إمبراطوريته، وعودة مصر إلى الانكماش داخل حدودها، نتيجة قراراته اللاهوتية وفاشيته الطائفية.

لكن الكثير من مُحبي المصريات في بلادنا، يعاملون إخناتون بذوقٍ إسلامي، بحسبان التوحيد أرقى القمم العقدية، التي يريدون كسبها لمصر قبل الآخرين، وأنها كانت سبَّاقة في كل شأن وأمر، حتى في فكرة التوحيد العزيزة إسلاميًّا، ومن ثم يكون أي كشفٍ موضوعي بشأن إخناتون، هو إهانةً لمصر وتشويهًا لتاريخها، يصبُّ في مصلحة العدو الصهيوني الإمبريالي الإسرائيلي الأمريكي الطاغوتي ... إلخ (؟!).

ويجمع بين الموقفَين أن أحدهما اتهامي، يُشكِّك في الولاء للوطن وتاريخه، والآخر شتامٌ تخويني وطنيًّا ودينيًّا، يعتمد على استثارة الغرائز الدينية والعنصرية؛ ولأن كتابي ليس فيه ما يدعم أيًّا من الموقفَين، فلم أجد سببًا موضوعيًّا لكل تلك الهجمة الشرسة سوى السبب النفسي؛ لأنه رغم أن الوصايا التوراتية كانت توصي: لا تشتهِ امرأة جارك ولا بيته ولا حقله ولا حماره. فإنها لم تلتفت إلى أن هناك من يشتهي الملكات والقدرات والجهد، وهو مما لا يمكن اكتسابه إلا بالكد والعنت والمشقة والتفاني، وأخذ النفس بالشدة والقسوة، وهم لا يريدون أن يبذلوا جهدًا مماثلًا، ومع العجز تبدأ الكراهية، ومع الكراهية تبدأ حملات التشويه، وليس بيدي سببٌ آخر، أُبرِّر به تلك المواقف غير هذا.

أما الصوت الذي لم يجد سبيله إلى السماع، بعد أن ضاع بين صخب تلك الأصوات، فهو الصوت الموضوعي المحترم، الذي أعطى الكتاب حقَّه إيجابًا أو سلبًا، ولأصحاب هذا الصوت أسجل خالص تقديري وامتناني واحترامي، سواء مَن اتفق معي أو مَن اختلف.

ومن المفيد هنا إشراك القارئ معنا في بعض الملحوظات الهامة، أولها أنه إذا كان كتابنا هذا كتابًا في فلسفة التاريخ وتاريخ الاجتماع الديني، فإن معتمده ومرجعه هو معطيات علم التاريخ عند أهل الاختصاص، وإليهم المرجع وعليهم المعتمد، لكن تلك

المعطيات كما سيرى قارئنا، تعاني من خللٍ شديد يَعتوِرها باستمرار، فلن تجد اتفاقًا واضحًا بين الأسماء والأعلام من مؤرخين وآثاريين، على تزمين أثر بعينه ولا على تفسيره، أو حتى ضبط قراءته فونيطيقيًّا، كما ستجد هذا التضارب واسعًا، عندما يتعلق الأمر بتاريخ قيام دولةٍ قديمة وانهيارها، وتزمينات هذا القيام والانهيار، وسني حكم الملوك والمواقع العسكرية. وإلى جوار تلك المصادر المصدر الثاني لبحثنا، هو العهد القديم من الكتاب المقدس، الذي يعاني بدوره كثيرًا من المغالاة والأسطرة والتضارب بين المحررين في أحيانٍ كثيرة، مما احتاج على المستويَين إعادة ترتيب وجهد وصبر وجلد ومشقة، وهي في حد ذاتها كانت طموحًا مستحيلًا في بداية البحث، لكننا أصررنا عليه، وحملت فيها عن القارئ عبئًا عظيمًا، لكنني أشركت القارئ معي في ذلك ليلمس بنفسه وعثاء الطريق، ويشاركني عملية التحري والمباحثية، ووضع التوقعات بناء على الشواهد والمعطيات، إزاء الحدث أو النص التاريخي، ليجمع معي القارئ الإشارات والدلائل والقرائن، من الأبسط إلى الأعقد ومن الأهون إلى الأشق، ليكشف معي بالتدريج خيوط الحل، التي تنكشف جميعًا في الجزء الثالث والأخير من العمل، وتُفصح الرموز عن محتواها الصريح، وكيف يمكن لكلمات الماضي، أن تتحاور معًا، وأن تتحاور معنا اليوم، أو أن تفرز مقارنة اللفظة المصرية القديمة بلفظةٍ عربيةٍ معجمية، عن سياقٍ طويلٍ عريض من الروابط والمعاني والنتائج، زمنًا ومكانًا وبيئة، لنعيش معها زمانها، فنرى الجغرافيا ومناهج التفكير وطرق المواصلات والهجرات، نعيشه كما كان زمن الحدث ... قدر الإمكان.

لذلك السبب سيبدو لقارئنا، أني أُورد نصوصًا كثيرة وكثيفة، ربما يظنها بعيدةً عن الموضوع، وصعبة التذكر، لكنه مُطالَب معي بهذا الجهد القليل؛ لأن لكل كلمةٍ دورها الذي تؤديه في هذا العمل، وعليه أن يتابع بدقةٍ تلك النصوص، وقد عمدت إلى كتابة بعض الكلمات بالبنط الأسود، زيادةً في التأكيد على دورها ودلالتها ودعمها للبحث، وللتنبيه ليتم تذكرها فهمًا لما هو آتٍ بعدها.

ومع مثل هذه المساحة الجغرافية الشاسعة والتاريخية، وما لحقها من أحداثٍ وهجرات وأشكال مجتمعية، كان من المستحيل اتخاذ منهجٍ تاريخيٍّ خطيٍّ واحد، يبدأ من نقطةٍ لينتهي إلى نقطةٍ نهائية، ومن هنا اتخذ بحثنا شكل شبكةٍ عنكبوتية، لها مركزها وطرقها ووصلاتها في حركةٍ ذاهبةٍ آيبة بين المركز والوسط والأطراف، عبورًا على متشابكات في الطريق بينهما تتوازى وتتقاطع، وهو المنهج الذي فرضه موضوع البحث، وراعينا فيه تقديم الجرعات المعلوماتية على التدرج، فلا تسبق معلومةٌ أخرى إلا بحسب مكانها في

السياق، بحيث تتكامل الشبكة في النهاية، وهو منهج استنباطٍ رياضي بالأساس يحدد المشكلة، ويضع لها فروض الحل، ثم يلجأ إلى العمل الافتراضي، إذا تطلب ذلك، ثم البرهان بالوثائق والبيانات؛ لذلك يحتاج بعض الصبر من القارئ، بعد أن عبَّدنا له الطريق، ولم نضع له معلومةً قبل الأخرى، حتى لا يفاجأ بما لم يكن يعلم، وكان ذلك بالنسبة للمؤلف هو العسر ذاته، وقطعةً من عذاب المشقة، في تباديلَ وتوافيق انتقل فيها موضوع قبل الآخر، ونقلت فيه معلومةً من فصلٍ إلى آخر؛ مما اضطر المؤلف إلى كتابة الفصل الواحد أكثر من مرة، وإعادة كتابة الكتاب كله أكثر من مرة.

ويجدر هنا التنويه بأن هناك مصادرَ أساسية، إضافة إلى المصادر التاريخية والآثارية والكتاب المقدس، اعتمدناها مصادرَ أساسية في كثيرٍ من فصوله، مثل كتاب «آلهة مصر العربية»، للعالم الليبي علي فهمي خشيم، رغم اختلافنا الجوهري مع أطروحته الشاملة لهذا الكتاب وغيره، بل اختلافنا التام معه، لكن جهده الذي استفدنا منه يستحق الإشارة هنا، والإشادة به كمصدرٍ ثري لهذا العمل، هذا إضافة إلى أعمال إيمانويل فيلكوفسكي، وأعمال أحمد عثمان وسيجموند فرويد.

ولا يفوتني أن أشكر صديقي الدكتور محمد سميح عيد الذي عكف على مراجعة هذه الطبعة، وقام بتصويب كثير من حسابات التزمين الواردة بالطبعة الأولى، كذلك كان له ملحوظاته المفيدة، التي سجلتها له في الهامش في مكانها من هذا البحث.

سيد القمني
مدينة العاشر، في ٥ / ١٠ / ٢٠١٠م، مصر

مقدمة الطبعة الأولى

هذا العمل الذي بين يديك الآن، هو خلاصة جهدٍ استمر عشر سنوات أو يزيد، بدأ العمل فيه عام ١٩٨٧م، وتوقف أكثر من مرةٍ، لكن مجموع تلك الوقفات لم يزد بحالٍ عن مدة سنتَين أنجزتُ خلالها كتاب حروب دولة الرسول، وكتاب إسرائيل، وكتاب رب الزمان، ولم يستغرق أيٌّ من هذه الأعمال سوى بضعة شهور، كنت أعود بعدها إلى موسى مرةً أخرى، بعد أن تتراكم مادةٌ علميةٌ جديدة، تدفعنا إلى البدء من البداية مرةً أخرى، مرات كانت تصل بنا الفروض إلى طرقٍ مُغلقة، فنعود نضع فرضًا جديدًا، لنلهث وراء ما يدعمه شهورًا لنكتشف مرةً أخرى، أننا دخلنا متاهة، فنعود نضع علامات على الطريق المحتمل، لكن لنكتشف خللًا جديدًا، وفي كل مرة كان رجال علم التاريخ وراء تلك المشقة التي كادت تصبح مكابدة لا تنتهي. وما أكثر تناقضات أهل التاريخ، التي تصل أحيانًا إلى حد التضارب الكامل إزاء الموضوع الواحد، ومن ثم يصبح من الرعونة بمكان، إقامة أي بناءٍ علمي على أسسٍ تاريخية، دون فحصٍ دقيق ومراجعةٍ تامة لتلك الأسس، وضبطها ضبطًا كاملًا، وإلا وصل الباحث إلى نتائجَ شديدة الضلال والبطلان؛ لأن أسس التاريخ نفسه كعلم وهي مادته، يختلف بشأنها أصحاب هذا العلم، بحيث لا يمكنك القطع في أي لحظة مع علم التاريخ، أن ما تقرؤه حقيقةٌ وقعت في الزمن المنسوبة إليه أم بناءٌ افتراضي؟ وما هي مساحة الصدق التاريخي فيه، وما هي المساحة التي سمح المؤرخ بها لنفسه بالتدخل في الوقائع وإعادة بنائها تصوريًّا؟ ناهيك عن بعض المؤرخين ذوي الأسماء الكبيرة — كما سنرى في بحثنا — قد قاموا بتفسير النص التاريخي على هوى البناء الذي يريدون، بل وصل ببعضهم حد التساهل — وهي كلمةٌ سهلة — إلى حد أنه لم يجد بأسًا في إبدال لفظةٍ بلفظةٍ أخرى، تناسب مراده في النص التاريخي الأصلي.

أضرب لك مثلًا بسيطًا للتوضيح، رأى أحد المؤرخين بحساباته أن الإسرائيليين، كانوا موجودين في مصر زمن رعمسيس الثاني، ووجد نصًّا من زمن رمسيس الثاني يتحدث عن العابيرو، الذين ينقلون الأحجار لبناء «معبد الشمس الذي توجهت إليه عناية شمس البلاد رمسيس الثاني»، هنا وببساطة يقوم السيد المؤرخ بترجمة العابيرو إلى «الإسرائيليين»، رغم أن الخلاف حول: من هم العابيرو؟ وهل هم العبريون؟ بل وهل العبريون هم فعلًا بنو إسرائيل؟ مشاكل لم تحل بعدُ، وتتضارب بشأنها مدارس المؤرخين شتى.

ومع ذلك وضع الرجل نظريته في خروج الإسرائيليين من مصر على مثل تلك الفروض المختلف عليها.

مثالٌ آخر: يختلف أصحاب علم المصريات الكبار، حول تعيين موضع مدينةٍ كبرى أنشأها الفرعون، عاشق المعمار رعمسيس الثاني باسمه «رعمسيس»، وتعود أهمية هذه المدينة، لكونها المدينة التي ذكرتها التوراة كمدينة للاضطهاد الإسرائيلي في مصر، عندما تم تسخيرهم في بنائها، وكلما تم العثور في حفائرَ مصرية على أثرٍ باسم رعمسيس الثاني، قام أصحابه يُهلِّلون: لقد وجدنا مدينة رعمسيس المفقودة؟! الكارثة تبدأ عندما تحاول أن تعتمد مصادر التاريخ لبحثك في ميدانك الجديد، فمن الطبيعي أن تكون ضمن المطاليب المعرفية، لقارئ كتاب بعنوان النبي موسى، معارف من قبيل: أين تم استعباد الإسرائيليين بمصر؟ هنا يقف عالمٌ عظيم مثل «السير آلن هنري جاردنر»، ليقول لك: إن مدينة رعمسيس هي الفرما الآن على البحر المتوسط شرقي بورسعيد الحالية. ليردف عالمٌ حجة في المصريات هو «بيير مونتييه» ليقول لك: إن مدينة رعمسيس هي «صان الحجر» الآن جنوبي بحيرة المنزلة. لكن ليقف عالم المصريات «محمود حمزة»، معلنًا كشفه لآثارٍ كبرى لرعمسيس الثاني، في مدينة قنتير قرب فاقوس بالشرقية، وأن هنا تقع مدينة رعمسيس، ويذهب رابع إلى تل رطابة بوادي طميلات، وخامس إلى مدينة المسخوطة، وسادس إلى صفط الحنة، وسابع ...

هذا بشأن مدينةٍ واحدة فقط اسمها رعمسيس (!) وأين تقع؟ فهل بعد ذلك يصرُّ باحث ليس فقط على العثور على مدينة رعمسيس، بل وعلى تحديد مواضع المدن التي ذكرتها التوراة مجاورة لها؟ نعم لقد أصررنا وأظننا نجحنا، لكن بعد إعادة قراءةٍ شاملة لتاريخ مصر في علاقاتها بجيرانها، «أعادت تنظيم التاريخ مرةً أخرى، وفق نظريةٍ جديدة» هي التي يقوم عليها هذا العمل جميعه، واعتبرناها عمودًا تأسيسيًّا ننطلق منه لبحث موضوع النبي موسى على أرضٍ تاريخية أقرب إلى واقع أحداث زمانها، ولحظة وصلنا إلى

أسس نظريتنا، لم نفعل بعد ذلك شيئًا، سوى سحب طرف الخيط، الذي أصبح مستقيمًا سهلًا، بعد أن كان شرنقة من الخيوط المتشابكة، وقد استغرق هذا التأسيس الجزء الثاني بكامله، لكنه التأسيس الخراساني للعمل كله.

وكان هذا التأسيس بهدف إعادة ترتيب للمادة التاريخية المتضاربة، وإعادة صياغتها من جديد، وفق كشوفٍ جديدة تمامًا.

لذلك أعتبر من جانبي شخصيًّا، أن التأسيس هو المعبِّر الصادق والحقيقي، على مدى ما بذل في هذا الكتاب من جهد.

والنموذج الصارخ بصدد تضارب علم التاريخ، أنك ستجد بشأن الهكسوس الذين احتلوا مصر القديمة في نهاية الدولة الوسطى رأيَين أبدًا لا يلتقيان، فهناك فريقٌ يأتي بهم من جزيرة العرب (السعودية الحالية واليمن)، وفريقٌ آخر يأتي بهم من البراري والسهوب الآسيوية الوسطى، وهو ما يعني مفارقةً كبرى؛ لأن سكان جزيرة العرب ساميون وسكان براري آسيا عند قزوين وأرارات من الجنس الهندوآري، وهو أيضًا ما يعني أنه لم يتم حتى الآن الاتفاق حول جنس الهكسوس، والمشكلة تظهر عندما تريد تحقيق حدث يتعلق ببني إسرائيل، زمن الهكسوس، هنا لن تتمكن من بناءٍ بحثيٍّ سليم، إلا بعد تحديد هوية العنصر الهكسوسي، لما بين الشعبَين الهكسوسي والإسرائيلي من وشائج اتصال، كان أول من أشار إليها المؤرخ الكلاسيكي يوسفيوس فلافيوس.

أو أن تبحث عن موقع دولةٍ كبيرة، كانت على علاقةٍ وثيقة بمصر القديمة، زمن الأحداث التي سنتناولها هي بلاد ميتاني، فتكتشف أنه قد تم وضع هذه الدولة في المساحة الواقعة بين الفرات والخابور، بأعالي الفرات شمالي الشام وشرقي تركيا (افتراضًا)، لكن لتكتشف أن هذا المكان كانت تشغله في ذات الفترة الزمنية دولة الآشوريين؟! وتعود تدقق فتكتشف أن ذلك الموضع الجغرافي، الذي تم تحديده لبلاد ميتاني، ليس فيه أية أدلةٍ قاطعة أو حتى مقبولة، لوضع تلك الدولة هناك! نعم إلى هذا الحد يصل التساهل بعلماء التاريخ القديم.

أو تبحث وراء العنصر الآرامي الذي قطن براري الشام وباديه شرقي مصر، لكن لتكتشف أنه كان عنصرًا أصيلًا في البلاد، التي أطلق عليها المصريون القدماء بلاد بونت أرض الإله المقدسة، وبينما انتهى معظم المؤرخين إلى وضع بلاد بونت على الساحل الأفريقي الشرقي عند الصومال، تجد إشارات ونصوصًا أخرى هامة وكثيرة لا يمكن تفسيرها، بوضع بلاد بونت عند الصومال، وإلا نكون قد أهملنا دلائل وإشاراتٍ أخرى، تذهب بنا إلى مواضعَ جغرافيةٍ مخالفة تمامًا، لما استقرَّ عليه رأي هؤلاء المؤرخين.

وهي المشكلة التي عشتُ معها فترة، عندما كنت أبحث وراء العنصرين الهكسوسي والإسرائيلي، لأنتهي من البحث الذي طال بما فاق كل توقعاتي، إلى رؤيةٍ جديدة ومخالفة تمامًا، تدخل في باب الكشوف المدعمة بالبراهين والقرائن بنصوصٍ آثارية ولوحاتٍ أركيولوجية، وهي الرؤية التي أصبحت العمود الأساسي لعملي هذا، حيث أمكننا العثور على أطراف خيوطٍ مبعثرة، الْتأمت جميعًا في موطنٍ واحد، تجمعت فيه عناصر التاريخ والجغرافيا معًا.

أو نقرأ في نصوص الرافدين عن بلاد باسم «موصري»، ونبحث وراء علماء التاريخ فيقولون لك: إنها إما تقع في أعالي الرافدين في الموضع نفسه، الذي تم تحديده لبلاد ميتاني (!!) أو في منطقة العقبة وشرقي سيناء، هكذا! ولك أن تختار أو تحتار بين موقعَين متباعدَين تمامًا لبلاد «موصري»، وهو الشأن الذي ستعيش فيه معي في تفاصيل من المتعة المعرفية الحقة، فالتاريخ رغم كل ما يعتوره، هو مساحة مغامرةٍ علمية، لها ذائقة من نوعٍ شديد الخصوصية، في المتعة الذهنية والتفرد.

أو أن تبحث وراء جنس أطلقت عليه التوراة الجنس الكوشي (أي الزنجي)، والمعلوم أن موطنه أفريقيا السوداء، لكن لتجد التوراة تحدثنا عن كوشيين يهاجمون فلسطين من الجنوب زمن المملكة اليهوذية، فيضع المؤرخون تفسيراتهم فيما لا يزيد عن سطرين عند كلٍّ منهم، البعض يرفض روايات التوراة تمامًا بهذا الخصوص، فكيف يهاجم الأفارقةُ الزنوجُ فلسطين طوال الوقت، كما لو كانوا جيرانهم؟ بعضٌ آخر فسَّر ذلك بأن المقصود هم المصريون؛ لأنهم من أبناء حام، ومن أبناء حام كان كوش أبو الزنج الكوشيين، وذلك حسب شجرة الأنساب التوراتية، لكن يبقى السؤال البسيط الساذج: إن التوراة طوال الوقت تتحدث عن المصريين باسمهم، فلماذا أسمتهم هنا باسم الكوشيين؟! لذلك لا يقنع فريقٌ ثالث بهذه النتائج، ويرى أن المقصود بالكوشيين هم المصريون فعلًا، لكن في زمن حكم الأسرة السوداء الكوشية، وهي من الأسر الأخيرة لمصر القديمة، وهنا يبرز فريقٌ رابع ليقول: ليس المقصود بالكوشيين في التوراة دائمًا هو العنصر الزنجي؛ لأنه ربما كان يشير إلى العنصر الكشي أو الكاسي، الذي احتل بلاد الرافدين قادمًا من السهوب الآرية الشمالية، في ذات الزمن الذي احتل فيه الهكسوس مصر، ومرةً أخرى لك أن تختار، ومع كل اختيار لا يمكنك أن تتأكد من سلامة مقدماتك، لتمضي في استنباطاتك وأنت مطمئن، وكل هذه الحالات التي نشير إليها كانت عاملًا مشتركًا، في موضوع الإسرائيليين وعلاقتهم بمصر، وهنا لا بد أن ينال موضوعك حجمًا من التضارب، وتصل بك النتائج إلى درجةٍ من

التناقض، تتناسب مع اختياراتك من مجموع المتناقضات التاريخية، ويبقى لديك سؤال لم يجبك عليه أهل التاريخ: وعلى أي الأسس يتم الاختيار، وفي هذه الحال يطرح السؤال نفسه: وهل بذلك نبني علمًا؟

ثم إليك ما هو أنكى وأشد، في مثالٍ فصيحٍ واضح، حول موعد خروج بني إسرائيل من مصر، وحتى لا نطيل عليك هنا، سنضرب لك مثالًا برأي مدرسةٍ واحدة فقط، هي التي سادت واستقرت نهائيًّا، في زعم علماء التاريخ حول مسألة الخروج، وهي المدرسة التي تعتمد على ذكر كلمة إسرائيل في لوح مرنبتاح ابن رمسيس الثاني لأول مرة، وربما لآخر مرة في التاريخ المصري، ليقولوا إن الإسرائيليين قد سيموا السخرة والعذاب زمن رمسيس الثاني، وخرجوا من مصر زمن ولده مرنبتاح، الذي حكم حوالي ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. خلال الأسرة التاسعة عشرة.

المشكلة تظهر عندما نبدأ في رصد وجود الإسرائيليين في فلسطين، ولما كانت التوراة تطلق عليهم أحيانًا اسم العبريين، فإن التضارب يبدأ صارخًا عندما يعرضون لنا، محتويات مكتبة تل العمارنة عاصمة الفرعون إخناتون، وأغلبها كان رسائلَ قادمة من ولاة مصر على أراضي الإمبراطورية المصرية في الشام، والتي دوَّنت صرخات استغاثة من هؤلاء الولاة بالفرعون، لحماية أراضي مصر في بلاد الشام، من هجوم شعب جاء اسمه على مختلف التنغيمات «العابيرو، الخابيرو، الهبرو، الهابيري، الخابيري، خبر، الأبيري، العابيري الهبيرو ... إلخ.» فإذا كان الإسرائيليون هم العبيرو (العبريين)، وأنهم خرجوا من مصر زمن مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. وقد حددت رسائل العمارنة تاريخ ذلك الهجوم العبري على فلسطين، بزمن أمنحتب الثالث ١٤٠٥–١٣٦٧ق.م. وولده إخناتون ١٣٦٧–١٣٥٠ق.م. أي كانوا يهاجمون حدود فلسطين في زمن أمنحتب الثالث، وقبل أن يخرجوا من مصر زمن مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. أي قبل الموعد المقرر تاريخيًّا لخروجهم بحوالي ١٧٠ عامًا بالتمام والكمال؟

ونحن نعلم أن القائد الإسرائيلي للخروج بعد موسى المعروف باسم يشوع، أول ما هاجم في فلسطين «غربي الأردن» عندما عبر نهر الأردن، وهاجم مدينة أريحا ودمرها تدميرًا شاملًا، لكن البحث الأركيولوجي قد أثبت أن أريحا، قد تم تدميرها فعلًا، لكن قبل الزمن المحدد في هذه النظرية للخروج بما يزيد عن ١٥٠ عامًا!

لحل الإشكال لجأ المؤرخون بكل رصانةٍ إلى استبعاد، أن يكون العابيرو هم العبريين التوراتيين، إنما هو اسمٌ مشابه، حملته فئات من شُذَّاذ البدو وقُطَّاع الطرق، ولا يجب

ربط تلك الإشارات التاريخية عن العابيرو، بمسألة بني إسرائيل والخروج، وهي النظرية المُعتمدة أكاديميًّا في أقسام التاريخ القديم بجامعات العالم حتى اليوم.

نموذجٌ آخر وما أكثرها النماذج في علم التاريخ! نوضحه بالقول إننا لو حتى أخذنا برأي مدارسَ أخرى، توارت بعد ظهور واستتباب الأمر لنظرية الخروج زمن مرنبتاح؛ سنجدها تضع الخروج في مساحة تتأرجح بين ثلاثة قرونٍ كاملة، تبدأ بزمن الفرعونة حتشبسوت ١٤٩٠–١٤٦٨ق.م. وتنتهي بزمن مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م.

ومشكلةٌ أخرى تظهر عندما تبدأ في علاج علاقة الإسرائيليين بالفلسطينيين، فعلم التاريخ الرصين يؤكد لنا أن شعبًا جديدًا باسم البلست أو البلستي، جاء بسفنه البحرية المسلحة من الجزر اليونانية يهاجم مصر، زمن رمسيس الثالث ١١٨٢–١١٥١ق.م. لكننا نجد هذا الشعب في ذات الزمن، يقيم على سواحل فلسطين! والحل ببساطة عند أهل التاريخ، أنه بعد أن هزمهم رمسيس الثالث سمح لهم بالإقامة على سواحل كنعان، التي كانت تابعة لمصر حينذاك، ومن ثم أعطوها اسمهم فأصبحت فلسطين؟! هكذا بكل يسر وسهولة تم حل المشكلة! لكن الصارخ في المسألة أن الإسرائيليين — حسب الكتاب المقدس — عندما خرجوا من مصر كان الفلسطينيون مستقرين في ممالكَ كبرى، وهذا قبل أن يصلوها زمن رمسيس الثالث (؟!) بحسبان الخروج قد تم زمن مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، أو ربما قبله في مدارسَ أخرى؟

والأكثر إدهاشًا أن نجد التوراة نفسها، تأتي بالقبيلة العبرية في تاريخها القديم من «أور الكلدانيين» — قبل دخول مصر والخروج منها بزمان — إلى أرض كنعان كقبيلةٍ هامشيةٍ غريبة على البلاد، وتصف التوراة هذه البلاد بأنها «أرض الفلسطينيين» قبل وصول الفلسطينيين إليها، زمن رمسيس الثالث بحوالي خمسة قرونٍ كاملة حسبما يقرر أهل التاريخ؟!

المصيبة هنا أن «كل هذه المتضاربات الصارخة، التي ضربناها مثلًا كانت خلال الفترة الزمنية، وفي المساحة الجغرافية التي يعالجها كتابنا هذا». ومن هنا كان لا بد من إعادة قراءة ذلك الرتل المختل مرةً أخرى، قراءةً تضبط أحداثه وفق منهجٍ علميٍّ صارم ودقيق، وإذا وجد القارئ بعض التضارب أحيانًا في المادة التاريخية، فله أن يستميح لي العذر، وأنني قد حملت عنه عبء إعادة الترتيب والضبط، ويبقى كتابي هذا شاهدًا على مدى تساهل أهل التاريخ، ومدى قيمة ما يتم تدريسه في جامعاتنا، بل وفي جامعات العالم دون الشعور بأي خلل.

هذا ما كان عن المصدر الأول لهذا العمل، أما المصدر الثاني والذي لا يقل أهمية وخطورة، فهو الكتاب المقدس Bibel العهد القديم، المصطلح على تسميته بالتوراة (تجاوزًا)؛ لأن التوراة لا تشكل فيه غير الأسفار الخمسة الأولى فقط، وبعضهم يضيف إليها السفر السادس «يشوع»، وهنا سنستخدم الكلمات الثلاث على التبادل: العهد القديم/التوراة/الكتاب المقدس، في هذا العمل، للدلالة على ذلك الكتاب الهائل والضخم، وهو إضافة إلى كونه كان كتابًا مُقدسًا لدين بعينه، فإنه أيضًا عملٌ أدبيٌّ رائع لأساليب تعبير ذلك الزمان، إضافة إلى — وهنا الأهم — «أنه كتابٌ في التاريخ في المقام الأول»، وكتابنا هذا يثبت لك مدى صدق هذا التقرير «أن العهد القديم كتابٌ في التاريخ»، بل إن هذا الكتاب عندما تعاملنا معه، ألقى أضواءً على مناطق كانت شديدة الظلمة في تاريخ المنطقة القديم، وملأ فراغات وثقوبًا في علم التاريخ، لكن المشكلة أنك عند التعامل مع هذا المصدر، ستواجه متاعبَ أخرى ومن نوعٍ آخر، فليس هناك أولًا إجماع على قيمة التوراة كوثيقةٍ تاريخية؛ لما شابها على أيدي المحررين من نزوات ومبالغات وحشو وإضافات وأساطير تغشَّت كل أسفارها، بحيث أصبح علينا أن نثبت مدى الصدق ومدى الباطل ومواضعهما في التوراة عند المعالجة، كي نطمئن إلى ما بقي بأيدينا من هذا المأثور الهائل، يمكن أن يكون واقعةً تاريخية، فالوثيقة التوراتية تحمل بصمات التاريخ، يمتد بزمن كتابتها الذي استغرق حوالي ١٥٠٠ سنةٍ متصلة، تعرضت أثناءها للمعالجة وإعادة التحرير عدة مرات من محررين أغلبهم مجهول، لكنها من جانبٍ آخر تُشكِّل حقلًا رائعًا وثريًّا، لمن يريد إعمال المنهج العلمي للخروج منها، بما يمكن تسميته حقائقَ تاريخية.

لذلك مهدنا لعملنا بالجزء الأول المُعنون بـ «تمهيد تاريخي»، بعرض أهم أدوات وأساليب التعامل مع هذا المأثور، بحيث يمكننا بعد العرض النقدي، تقديم شهاداته كشهاداتٍ تاريخية، ونحن أكثر اطمئنانًا لتلك الشهادات، لكن ضمن ذلك المأثور تقع مجموعةٌ من الأساطير، احتاجت منا تضفير تفسيرها وفضَّ دلالاتها، ومعرفة الغرض من وراء دسِّها وسط السرد التاريخي ضمن مجموع العمل، ومحاولة فهم ما حدث بعيدًا عن منطق الأسطورة والمعجزة، فحاولنا العثور على إجاباتٍ واضحة لمسألة العصا الثعبانية، وفلق البحر، والعليقة المشتعلة بنار لا تحرق، هذا إضافة إلى أسئلةٍ أخرى تأسيسية، حاولنا الإجابة عليها وهي: لماذا يتمسك اليهود بلحظتَين تاريخيتَين أساسيتَين، كلتاهما تتعلق بمصر تحديدًا؛ لحظة العهد مع الله بالختان، والختان شرعةٌ مصرية أساسًا، ولحظة عبور البحر من مصر إلى سيناء، وهو ما يجرنا إلى مناقشة كل لحظة تماس في علاقة الشعب

الإسرائيلي بمصر، منذ نزول إبراهيم إليها ومن بعده يوسف والأسباط، حتى ميلاد موسى وخروجهم منها، حسبما وردنا من روايات التوراة، أما الأهم فهو أين كان العرب من كل تلك الأحداث؟

أما «موسى» فهو المبحث الأول والغرض النهائي، ويشكل البحث وراءه الجزء الثالث والجزء الرابع في هذا العمل، لكن ما يجب هنا التأكيد عليه وإعلانه واضحًا، أنه رغم وجود بعض أوجه الشبه في تفاصيل قصة موسى بين التوراة والقرآن، فإن أوجه الخلاف بدورها كبيرة، سواء في الرؤية العامة لمفهوم الألوهية أو النبوة، مع خلافاتٍ أساسية حول بعض التفاصيل والدقائق، وهو ما يجعل من موسى التوراتي شخصًا آخر، يختلف اختلافًا بيِّنًا وحادًّا عن موسى القرآني، ومن هنا نقول بل ونعلن أن بحثنا هذا، يتناول شخص النبي موسى كما ورد بالتوراة وبقية العهد القديم فقط، «ولا علاقة لبحثنا بشخص النبي الجليل موسى الكليم عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام»، لا من بعيدٍ ولا من قريب، وإذا وجد القارئ متناثراتٍ نادرة عن النبي موسى كما هو في الإسلام، فإن ذلك قد جاء على سبيل الاستضاءة ليس إلا، ولا يعني أننا نتحدث عن موسى كما هو في الإسلام.

توطئة

لعل هذا التنويه جدير بذكاء قارئنا، الذي لا ريب يعلم ما تعرضنا له مؤخرًا، من إرهابٍ فكري ومصادرة لكتابنا رب الزمان، والذي صحبته رحلةٌ قاسية بين أروقة المباحث المصرية ونيابة أمن الدولة، والقضاء ورهاب قفص الاتهام، واحتمالات الاعتقال أو القتل. ورغم أن العقبى كانت لنا بعد معركةٍ فكرية، أصررنا فيها على عدم التراجع عن كلمةٍ قلناها، لا بالتصريح ولا بالتلميح ولا بالتأويل، فإن المناخ السائد في مصر الآن، الذي يشبه من جوانبَ كثيرة «طالبان الأفغانية»، يفرض علينا ذلك التنويه وهذا التنبيه الواضح الفصيح، أكرر لا علاقة البتة بين دراستنا هنا حول موسى التوراتي، وبين النبي موسى كما جاء في الإسلام، بل قصدنا بالعمد قصدًا قصر الدراسة على موسى التوراتي، بفرض أنه كان شخصًا حقيقيًّا تاريخيًّا وليس مجرد أسطورة، «لنرى إلى أين يمكن أن يصل بنا البحث، حسب معطيات التوراة وعلوم التاريخ».

ومن الجدير بالذكر أنه أثناء بحثنا في النبي موسى، قد اكتشفنا الإجابة على بعض التساؤلات، التي سبق وطرحناها في كتابنا «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول»، وكنا قد طرحنا بعض الحلول العجلى في كتاب النبي إبراهيم، ثبت لنا الآن أنا كنا فيها مخطئين، وهو كتابٌ مضى عليه أكثر من ثلاثين عامًا، وصل بعدها الكاتب إلى النضوج الراشد، خاصةً ما تعلق منها بكتاب «إبراهيم» بتفسير التواجد الثقافي المصري القديم في جزيرة العرب، وهو ما ألجأنا في كتاب النبي إبراهيم، إلى افتراض هجرةٍ مصرية إلى جزيرة العرب، تركت هذه المؤثرات، لكنَّا الآن نذهب مذهبًا آخر في تفسير ذلك، ستفصح عنه صفحات هذا الكتاب.

وقد عمدنا إلى تقسيم هذا العمل في طبعته الأولى إلى أربع وحدات، ثم إدماج الجزء الرابع في الجزء الأول في هذه الطبعة، التي بين يديك ليصبح ثلاث وحدات (أجزاء) هي كالتالي:

(١) تمهيدٌ تاريخي مع إعادة ترتيب جغرافية الخروج.
(٢) إعادة ترتيب أحداث التاريخ.
(٣) آخر أيام تل العمارنة.

وفي الوحدة الأولى المقسَّمة إلى أبواب، والأبواب إلى فصول، حاولنا الإجابة على استفساراتٍ مفترضة، حول عدة موضوعات بحاجةٍ إلى إيضاح أوَّلي، مثل طبيعة الإله التوراتي، ومدى اتفاقه أو اختلافه عن مفهوم الألوهية عند الشعوب الأخرى في زمانه، وكان طبيعيًّا أن نعرج على الوعاء القدسي للمفاهيم التوراتية: الكتاب المقدس، وبالتحديد العهد القديم منه، فعرضنا أقسام العهد القديم كما هي بكتابها، ومصادر ذلك الكتاب حسبما انتهت إليه المدارس البحثية، ولم يفتنا أن نحاول تتبع الطرق التي استخدمت في تدوين تلك الوثيقة الشديدة الأهمية، وبأي لغة كتبت، مع البحث عن مساحات الصدق التاريخي في العهد القديم، وما رواه من أحداث، بالمطابقة مع الكشوف التاريخية والأركيولوجية.

ثم كان لا بد من تعريفٍ واضح للقبيلة صاحبة التوراة، والمعرفة بالقبيلة الإسرائيلية، مع إطلالةٍ سريعة على الفترة التي تواجد الإسرائيليون فيها بمصر وخروجهم منها، بحسبانها النقطة المفصلية في تاريخ القبيلة الإسرائيلية.

وعند هذه النقطة المركزية وقفنا هنيهةً، نستمع لأهم النظريات المطروحة في مسألة دخول بني إسرائيل مصر، ثم خروجهم منها، وموعده الزمني وخطوات رحلة الخروج عبر مواضع جغرافية ذكرتها التوراة، لم تعد اليوم مواضعَ دقيقة لتغيُّر أسماء المواضع الجغرافية عبر الزمن، بل وتغيُّر الجغرافيا نفسها بتحولات فروع نهر النيل، خلال هذا الزمن الطويل؛ مما أدى إلى خلفٍ كبير بين الباحثين، حول خط سير الخروج، وهو الأمر الذي استدعانا لطرح رؤيةٍ جديدةٍ تدقيقية، حول مواضع خط سير الخروج الإسرائيلي من مصر، وبتحديد مواضع إقامة الإسرائيليين في مصر، ومواضع خط الخروج نختتم الوحدة الأولى من هذا العمل …

أما الوحدة الثانية، والتي نزعم أنها العمود الفقري للعمل جميعه، فهي ما اعتدنا عمله في أعمالنا السابقة تحت عنوان «تأسيس» بديلًا عن المقدمة، «لكن التأسيس هنا

يعادل في حجمه وفي كيفه بقية الكتاب جميعًا». حيث نظننا قد تمكنَّا في هذا التأسيس من اكتشاف طرف الخيط في شرنقةٍ معقدة، من الألغاز التاريخية غير المحلولة، أو التي سبق حل بعضها بحلولٍ متعجلة ومتسرعة، أدت إلى تراكماتٍ من الأخطاء، تحوَّلت بمرور الوقت إلى لونٍ من الحقائق الثابتة، خاصةً عند المؤرخين التقليديين، وعندما نشرنا الفصول الأربعة الأولى من الباب الأول في هذا التأسيس، ثارت زوبعةٌ حادة، تزعَّم الطرفَ المقابل أو المعارض فيها أحدُ أساتذة التاريخ بجامعة الإسكندرية، دون أن ينتظر قراءة بقية العمل كاملًا.

على أية حال نحن لا نزعم إلا المحاولة، ولا يذهب بنا الظن حد تصور، أننا قد وضعنا النظرية النهائية التامة الصدق، فلا شك بقدر ما سيجد قارئنا من جهدٍ بين تلالٍ وطرق كالمتاهات، من المادة العلمية الهائلة في كمِّها وفي كيفها وفي تناقضاتها، بقدر ما سيجد من أخطاء ارتكبناها، لكن كل ما نرجوه أن تكون أقل وزنًا من المحاولات الناجحة.

وقد عمدنا في هذا التأسيس إلى أسلوبٍ جديد إلى حدٍّ ما، قياسًا على أعمالنا السابقة، بحيث تركنا مساحةً أوسع للقارئ ليشاركنا التقاط مكامن الأخطاء بين شراكٍ معقدة، وليشاركنا أيضًا متعة البحث والاستقصاء، ومتعة الفرح بالكشف العلمي، إذا جاز لنا وصف ما وصلنا إليه بالكشف.

وعلى هذا الذي أسميته كشفًا، أعدت قراءة علاقة القبيلة الإسرائيلية بمصر، على كافة الأصعدة والمستويات الممكنة، ثم علاقتها ببقية شعوب المنطقة، مع إعادة قراءة قصتَي دخول بني إسرائيل مصر وخروجهم منها، لتفضي بنا تلك القراءة إلى نتائج هي بقدر جدتها بقدر خطورتها، وقد ضفرنا تلك القراءة مع ما وصلنا إليه في التأسيس، وذلك في الوحدة الثالثة «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة»، التي ركزت همها البحثي في اكتشاف الحقائق الغائبة وراء النصوص المُعلنة في علاقة الفرعون إخناتون بشخصيتَين أُخريَين هما: موسى نبي اليهودية، وأوديب الملك اليوناني صاحب الملحمة المشهورة في المسرح اليوناني.

ولأننا تعرضنا بطول الوحدات الثلاث إلى تفاصيلَ صغيرة، حاولنا معها ضبط بعض التفاصيل الدقيقة، كالكشف عن اسم فرعون يوسف وزمنه، واسم فرعون موسى وزمنه، فكان لا بد من استكمال سلسلة الحلول الصغيرة، لنستكمل تضفير المشهد الأكبر للوحة الأساسية لكتابنا، ونقصد النظرية التي وضعناها في التأسيس لقراءة الموسوية والإخناتونية، على أرضٍ تاريخية أقرب إلى الصحة والسلامة.

ولأن الكتاب بين يديك، وفيه تفاصيل بها كفاية وغنًى عن أي مقدماتٍ تفصيلية، فسنكتفي هنا بمحاولة التوطئة تلك، لنترك القارئ أمام العمل مباشرة، لكنا نستميح قارئنا عفوًا ونحن نكرر: «نرجو أن نكون قد ارتكبنا أقل قدر ممكن من الأخطاء، وأكبر قدر ممكن من الكشوف الصادقة، وهي الكشوف التي أزعم أني — أبدًا — لم أكن مسبوقًا إليها.»

تمهيدٌ تاريخي مع إعادة ترتيب
جغرافية الخروج

الباب الأول

شعب التوراة

الفصل الأول

التوراة وربُّها وشعبها

قيضت مجموعة من ظروف تاريخ الاجتماع الديني، ذكرًا عظيمًا واستمرارًا مدهشًا — عبر المأثور الديني — لواحدةٍ من القبائل الهامشية القديمة هي القبيلة الإسرائيلية، التي جاءت إلى منطقتنا من مكانٍ بعيد، لم يزل تحديده بشكلٍ دقيق مثار خلاف بين الباحثين والمؤرخين، رغم أن تلك القبيلة في حقيقة أمرها لم تكن بهذا الذكر العظيم في مراجع التاريخ كعلم.

وقد دانت هذه القبيلة بدينٍ يُعرف باسم الديانة اليهودية، التي تنسب إما للسبط يهوذا أحد الأسباط الاثني عشر، أبناء يعقوب في أساطير الآباء البطاركة الأولين، وهو الرأي المرجَّح، وإما لرب اليهودية المعروف في التوراة باسم يهوه أو جاهوفاه أو ياه أو ياي أو إهيه أو يهيه، على مختلف التنغيمات الواردة بالكتاب المقدس، وهو الذي — حسبما تقول التوراة — قد ظهر لموسى في تجلٍّ سحري على هيئة لهيبٍ مضيء، ينبعث من شجيرةٍ نباتية (عُليقة) لا تحترق باللهيب.

ورغم ارتفاع شأن الإله يهوه في أفق الديانة اليهودية في طورها المتأخر، فإنه لم يكن كذلك في البدء أبدًا؛ لأن عقائد القبيلة أو القبائل المنعوتة باسم إسرائيل، حسبما وصلتنا في كتابها المقدس (العهد القديم)، تتضمن رواسب لأشكالٍ بدائية من عبادات الحيوانات كالسوائم النافعة مثل الثور والخروف، أو الضارية الصحراوية كالذئب والضبع، إلى عبادة قوى الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والأنهار والبراكين، إضافة إلى عبادة الأسلاف الغوابر.

كذلك عبد هؤلاء أرباب المنطقة وخاصة آلهة الخصب الكنعانية «البعول» (جمع بعل أي سيد أو رب)، وقد تميز من بين تلك البعول البعل الرافدي «تموز»، والبعل الكنعاني «بعل مولك» (أي السيد الملك)، والبعل الفينيقي «أدونيس» واسمه بحذف التصريف الاسمي في آخر الكلمة «يس» هو «أدون»، هو اسم يعني السيد أو الرب أيضًا.

وأيضًا عبدوا كبير الأرباب السامية وشيخها ورئيس مجمعها «إيل» الذي تنتسب إليه أسماءٌ شهيرة بالكتاب المقدس مثل «عزرا -إيل، وميكا-إيل، وجبرا-إيل، وإسماع-إيل ... إلخ»، وهو الذي اشتق منه اسم الجلالة «إيلاه» أو «الإله»، الذي أصبح في العربية «الله».

كما عبدوا ربات الخصب والزرع والخضرة مثل «عشتروت» الرافدية، و«عشيرة» الفينيقية، و«عناة» الكنعانية، وكلهن زوجات لأرباب الخصب البعول، وكان الثور عادة هو الرمز الأعظم تجلِّيًا، والمشترك الواضح بين تلك البعول؛ لما يتميز به من فحولةٍ جنسية تقارن بخصب الطبيعة وعطائها.

كذلك عبدوا عباداتٍ مصريةً واضحة، مثل «اليواريس» الحية المصرية حامية الملكية والتاج، ومراكب الشمس التي تحمل رب الشمس «رع» في جولته السماوية من الشرق إلى الغرب.

ونماذج لهذه العبادات نقرأ بالعهد القديم «فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها ... فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (خروج، ٣٢: ٢–٥).

وفي سفر العدد (٢٥: ١–٣) نجدهم يعبدون بعل فغور في بلاد مديان، وفي سفر القضاة (٢: ١١–١٧) يعبدون مع البعل، الأنثى السماوية المخصبة عشتروت ربة الجنس والخصب، وقد عبد أعظم ملوكهم طرًّا «شلما» المعروف عربيًّا باسم «سليمان» عددًا من الآلهة «فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين وملكولم رجس العمونيين ... وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون» (ملوك أول، ١١: ١–٨).

وبعد موت سليمان سار الملك يربعام على ذات الدرب: «وعمل عجلي ذهب وقال لهم: هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر» (ملوك أول، ١٢: ٢٨)، ويحيطنا سفر ملوك ثاني (١٨: ٤) أن الحية نحشتان (أي الحنش) ظلت تُعبد منذ صنعها لهم

موسى في سيناء، وحتى زمن الملك يوشيا، وذات السفر يؤكد أنهم قد عبدوا رع رب الشمس المصري؛ لأنهم كانوا يسجدون لمركبه السماوي (عبادة مراكب الشمس).

ويحدثنا سفر «ملوك ثاني» عن الملك حزقيا بن أحاز، الذي كان متعصبًا لعبادة يهوه، وكيف أنه «هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها (أي يقربون لها القرابين [المؤلف])» (ملوك ثاني، ١٨: ٤).

وقد عبد البطاركة الأوائل من إبراهيم إلى إسحاق إلى يعقوب حتى زمن موسى، الإله السامي المعروف بكبير الآلهة «إيل»، لكن إلى جواره كانت عبادة الأصنام شيئًا اعتياديًّا معلومًا بالتوراة، فهذه راحيل زوجة يعقوب تسرق أصنام أبيها المنزلية اعتزازًا بها، عندما غادرت موطنها حاران إلى فلسطين بصحبة زوجها يعقوب (تكوين، ٣١: ٣٤)، وقد بقيت هذه الآلهة مع غيرها في بيت يعقوب على ما يُفهم من الإصحاح (٣٥: ١-٢) من سفر التكوين، كذلك نجد ذات الأصنام المنزلية موجودة بشكلٍ اعتيادي في بيت الملك «داود بن يس»، بعد قرونٍ طويلة باسم «الترافيم»، وهو ما يوضِّحه لنا سفر صموئيل أول (١٩: ١٢-١٣)، بل يبدو أن الرب يهوه نفسه وهو في عزِّه، عند مطلع القرن السادس قبل الميلاد، لم يكن متفردًا، فهناك جاليةٌ يهودية عاشت في ألفنتين عند أسوان بمصر، وحافظت على مأثورٍ «اختفى في التوراة ولم يُذكر، فكانت تُعبد إلى جوار يهوه زوجته عناة يهوه»، ومعلوم أن اسم عناة كان لربة الخصب الكنعانية، وهو اسم زوجات البعول بشكلٍ اعتيادي.[١]

والإله يهوه نفسه في التوراة وبلسانه هو لم يدَّعِ لحظة، أنه رب البشر أجمعين بمفرده، بل كان نقيض ذلك تمامًا، فهو يعترف ببساطة بوجود آلهةٍ أخرى أبدى غيرته منها، ووجد أن من حقه على الشعب الذي اختاره أن يميزه عن هذه الآلهة ويعبده دونها؛ لذلك كانت الوصية الأولى بين الوصايا العشر «لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي» (خروج، ٢٠: ٣) لذلك — ومثل جميع القبائل — عظَّمت القبيلة الإسرائيلية ربها يهوه، وعبَّرت التوراة عن انزعاجها من عبادة الإسرائيليين لآلهةٍ أخرى لقبائلَ أخرى، فالمزمور (٨٦: ٨) ينادي مؤكدًا: «لا مثل لك بين الآلهة يا رب.» ويقول المزمور (١٣٥: ٥): «عرفت أن الرب

[١] فراس السواح: أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٨٤، ١٨٥.

عظيم، وربنا فوق جميع الآلهة.» أما أمر يهوه لموسى وأتباعه فكان: «لا تسجد لإلهٍ آخر؛ لأن الرب اسمه غيور، إله غيور هو» (خروج، ٣٤: ١٤).

وكان الشرك بمعنى عبادة آلهةٍ عديدة واضحًا في أفق تلك العقيدة منذ بدئها حتى نهاية تدوين الكتاب المقدس اليهودي، ففي أسفاره الأولى المبكرة نجده يقول صراحة: «آباؤكم ... عبدوا آلهةً أخرى» (يشوع، ٢٤: ٢)، والآباء هم البطاركة من إبراهيم حتى موسى.

ولم يقتصر ذلك على زمن إيل والبطاركة الأوائل، بل يبدو أنه كان سمة زمن يهوه منذ موسى، فترنيمة الخروج تتساءل: «من مثلك بين الآلهة يا رب؟» (خروج، ١٥: ١١)، و«الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة» (خروج، ١٨: ١١)، وحتى الأزمنة المتأخرة المفترض أن يهوه قد تفرد فيها بالعبادة وحده، نسمع النبي إرميا ينادي شعبه صارخًا فيه مندِّدًا: «بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا» (إرميا، ١١: ١٣).

وخلال ذلك السير التطوري الطويل كان كهنة يهوه وأنبياؤه، يكافحون طوال الوقت العبادات الغريبة الأخرى، وحاولوا — خاصةً في الأسفار الأخيرة — تمييز يهوه بحسبانه ربًّا عالميًّا، ومع التطور أمكن لهم إدماج جميع الرموز المعبودة في التاريخ اليهودي في ربٍ واحد هو يهوه، الذي صار ربًّا واحدًا لكن تتجلى فيه قدرات آلهةٍ أخرى قديمة، فهو رب البرق والرعد والأعاصير مثل «بعل» الكنعاني، وهو الذي ينزل السخط والعذاب والجوع والجفاف مثل «سيت» المصري، وهو رب الرحمة رغم ذلك مثل «أوزيريس» المصري، وهو أيضًا رب البراكين والزلازل المدمرة مثل «تيفون» رب الشر والوباء اليوناني، وهو الذي قتل الحية الشريرة المعروفة في مصر باسم «أبو فيس» عدو رع إله الشمس، والمعروفة في بلاد الشام باسم «لوياثان الحية المتعددة الرءوس»، ومثلما كان رع رب الدولة المصري وأتباعه، ينتصرون على أبو فيس الشرير الظلامي كل يوم، لتعود الشمس ساطعةً في اليوم التالي، وكما كان البعل الكنعاني ينتصر على لوياثان، فإن ذات المهمة قد نسبت إلى يهوه، فنجد وصفًا مرعبًا للوياثان في الكتاب اليهودي المقدس يقول: «من يفتح مصراعَي فمه، دائرة أسنانه مرعبة، عطاسه يبعث نورًا وعيناه كهدب الصبح، من فيه تخرج مصابيح، شرار نار يتطاير منه، من منخريه يخرج دخان، كأنه من قدرٍ منفوخ أو من مرجل، نَفَسه يشعل حجرًا ...» (أيوب، ٤١: ١٤–٢٠)، وهذا التنين الثعباني قد قتله يهوه في النص «أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رءوس التنانين على المياه، أنت رضضت رءوس لوياثان» (المزمور، ٧٤).

وهو الأمر الذي سجلته لنا ألواح أوغاريت المكتشفة على الساحل السوري (رأس شمرا الآن) قبل التوراة بأزمان، فنقرأ في ملحمة البعل: «في ذلك الوقت ستقتل لوياثان الحية الهاربة، وتضع نهاية للحية الملتوية شالياط ذات الرءوس السبع.»[٢]

وقد كررت هذا النص التوراة في قولها نصيًّا: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية المتحوية» (إشعيا، ٢٧: ١).

وأدمجت جميع الآلهة ووظائفها في شخص يهوه، بعضها كان يمثل الخير، وبعضها الآخر يمثل الشر، وتم دمجها في يهوه فحاز الدورين معًا، فهو رب الخير والخصب، وهو رب الشر والجفاف، «أنت فجرت عينًا وسيلًا، أنت أيبست أنهارًا دائمة الجريان، لك النهار ولك الليل أيضًا» (المزمور، ٧٤: ١٥).

لذلك — وبالضرورة — احتسب أن الخير والشر ينبعان كلاهما من يهوه الواحد بذات الدرجة دون تناقض، لكن ذلك أدى إلى مشكلةٍ مستعصية، ظلت بعد ذلك أرقًا دائمًا للأنبياء والكهنة.

وتتمثل المشكلة في أن الديانة اليهودية على غير المعتاد في جميع الديانات، اختار فيها الرب شعبه إسرائيل من دون الناس ليتألَّه عليه، وبالمقابل ينقذهم من ظلم المصريين، بينما المعتاد أن تختار الشعوب آلهتها، أي أنه خص تلك القبيلة دون العالمين بذاته وعبادته وفضلها على العالمين، ومع ذلك فإن هذا الرب الذي جمع صفات آلهة الخير مع آلهة الشر، لم يكن ينزل الشر فقط بالآخرين الأغيار غير اليهود، بل باليهود أنفسهم بشكلٍ يكاد يكون أكثر من الآخرين. لقد كانت مهمته بعد دمج الآلهة في شخصه إنزال الشرور بالأعداء، فما باله ينزل نقمته على شعبه الذي اختاره واصطفاه وفضله على العالمين؟ وتفاقمت المشكلة بعد انقسام مملكة سليمان، وظهور قوًى جبارةٍ أخرى في الشرق كالآشوريين والبابليين إضافة إلى المصريين، وهم من جعلوا المملكتَين الإسرائيليتَين كرةً يتقاذفونها فيما بينهم، إضافة إلى سنوات القحط والمجاعة المتواترة، ناهيك عن أولئك اليهود الذين أخذوا بالإثراء على حساب إخوانهم الآخرين بجشعٍ لا يرحم، وهنا ظهرت المفارقة ما بين الإيمان بإلهٍ حليف للشعب، ظهر أصلًا لإنقاذ هذا الشعب وحمايته، وبين ما بات يعانيه هذا الشعب من آلامٍ وخطوب، لا شك أن الذي ينزلها يهوه نفسه بعد

[٢] فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٠٩.

عمليات الإدماج الألوهي، فكيف يجوز احتساب هؤلاء شعبًا مختارًا؟ أم كان مختارًا للعذاب؟

لقد كان ضروريًّا من أجل توحيد صفات يهوه الجمع بين السمتين القومية والشمولية، ليصبح يهوه كلي الجبروت، وتمتد سلطته لتشمل الشعوب جميعًا، لكن إسرائيل يظل شعبه المختار والمحبوب، وهو ما لا يمكنه تفسير ما لحق به من هزائمٍ أمام الوثنيين الذين لا يؤمنون بيهوه؟

إن هذا التناقض كان قد ساقه من قبل الفيلسوف اليوناني أبيقور ٣٤١–٢١٨ق.م. حين تساءل: إذا كان الإله كليَّ الجبروت وكليَّ الخير، فلماذا يوجد الشر في العالم؟ إما أن الإله يريد القضاء على الشر ولكنه لا يستطيع، وفي هذه الحالة يكون عاجزًا ولا يستحق صفته الكلية، وإما أنه يستطيع ولا يريد وفي هذه الحال يكون شريرًا وشيطانًا، يتلذذ بتعذيب عباده، وإما أنه لا يستطيع ولا يريد، وهذا أمرٌ لا يتناسب مع إله، وإما أنه يريد ويستطيع ويبقى السؤال: فمن أين الشر إذن؟[٣]

أما المشكلة الثانية التي اعترضت طريق اليهودية، وترتبط بالمشكلة الأولى تمامًا، فهي غياب فكرة البعث والحساب، ثم المصير الأبدي إلى ثوابٍ أو عقاب دائمَين، عن أفق التفكير الإسرائيلي، مثلهم في ذلك مثل بقية محيطهم من الشعوب السامية، يعتقدون أن المصير بعد الموت هو الهبوط إلى مملكة تقع تحت الأرض، هي مملكة شيول المظلمة دومًا المخيفة، حيث يعيش الموتى على شكل هوامَّ شبحية، وضعها أسوأ من الحياة ومن العدم، الكل فيها سواء، الصالح مثل الطالح.

وبينما عالجت جارتهم الكبرى مصر هذه المشكلة مبكرًا، فقررت وجود عالمٍ آخر بعد بعثٍ جسدي، فيه ثواب وعقاب عن العمل في الحياة الدنيا، حتى يمكن الاعتراف بعدل الإله، ويأخذ الشرير عقابه وينال الخير ثوابه، فإن الديانة الإسرائيلية ظلت منذ فجرها وحتى القرن الثاني قبل الميلاد تعتقد أن الثواب والعقاب دنيويان، فالصالح من عباد يهوه ينال حياةً أطول وخيرًا ماديًّا (وهو بالطبع الكلام المنطقي)، بعكس الشرير المنحرف دينيًّا، فهو يموت مبكرًا بقرارٍ إلهي، ولا ينال خيرًا في دنياه، يهوه بالأمراض والسقم والفقر والخيبة، ثم يموت حزينًا كميدًا. اليهودية كانت تثق في يهوه، وترفض وهم العزاء الأخروي زمنًا طويلًا، لكن يهوه أبدًا لم يأبه لهم، فالوثنيون أعزاءُ كرام بين العالمين،

[٣] Epicurea, ED. H. usener Lipsial, 1887, Lactantius, Deira Dei, 13–19.

والإسرائيليون يكابدون، وبين اليهود أنفسهم يعيش الشرير وأصحاب المال عيشةً رغدًا، ويتمتع بالصحة والعافية، بينما يموت المؤمن بيهوه المخلص له فقيرًا مريضًا، بعد أن ذهبت تضرعاته هباءً، وهو الأمر الذي أدى إلى نزعات شك وإلحاد، بدأت تنتشر بين هؤلاء، نجدها واضحةً جلية في أسفارٍ، مثل سفر الجامعة وسفر أيوب بالكتاب المقدس ذاته.

ونتيجة انتشار الموجة الإلحادية، قام الأنبياء يحاولون تبرير يهوه وتبرئته، بإلقاء اللوم في كل محنةٍ على الشعب الإسرائيلي، لأن بعضه ولو كان أفرادًا قلائل، لم يستقيموا في عبادة الرب، وخانوه مع آلهةٍ أخرى أو شعوبٍ أخرى، وتتالت الخطوب تأخذ بعضها برقاب بعض، حتى العصر الهللينستي الذي أطلق عليه عصر الآلام، عشية مجيء القرن الأول الميلادي بقرنَين، فقامت اليهودية تأخذ بالعقيدة الأخروية المصرية كأبرز تبرير للإله، حيث سيمكن تحقيق العدل وتعديل الموازين لكن فيما بعدُ، عندما يأتي «يوم يهوه»، وينال المخلصون ثوابًا أبديًّا، ويذهب الآخرون إلى العار الأبدي، وبذلك يتحقق ليهوه ما كان ناقصًا، وهو العدل الذي لم يحدث في دنيانا الفانية ولا مرةً واحدة.

هنا يجب ألا نغفل أن هذا التطور الجديد وإن حدث في فلسطين، فإن فلسطين إبان ذلك كانت تموج بالأفكار المصرية، كما كانت تموج بها مختلف بقاع المتوسط الشرقي، ومن هناك، وعبر الديانة اليهودية قدر للعقيدة الأخروية لتبرير الإله، أن تجد طريقها إلى المأثور السامي، فتصبح من بعدُ ركنًا ركينًا في ديانات شرقي المتوسط الكبرى، حتى إنها أدت إلى تطور الديانة اليهودية، إلى ما يعرف بالديانة المسيحية، وأصبح الموتى من المؤمنين بألوهية يسوع، يقومون من الموت للجنة، بعد أن كانوا قبله يذهبون إلى الهاوية، ثم جاءت عقيدة مصر الأخروية به بعد ذلك، كأحد الأسس الإيمانية في قانون الإيمان الإسلامي: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه «واليوم الآخر» والقدر خيره وشره.

لكن هذا المأثور المصري القديم جدًّا، لم تتقبله اليهودية إلا متأخرًا جدًّا، وهي تلفظ آخر بقاياها مع آخر أنبيائها، لينتظر اليهود بعد ذلك وحتى اليوم (يوم يهوه)، الذي يسودون فيه الدنيا، وبينما تدفع العقيدة المصرية الأخروية بالدماء إلى شرايين اليهودية، يبدأ الصراع بين القديم التقليدي الرافض للبدعة المصرية، وبين الجديد الذي وجدها ضرورة استمرار حتمية، لينتصر الجديد، فيأخذ العقيدة برمتها مع ربها «أوزيريس»، الإله الطيب رب النور والخصب والخير، الذي يموت شهيدًا من أجل رعاياه، ويقوم في اليوم الثالث لموته في قيامةٍ مجيدة، ليمنح من يؤمن بموته وقيامته حياةً خالدة في عالمه الآتي، وتنادي الأناجيل هاوية عالم الموتى التحت أرضي تقول: أين شوكتك يا موت؟ أين

غلبتك يا هاويه؟ الموتى الآن يقومون، يصعدون ولا ينزلون، ويستبدل أوزيريس بيسوع الإسرائيلي، وتظهر في أفق الدنيا ديانةٌ جديدة، هي اليسوعية أو المسيحية أو النصرانية نسبة إلى مدينة «ناصرة» في الجليل — شمال فلسطين — حيث كانت تقيم العذراء «مريم»، حيث حملت بالمسيح، ثم وضعت حملها في «بيت لحم» باليهودية جنوبًا. تنتصر الدماء الجديدة التي ضخت في شرايين اليهودية على القديم، ويتجدد القديم بجديد كان قديمًا مصريًّا، ويقوى أمرها ويستتب، عندما تعتنق الإمبراطورية الرومانية المسيحية دينًا رسميًّا سنة ٣٩١م، تفرضه على رعاياها فرضًا.

لكن كي تتم تبرئة الإله نهائيًّا مما يحدث لعبيده الخلص من نوازل، كان لا بد من العثور على مصدرٍ للشر، وهنا تعود الإنسانية إلى فجرٍ قديم، عندما كانت العقائد القديمة تقول بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر، أوزيريس وسيت في مصر، وبعل وموت في كنعان، وأهورمزدا وإهريمان في إيران، وإنليل وتهامة في العراق، وبعل وموت في الشام، ووقع اختيار التيار الإسرائيلي الجديد (المسيحية) على شخصيةٍ عابرة وردت بالتوراة باعتبارها من بني الله ليكون سببًا للشرور، وبنو الله في التوراة عنصرٌ هجينٌ ناتج عن زواج الله ببنات الناس، وذلك الابن هو الذي يحمل اسمًا عبريًّا ترجمته: الغريم أو الواشي، واسمه «شاطان» ونكتبها في العربية «شيطان».

وكان يتوجب على شاطان أحيانًا (في الأسفار المتأخرة من العهد القديم)، أن يقوم بتجريب الناس في إيمانهم بتكليفٍ من يهوه، فيضرب المخلصين مثل أيوب العبد الصالح بالمرض والفقر بعد صحةٍ وغنًى، اختبارًا لإيمانه، والواضح أنها كانت إحدى محاولات تبرير وتبرئة الإله، باعتبار ما يحدث من نوازلٍ هو ابتلاء من الله واختبار لأحبَّائه.

وكان أول ظهور لهذا الابن المتميز «شاطان» في سفر أيوب، وأيوب هو أبرز المحبين لله وأبرز المصابين في الله، وجاء التبرير في هذا السفر في حكاية هي الأولى من نوعها حينذاك، وتقول الحكاية: «وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضًا في وسطهم [في الأصل العبري المازوري شاطان]، فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: من الجوَلان في الأرض والتمشي فيها، فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس في الأرض مثله رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر، فأجاب الشيطان الرب وقال: هل مجانا يتقي أيوب الله؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته، وحول كل ماله من كل ناحية، وباركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض، ولكن ابسط يدك الآن ومس كل ماله، فإنه في وجهك يجدف عليك،

فقال الرب للشيطان: هو ذا كل ماله في يدك ... ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب» (أيوب، ١: ٦–١٢)، وذهب شاطان وضرب أيوب بالمرض والفقر.

وهكذا وجد الاتجاه الجديد بُغيته في التراث الإسرائيلي نموذجًا للإله الشرير القديم، ومن ثَمَّ أصبحت كل الشرور في المسيحية الناهضة تنسب إلى واحدٍ من أبناء يهوه هو الشيطان الواشي أو الغريم، وفي الإسلام وجد له مكانًا وركنًا ركينًا، «وتحوَّلت الواشي إلى الوسواس الذي يوشوش أو يوسوس للناس» ويشككهم فيما يعتقدون، أما المسيحية فقد وجدت خلاصها وخلاص البشر في تنزيه الله عن الشر؛ لأنه فقط رب محبة، أما الشر فهو من شاطان أو الشيطان الملعون إبليس، الذي جاء حسب التوراة «من الجَوَلان والتمشي في الأرض»، وهو الكلام الذي لا معنى له، وستكشف عن معناه صفحات هذا الكتاب، عندما نعلم من هو الرب المشاء الجواب، الذي كان ربًّا لمشائين جوابين وكان ربًّا للشر.

وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة نجد العهد القديم، عبر المحررين الذين دوَّنوه، وهم غالبًا من الكهنة والأنبياء المتعددين، يحاولون دومًا تجريم الابتعاد عن طريق يهوه، ويعدون ذلك انحرافًا عن صحيح العقيدة وخيانة للرب تستحق عقابه الشديد، لكن يهوه أبدًا لم يحتج يومًا على رب البطاركة الأوائل، رب سفر التكوين المعروف باسم إيل، بل حاول التخفي وراءه، والإيعاز أنه كان هو ذات إيل ونفسه.

لقد كان إيل هو رب زمن البطاركة الأوائل من إبراهيم حتى موسى، لكن موسى الذي عاش مع الإسرائيليين في مصر، وتكررت زيارته إلى سيناء، خرج على شعبه بإلهٍ جديد هو يهوه، زعم أنه قد التقاه في سيناء، في هيئة شجرةٍ ضوئية، لكن يهوه رغم حربه الضروس ضد الآلهة الأخرى، لم يكن بإمكانه أن يتنكر لرب البطاركة، ومن ثم كانت كذبته على موسى:

> هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد. (خروج، ٣: ١٥)
>
> أنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق بأني الإله القادر على كل شيء، «وأما باسمي يهوه فلم أُعرف عندهم». (خروج، ٦: ٢–٣)

والصفة «الإله القادر على كل شيء» و«الله العلي مالك السماوات والأرض»، كانت صفاتٍ معلومة للرب السامي الكنعاني «إيل»، وكان ملك أورشليم الكنعاني «ملكي صادق» أو الملك صادق، كاهنًا لهذا الإله، وسبق له أن بارك إبراهيم الوافد الغريب ضيفًا

على بلاد كنعان، وقد باركه باعتباره أن ملكي صادق ممثل لإيل ونائب عنه وكاهن له، وقال له: «مبارك إيرام من الله العلي مالك السماوات والأرض» (تكوين، ١٤: ١٩).

وهنا يصح التساؤل من الباحثين المدققين، إذا كان حقًّا يهوه إلهًا معروفًا في فلسطين قبل الخروج من مصر، وإذا كان هو ذات عين إيل، فلماذا سميت المدينة المقدسة «بيت إيل» ولم تُسم «بيت يهوه»؟ ثم لماذا يتخذ سفر التكوين من إيل إليها، بينما تتحدث بقية الأسفار عن يهوه دون أي اعتبار أو وزن للإله إيل، الذي ملأ سفر التكوين بحضوره الكثيف؟ هذا مع ملاحظة أن أول ظهور للإله يهوه كان في لقائه بموسى في سيناء المصرية وليس في فلسطين، لا بد إذن أن هناك تغيرًا جوهريًّا قد حدث، وأن سفر التكوين تحديدًا كان نتاجًا لثقافةٍ قديمة في فلسطين، قبل مجيء إبراهيم إليها من أور الكلدانيين، وعليه تكون بقية الأسفار التالية هي نتاج ثقافةٍ أخرى لشعب يعبد يهوه ولا يعرف إيل، وأنه قد تم ضم السفر الفلسطيني القديم للتوراة صاحب «إيل»، لإثبات علاقة نسب بالدم بين أتباع الإلهين، إله شعب فلسطين «إيل»، وإله شعبٍ جديد «يهوه السيناوي»، وجاء مع الخروج من مصر بدينٍ جديد إلى فلسطين.[٤]

ويدعم أصحاب هذا الرأي مذهبهم «بانقطاع التاريخ التوراتي عند البطرك يوسف، وتوقف هذا التاريخ تمامًا لمدة أربعة قرون قضاها هؤلاء في مصر» حسب زعم التوراة، ويطرحون السؤال: لماذا سمح محررو التوراة بهذه القفزة في عرض تاريخهم؟ الإجابة لا شك هي أنهم عبدوا آلهةً مصرية؛ مما يشكل لهم عارًا تاريخيًّا، وهو ما جاء في سفر يشوع «انزعوا الآلهة التي عبدها آباؤكم في عبر النهر وفي مصر» (يشوع، ٢٦)، والمعنى هو أن سلالة البطاركة دخلت مصر مع ربها إيل، لكن لتعيش هناك أربعة قرون، وفجأة يخرج قوم من مصر إلى فلسطين، بثقافةٍ جديدة وربٍّ جديد «يهوه السيناوي» مع موسى، ويزعمون أنهم أخلاف أولئك البطاركة الأسلاف، لكن الواضح أن هذه كانت ثقافة وتلك كانت أخرى جديدة تمامًا؛ «مما يشكك في هوية الجماعة الخارجة من مصر، ومدى انتسابها لهؤلاء البطاركة، وهو ما يطرح السؤال حول هذه الهوية من جديد»!

ومما يؤكد هذا المذهب ووجهة النظر تلك، هو أنه بعد مجيء الخارجين من مصر إلى فلسطين، أن نجد خلافًا جذريًّا بين أبناء الشعب اليهودي، يكاد يقسمه إلى عنصرَين بشريَّين متمايزَين، «قسم يحمل اسم يهوذا»، وقد قرر هؤلاء اليهوذيون استيطان جنوب

[٤] يوسف سامي اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، الأهالي، دمشق، ١٩٨٩م، ص٥٣-٥٤.

فلسطين على الحدود السينائية، واتخذوا من أورشليم عاصمةً لهم، «والآخر يحمل اسم إسرائيل» استقر في المناطق الشمالية من فلسطين، واتخذ من مدينة السامرة عاصمةً له.

وعندما قامت مملكة إسرائيل الموحدة زمن شاءول، ثم داود فسليمان، انقسمت فور موت سليمان إلى إسرائيل شمالًا ويهوذا جنوبًا، ويبدأ سفر صموئيل الثاني بالتمييز بين إسرائيل (وتحوي الاسم الفلسطيني الإلهي إيل في تركيبها) وبين يهوذا المنتسبة إلى «يهوه»، وهو التميز الذي يستمر ويتضح، ويتأكد عبر الأسفار اللاحقة، وبعد أن كان المحرر يستعمل تعبير «كل إسرائيل» للدلالة على القبائل المنتسبة للأسباط الاثني عشر، بما فيها يهوذا، فإنه يبدأ في سفر صموئيل الثاني بالحديث عن إسرائيل ويهوذا، حيث تبدو يهوذا الجنوبية شيئًا وإسرائيل الشمالية شيئًا آخر.

وتلخص موسوعة تاريخ العالم علاقة هذا الشعب بالإله يهوه، فتقول: «أصبح يهوه إلهًا لإسرائيل عن طريق موسى، بعد التخلص من الأسر المصري، وكان يهوه في الأصل إلهًا لجبلٍ مقدس (سيناء أو حوريب)، ثم قاد يهوه — باعتباره إلهًا قوميًّا — الإسرائيليين إلى كنعان، وبعد أن أخذ صفات البعول، واستولى على معابدها أصبح إله كنعان بجانب كونه إله إسرائيل، وبإعلانه إلهًا دوليًّا للعدل مهد عاموس ٧٥٠ق.م. الطريق للاعتراف، بأن يهوه هو الإله الواحد في الوجود في إشعيا (٤٠: ٨) حوالي ٥٥٠ق.م. وبالجمع بين هذا اللاهوت النبوي وطقوس العبادة في المعابد التي اقترحها حزقيال في ذلك الوقت نتج دينٌ جديد هو اليهودية.»

وعلينا أن نلاحظ أن عائلة الملك داود التي تعود إلى سبط يهوذا، هي التي حكمت في دولة يهوذا الجنوبية كأسرةٍ واحدة وسلالةٍ واحدة لملوك يهوذا وحدهم، بينما كانت إسرائيل الشمالية قد تناوبت على عرشها تسع أسر مختلفة من القبائل الإسرائيلية في الشمال خلال أكثر من مائتي عام بقليل، ورغم أن المملكتَين قد عبدتا يهوه بعد سيادته الأولى على مملكة «كل إسرائيل»، فإن عبادة يهوه كانت في يهوذا أقوى منها في إسرائيل بشكلٍ واضح، وقد اتهمت التوراة الدولة الشمالية إسرائيل بعبادة الآلهة الغريبة، ولحقت هذه التهمة جميع ملوكها، وأدانت نشاطهم الديني، لكنها لم تتهم من ملوك يهوذا بهذه التهمة سوى ثمانية ملوك، لكن كان فيها ملوك أُخر مخلصون ليهوه، فبفضل الملوك اليهوذيين آسا وويهو شافاط ويهورام وحزقيا ويوشيا تجددت اليهودية وانتعشت.

ومع ما تعرضت له تلك القبائل من مفارقاتٍ تاريخيةٍ قاسية، فقد انغلقت على نفسها في حالةٍ نرجسيةٍ قبلية، تماهت فيها الجماعة مع الرب يهوه وعبدت يهوه أو عبدت

نفسها لا فرق، وقدمت نفسها للعالم كأفضل الأمم، ودينها كأشرف الأديان، وتحولت الجماعة المندمجة بربها إلى بطلٍ قومي، نقل الإحباط من داخل الجماعة إلى خارجها المعادي المخالف، لتحافظ على انسجامها وعلى وحدتها الداخلية، وهو الأمر الذي يتكرر دومًا مع الجماعات، التي تتعرض لخطر الضياع من صفحة التاريخ.

(١) أقسام العهد القديم

العهد القديم (الكتاب اليهودي المقدس) هو مجموعة كتب وليس كتابًا واحدًا، يطلق عليها الأسفار جمع سفر أو كتاب، وتسمى في مجموعها التوراة، وهي تسميةٌ مجازية تطلق على كل الكتاب؛ لأن التوراة تقتصر على الكتب الخمس الأولى، من مجموع كتب يشملها هذا الكتاب يصل عددها إلى تسعة وثلاثين سفرًا، وقد اتُّفق على تقسيم هذه الكتب إلى أربعة أقسام هي على الترتيب:

القسم الأول

ويُعرف باسم التوراة أو كتب موسى الخمسة أو البنتاتك Pentateque، والكلمة توراة مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة توروت أي شريعة، لكنها في العبرية استخدمت بدلالة تعني التعليم، ونطقها العبري «تورة» من الفعل «شورة» (رأى — رأه بالعبرية)، على وزن أفعل، وتعني حرفيًّا الترئية أو الرقية، وتتضمن معنى العودة للشورى الإلهية، وتشمل التوراة خمسة كتب أو أسفار هي:

التكوين Cenesis: ويحكي تاريخ العالم من لحظة البدء بخلق الرب للسماوات والأرض ثم آدم ونسله، ثم تسير التوراة مع ذلك النسل في عمليات غربلة واستبعاد، حتى تستبقي شعب التوراة في المصفاة، وذلك عندما تصل إلى أولاد يعقوب المعروف باسم إسرائيل، وهم اثنا عشر ولدًا أو سبطًا، والكلمة سبط مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة «سبيت» أي إقليم أو فرع، ومعنى الأسباط الفروع التي انقسم إليها بيت يعقوب، ونسبة للكلمة يطلق المصريون على الحبار ذي الأيدي أو الفروع المتعددة «السبيط»، أي متعدد الأرجل أو الأفرع، ويطلق على عرجون النخل «سباطة» ... إلخ، والغريب أن الاسم العلمي للسبيط هو بذات النطق تقريبًا Cephalo poda (سيفالو بودا) ويعني الرأس قدميات.

وينتهي سفر التكوين باستقرار فروع يعقوب أو الأسباط في مصر، ضيوفًا عليها إبان مجاعة حلَّت بالمنطقة بكاملها، لكن مصر كانت بمأمنٍ منها، ويُرجِّح بعض نقاد التوراة أن يكون قد تم تأليف كتاب التكوين، أو جمعه من المأثور القديم لفلسطين والمنطقة حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موت موسى بحوالي خمسة قرون كاملة.

ويظهر محررو التوراة في كتاب التكوين بحسبانهم جامعي تراث، أكثر من كونهم مؤرخين لواقعٍ حقيقي، وفي التكوين تم حشد قصصٍ عديدة مختلفة المنشأ والأصل إلى جوار بعضها، مع ربطها ربطًا غير محكم بتاريخ إسرائيل؛ مما أبقى على استقلال شبه واضح لكل قصةٍ على حدة، مع تناقض بين الأحداث يسمح للباحث أن يفرز ويصنف، ويظهر أن المحررين كانوا يعون هذا التناقض فيما يدوِّنون من أحداث، لكنهم أبقوا عليها من باب التقديس، وربما برغبة تسجيل أكبر حشد من التنويعات، التي مرت بها القصة الواحدة، مع مهمةٍ أساسية أخذها المحررون على عاتقهم، وهي تنظيم تلك التركة من الأساطير والأحداث والتقاليد والحكي الفولكلوري، في سياقٍ من شأنه أن يخلق لإسرائيل تاريخًا كشعبٍ موحد من البداية، فكان هاجس الأصول — فيما يقول فراس السواح — يسيطر طول الوقت على مجموع أسفار التوراة الخمسة، ثم تعدَّاه إلى بقية الأسفار المعروفة بالأسفار التاريخية.

الخروج Exodus: ويتعرض هذا الكتاب للأحداث، التي مرت بها القبيلة الإسرائيلية في مصر، في سطورٍ لا تفصح عن أحداثٍ، يفترض أنها استمرت ثلاثين سنة وأربعمائة، بصمتٍ مريب لا يلتئم. وأسلوب هذا القسم الذي يميل للإطناب والتفصيل والتكرار إلى حد الإملال، وتركز بقية السفر على أحداث الأيام الأخيرة للخروج من مصر، لإبراز قدرات يهوه السحرية وضرباته للمصريين ضرباتٍ مدمرة، انتهت بخروج الإسرائيليين من مصر تحت قيادة موسى، أحد أحفاد سبط لاوي أو ليفي شقيق يوسف والأسباط، في رحلة هروب أو خروج كبرى تتم حكايتها هنا بتدقيقٍ وتفصيلٍ شديدَين، تشير إلى جغرافيا شرقي دلتا مصر وسيناء، بمزيدٍ من التدقيق لأسماء مواضع الحل والترحال، للخارجين عبر سيناء نحو فلسطين، ويحوي هذا السفر بعض أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات. ويُرجِّح الباحثون أن يكون قد تم تأليفه زمن تأليف كتاب سفر التكوين.

اللاويُّون أو الليفيون Leviticus: نسبة إلى ليفي Levi أحد الأسباط، ويشير إلى نسل ليفي هذا، وهم من اختارهم موسى من عائلته اللاويَّة أو الليفية ليكونوا كهَّانًا ليهوه حفظًا لمسئولية العلاقة بالله داخل أسرته، وقد شغل هذا السِّفر في معظمه بشئون العبادة وطقوسها خاصة ما تعلق منها بطريقة تقديم الأضاحي والقرابين إلى الإله.

العدد Numbers: واهتم بإحصائياتٍ عديدة عن إسرائيل، كعدد القبائل وعدد أفراد الجيش وكمِّ الأموال، وأي شأن كان يمكن أن يخضع لعملية الإحصاء؛ لذلك سمي العدد أو الإحصاء.

التثنية Deuteronomy: وقد شغل هذا السفر بأحكام الشريعة اليهودية في الحرب والسياسة والاقتصاد والعبادات والمعاملات والعقوبات، وسُمي تثنية لأنه ثنَّى أو أعاد ذكر التعاليم، المفترض أن موسى تلقاها من ربه إبان رحلة الخروج عبر سيناء، لكن نقاد التوراة لهم رأيٌ آخر، فهم يُجمِعون على أن هذا السفر لم يتم تأليفه إطلاقًا قبل أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أي بعد زمن موسى بحوالي سبعة قرونٍ كاملة، وبعد مملكة سليمان بثلاثة قرون، وأن ذلك قد تم إبان وجود اليهود في المنفى البابلي على الرافدَين.

القسم الثاني

ويعرف بالأسفار الخارجية وعددها اثنا عشر كتابًا، قامت بعرض تاريخ بني إسرائيل منذ دخولهم أرض فلسطين قادمين من مصر، ويشمل أسفار:

يشوع Josue: ويشوع هو ربيب موسى وخليفته على قيادة بني إسرائيل إلى فلسطين بعد موت موسى.

القضاة Judges: وهم الذين تولوا أمور الحكم على بني إسرائيل بشكلٍ قبلي، حيث كان الحاكم هو من يقضي في الخصومات بين الناس بشكلٍ مباشر في اجتماعاتٍ دورية تعقد لهذا السبب.

راعوث Ruth: وهو اسم جدة الملك داود من جهة أبيه، ويحكي قصة لا علاقة لها بالسياق التاريخي.

صموئيل الأول وصموئيل الثاني (كتابان أو سفران): وصموئيل هو آخر قضاة إسرائيل قبل التحول عن نظام حكم القضاة القبلي إلى الحكم الملكي المركزي وقيام المملكة.

أعمال الملوك أول وثانٍ (كتابان): ويحكيان تاريخ ملوك القبائل الإسرائيلية بدءًا من أول ملوكهم المؤسس شاءول مرورًا بداود وولده سليمان، ثم انقسام المملكة إلى يهوذا في الجنوب وإسرائيل في الشمال، وسيرة ملوك المملكتَين في علاقتهما بالرب وببعضهما وبالدول المجاورة.

أخبار الأيام أول وثانٍ (كتابان): ويعرضان على الترتيب شجرة النسب من آدم إلى يعقوب، ويكرران ما سبق عرضه في سفر التكوين، ثم يكرران عرض تاريخ الملك داود وولده سليمان، ثم يعرضان لتاريخ اليهود السياسي بعد سليمان.

عزرا Esdras: وينسب هذا الكتاب إلى كاهنٍ إسرائيلي باسم «عزرا بن سرايا»، على رأس الموجة الثالثة العائدة من اليهود المنفيين في بابل إلى فلسطين حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد … وإليه تُنسب محاولة تجديد الديانة وإيقاد جذوة القومية الإسرائيلية، وقد أشرف على تجديد الهيكل، وإليه تُنسب كثيرٌ من كتب العهد القديم في رأي نقاد التوراة. وقد بلغ عزرا منزلةً عظيمة عند بني إسرائيل، ويخبرنا القرآن أن الإسرائيليين قد قدسوه حتى قالوا: عزير ابن الله، رغم أننا لم نجد — في العقائد اليهودية ذاتها — ما يشير إلى مثل هذا الاعتقاد.

نحميا Nehemie: وهو أحد وُجهاء بني إسرائيل، تمكن مع عزرا من إقناع الملك الفارسي قورش بعد فتح الفرس لبابل، بالسماح للإسرائيليين بالعودة إلى فلسطين، وبناء الهيكل من جديد.

إستير Esther: وهو سفرٌ صغير يشتمل على تسعة أبواب أو إصحاحات، ويروي قصة الإسرائيلية الجميلة إستير، التي تمكنت من إغواء أخشويريش ملك الفرس فتزوجها، وتمكنت بوجودها في البلاط من إحباط مؤامرات وزيره الكبير هامان ضد بني جلدتها، ثم دبرت مع عمها الكاهن مردخاي مكيدة قضت على هامان وأتباعه، حتى سمح لهم الملك الفارسي بالولوغ في دم هامان وفريقه كيف شاءوا، وقام الإسرائيليون بذبح الآلاف من قوم هامان ونسائهم وأطفالهم، وحتى اليوم يحتفل اليهود بذكرى تلك المذبحة في عيد البوريم أو عيد إستير في مارس من كل عام.

القسم الثالث

ويعرف بمجموعة كتب الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشتمل على أسفارٍ في صيغ أناشيد وتراتيل ومواعظَ دينيةٍ مصوغة شعرًا، ويشمل خمسة كتب أو أسفار، هي على الترتيب:

- أيوب.
- المزامير.
- سفر أمثال سليمان.
- سفر الجامعة وينسب بدوره لسليمان.
- نشيد الإنشاد وهو بدوره ينسب إلى سليمان، ويسمى نشيد الإنشاد الذي لسليمان.

القسم الرابع

وهو مجموعة أسفار النبييم أو الأنبياء، ويحوي سبعة وعشرين كتابًا، تعرض لتاريخ أنبياء إسرائيل بعد موسى، وهي على الترتيب:

- إشعيا.
- إرميا.
- مراثي إرميا.
- حزقيال.
- دانيال.
- هوشع.
- يوئيل.
- عاموس.
- عوبيديا.
- يونان.
- ميخا.
- ناحوم.
- حبقوق.
- صفنيا.

- حجي.
- زكريا.
- ملاخي.

ويرجح علماء مدارس نقد التوراة، أن معظم تلك الكتب النبوية قد تم تأليفها إبان النصف الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، بينما يعود بعضها إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ويمكن نسبة بقيتها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ويمتد تدوينها حتى القرن الثاني قبل الميلاد.

وهكذا تشكَّل العهد القديم بالحفظ الشفاهي زمنًا يصعب تقديره، وربما استغرق تدوينه ٧٠٠ سنة، ويحكي لتاريخ امتد أكثر من ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، تعرض أثناءها للمعالجة والتحرير عدة مرات من محررين أغلبهم مجهول، ومع مرور الزمن والتغيرات التي لحقت ديانة إسرائيل، وأخذت توطد سيادة يهوه بشكلٍ واضح، أتاح ذلك الفرصة لأنصار يهوه وكهنته، استخدام المأثور التاريخي لقبائل إسرائيل وغيرها من شعوب المنطقة، من أجل خدمة وتأكيد عبادة يهوه، ومن ثم تعرضت نصوص المقدس التوراتي لتحويرات كانت تتناسب مع روح المذهب الديني المنتصر، لكن هؤلاء — ولحسن حظ الباحثين اليوم — كانوا أتقياء إلى حد عدم الاجتراء على تصحيح النصوص القديمة أو جعلها ملائمة، وعادة ما كانوا يكتفون بحشر مقدمات وخواتيم ضمن نص السرد الأصلي للحوادث التاريخية، وأحيانًا كانوا يضيفون على السرد الفعلي، وقائع لم تكن موجودة في النص الأصلي؛ وهو ما يلقي على الباحث اليوم مزيدًا من المشقة في غربلة الأصيل مما لحقه من إضافات، خاصة أن المحرر عادة ما كان يستقي موضوعاته من الفلكلور السائد، أو كان يخترعها اختراعًا. ثم تواجه الباحثَ مشاكلُ أخرى لها أسبابها القديمة، فمثلًا كان المحررون لا يتركون فواصل بين مداخلات مؤلِّفين عدة، بقصد توفير الورق الثمين، وهو ما جعل النساخ المتأخرين ينسبون مداخلات نبي إلى نبيٍّ آخر، وأثناء ذلك لم يكن يرى المحرر أي تحرج من حشر مقاطع تناسب وجهة نظره، مع مداخلة نبيٍّ قديم عاش في زمنٍ سابق.

ولسوف نشرك القارئ معنا في معرفةٍ أكثر بهذا الكتاب في فصولٍ قادمة، وكيف يمكن قراءة هذا التل المختل، والخروج من الأخيولة الأدبية والأسطورة الإعجازية بالأحداث التاريخية، وكشف المستور التاريخي الكامن وراء السرد الأسطوري، خاصة إذا علمنا أن التوراة «هي أحد المفاتيح الهامة، لفهم خط سير التاريخ الديني ثم السياسي في منطقة

الشرق القديم». وإبان ذلك علينا مراعاة أننا نتعامل مع نصوص تنتمي لضروبٍ أدبيةٍ مختلفة، وتحوي قوانين ومشاهدَ طقسية وخرافات وأساطير وقصصًا، وتاريخًا ينتمي لفئاتٍ اجتماعيةٍ متباينة، مضافًا إلى كل ذلك تعليقات المحررين ونزواتهم.

(٢) مصادر العهد القديم

أما على مستوى الدرس العلمي النقدي للكتاب المقدس، فقد تم وضع تقسيمٍ آخر يعتمد المصادر الأساسية لخطوط سير الوثائق المقدسة، وقد انتهى التطور الأخير لمدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية ١٨٤٤–١٩١٨م، إلى الكشف عن أربعة وثائقَ مختلفة عن بعضها وشديدة التباين، يتكون منها العهد القديم، هي على الترتيب:

أولًا: المصدر اليهودي Jahwist

ويرمز له اختصارًا بالرمز J، وقد أخذت التسمية من اسم الإله يهوه Jahowa؛ لأنه الاسم الإلهي الغالب على الاستعمال في هذا المصدر، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي عام ٨٥٠ق.م. في المملكة الجنوبية يهوذا، وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذي أعطاه الله للبطاركة من إبراهيم إلى موسى، والتركيز على هذا المصدر لون من إضفاء الشرعية التاريخية والدينية على الائتلاف، الذي أنشأه داود في فلسطين لدولته، بوضعه هو وأسلافه في خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهدًا مع الرب، يمتد شرعًا إلى عهد الرب إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجودًا تاريخيًّا قديمًا، بقصد وضع أساسٍ قوميٍّ تاريخيٍّ متين للدولة التي وحدت القبائل، حتى إنه يبالغ ويصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية، عبر سلسلة الأنساب إلى آدم زمن الخلق الأول.

ثانيًا: المصدر الإلوهيمي Elohist

ويرمز لهذا المصدر اختصارًا بالرمز E، نسبة إلى الاسم الإلهي الغالب في ذلك المصدر، وهو «إيل EL» أي الإله، واللوهيم أي الآلهة، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي ٧٧٠ق.م. في المملكة الشمالية إسرائيل، التي تحوي في اسمها الشق «إيل/اسم الإله»، وبعد ذلك تم إدماج المصدرَين: اليهوي J والإلوهيمي E في مجموعةٍ واحدة يرمز لها بالرمز J E وذلك

حوالي ٦٥٠ق.م. وقد عُني هذا المصدر باستكمال النقص الحادث في المصدرَين اليهوي والكهنوتي، وسيرد الحديث عن المصدر الكهنوتي.

ثالثًا: مصدر التثنية Deuternomy

ويرمز له اختصارًا بالرمز D، ويعني بالإغريقية القانون الثاني، وهو مصدرٌ منفصل تمامًا عن بقية المصادر، ويتمثل في الكتاب أو السِّفر، الذي يحمل اسم التثنية أو تثنية الاشتراع، وقد تم تأليفه خلال القرن السابع قبل الميلاد، في أورشليم عاصمة المملكة الجنوبية يهوذا، وتزعم الرواية الملحقة به أنه كيف يتم إخفاء هذا المصدر منذ زمن «موسى» في جدران هيكل «سليمان» بالرغم من الفترة الزمنية الكبيرة الفاصلة بينهما؟ وأنه تم الكشف عنه أثناء عمليات ترميم المعبد عام ٦٢٢ق.م. أثناء حكم الملك اليهوذي الورع يوشيا Josias (انظر ملوك ثاني، ٢٢: ٣–١٠ و٢٢: ٣–٢٥)، حيث عثر المرممون في وجود حلقيا شيخ الأحبار أو كبير الكهنة على كتاب الشريعة وأحضره للملك، وقد ترك الحدث أثره الشديد على الملك الورع، فقام يحرم كل الطقوس الوثنية، ويمنع كل العبادات عدا عبادة يهوه، وقصر العبادة على معبد أورشليم وحده، دون بقية معابد الآلهة الأخرى، لكن الملاحظة الواضحة هو تعرض ذلك المصدر لكثيرٍ من الحشو والإضافات، من عناصرٍ ثقافية لا علاقة لها بالبيئة البدوية الصحراوية، والمفترض أنها البيئة التي عاشها الخارجون من مصر إلى سيناء، حتى نهاية زمن القضاة، لكن قراءة هذا المصدر تُبين بجلاءٍ أن المحررين كانوا ينتمون إلى ثقافة دولةٍ متماسكة يحكمها ملك، ويُعنى هذا السفر بالشريعة، وبوضع شرائع الحرب والأوامر الإلهية المباشرة لأتباعه.

رابعًا: المصدر الكهنوتي Priestly

ويرمز لهذا المصدر اختصارًا بالحرف P، وهو تجميعٌ كهنوتي يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعود إلى التركيز على العهد بين الله وبين نوح، ثم مع إبراهيم ثم مع موسى ثم مع داود، ويقوم جوهره على وجوب إخلاص الشعب اليهودي للعهد حتى يستحق الخلاص، ويتم الوفاء بالعهد من قبل الله إذا أخلص الشعب، ووفَّى لربه، وذلك بالتزام عباده بالشريعة بدقة، وشريطة أن يتمسكوا بلحظتَين تاريخيتَين جوهريتَين في تاريخهم: الأولى هي لحظة العهد القديم بين الله وبينهم ممثلين في جدهم

إبراهيم، وهو الوعد الذي منحهم الله بموجبه أرض فلسطين، مقابل أن يختتن جميع الذكور في قضبانهم، ومعلومٌ أن أرض فلسطين إبان ذلك كانت خاضعة للحكم المصري، «وكان المصريون هم الشعب الذي ابتدع الختان منذ بداية التاريخ»، في وقتٍ كان فيه المصريون هم السادة في فلسطين زمن الإمبراطورية وكانوا مختَتنين، ويبدو أن ذلك الأمر قد أمسى راسخًا، حتى وجد الإسرائيليون أنفسهم بحاجةٍ للختان، كدلالةٍ على السيادة في الأرض، والسيادة امتلاك وحكم كالمصريين. ويؤكد هذا المعنى اللحظة الثانية في تاريخهم، التي يجب أن يتمسكوا بها تمامًا، وهي لحظة خروجهم من مصر، لحظة المعجزة الكبرى وانشقاق البحر، «تأكيدًا على مصر والانتماء إليها بأي شكل»؛ لذلك فإن العزف على معجزة فلق البحر والخروج من مصر، يكاد يكون ترنيمةً أساسيةً متكررةً دائمة، يومية لدى اليهودي الورع، وتتكرر في كل أسفار أو كتب العهد القديم المقدس بلا استثناء.
(انظر الشكل رقم ١-١.)

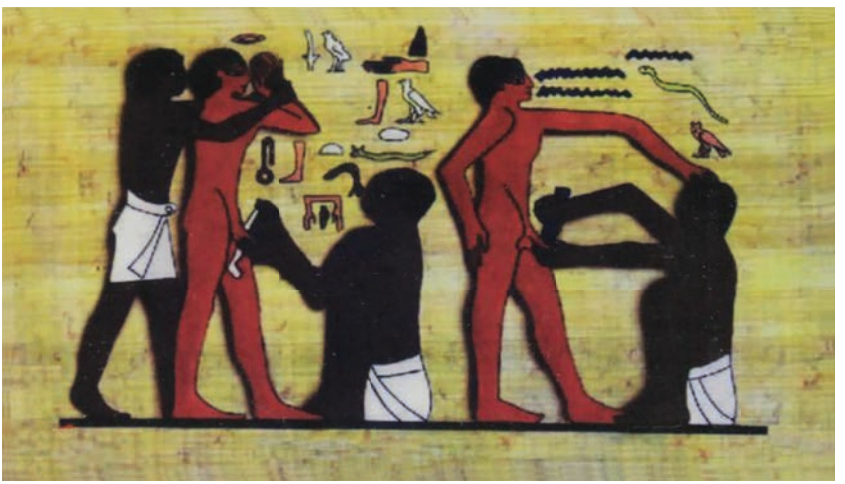

شكل ١-١: الختان المصري.

ويرجع زمن ذلك المصدر إلى عهد «عزرا»، وقد تم إدماج هذا المصدر مع المصدرَين اليهوي والإلوهيمي، حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وقد قامت مدرسة فلهاوزن بعملٍ شديد الجرأة، عندما قررت عكس الترتيب التقليدي لأسفار التوراة، بناء على ما وصلت إليه من نتائج النقد والمقارنة والتحليل، بحيث أصبح الترتيب يُعاد على النحو التالي:

العهد القديم من الكتاب المقدس

(١) أسفار الأنبياء.
(٢) الأسفار التاريخية.
(٣) أسفار موسى الخمسة + سفر يشوع = التوراة.

ثم أضيفت إليها الأسفار بعد ذلك بترتيبٍ منهجي، حسب مادتها المشتركة وموضوعها، وليس حسب الترتيب الزمني لتأليفها.

(٣) طرق تدوين العهد القديم

من كتاب اليهود المقدس ذاته، يمكن للباحث العثور على الطرق والأدوات والوسائل، التي استخدمها محررو التوراة لتدوين مؤلفاتهم، فنحن مثلًا نجد في سفر إرميا (٣٦: ٢)، حديثًا عن التدوين على أدراج، والدرج هو اللفيفة وجمعها لفائف، وتتم الكتابة عليها من اليمين إلى الشمال، وقد أكد لنا هذا سفر حزقيال (٢: ٩ و٣: ١) وسفر زكريا (٥: ١-٢) وسفر المزامير (٤٠: ٨)، وهي أسفار تشرح طريقة الكتابة، وقد استخدمت للكتابة على الأدراج أداتَين: الأولى يذكرها المزمور (٤٥: ٢) وهي قلم الإردواز، والثانية هي الأحبار، أي السوائل الملونة ألوانًا كثيفة ثابتة، وقد ذكر لنا ذلك كتاب إرميا (٣٦: ١٨).

وعلى حد ما نعلمه تاريخيًّا فإن «الأدراج اختراع مصري بحت»، وكانت تصنع من البردي، وإلى جوارها كانت الكتابة على الرق (الجلود)، وقد ظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف/الأدراج حتى القرن الثالث قبل الميلاد، حيث بدأت تأخذ شكل الكتب مع الاستمرار في العمل بنظام اللفائف، ولم يزل حتى اليوم يعمل بنظام اللفيفة أو الدرج في الأشكال الطقسية، التي تمارس في المعابد اليهودية من باب تحنيط التاريخ، ونجد ذلك مستعملًا خاصة مع أسفار التوراة الخمسة مع سفر أستير نظرًا لمناسبته الخاصة.
(انظر شكل رقم ١-٢.)

شكل ١-٢: لفيفة توراتية.

لكن ما يبدو للمدقق في قراءة التوراة، أن هناك أسلوبًا في التدوين، قد اتبع قبل القلم والحبر والدرج، هو النقش على الحجر الصلب، لكن أبدًا لم نعثر على نموذجٍ توراتي منه حتى الآن، «وهو الأسلوب المعروف في مصر على جدران المعابد وهرم وتيس، وكثير من الألواح الهامة وعلى المسلَّات»، حيث كان يتم تدوين الحدث المطلوب حفظه على الحجر الصلد بالنقش بالإزميل، وفي التوراة نجد أول شخصيةٍ توراتية تكتب باستخدام هذا الأسلوب، هو النبي موسى أو بالأحرى رب موسى حسب الكتاب المقدس، وتم استخدام هذا اللون من الكتابة في كتابة ألواح الشريعة، منقوشة على الحجر في كتابَين أو لوحَين كبيرَين.

وتزعم التوراة أن الله هو من كتبها بنفسه وبإصبعه، ثم سلَّمها لموسى، وقد وردت قصة كتابة الشريعة متناثرة في التوراة، وقد جمعناها ورتَّبناها من جديدٍ لتنطق بالآتي:

- وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك «لوحَي الحجارة» والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم، ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهارًا وأربعين ليلة (خروج، ٢٤: ١٢، ١٣، ١٨).
- ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء، «لوحي شريعة مكتوبَين بإصبع الله» (خروج، ٣١: ١٨).
- فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، «لوحان مكتوبان» على جانبَيهما، من هنا وهناك كانا مكتوبَين، «واللوحان هما صنعة الله»، والكتابة كتابة الله «منقوشة» على اللوحَين ... وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى وطرح اللوحَين من يدَيه وكسرهما في أسفل الجبل (خروج، ٣٢: ١٥، ١٦، ١٩).
- ثم قال الرب لموسى: انحتْ لك «لوحَين من حجر» مثل الأولَين، وبكر موسى في الصباح وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب، وأخذ من يدَيه لوحَي الحجر (خروج، ٣٤: ١–٤).
- وقد جاء في الأثر الإسلامي في حديث للنبي محمد ﷺ: إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده،[٥] كذلك جاء في الآيات القرآنية: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ (الأعراف: ١٤٤).

هذا إضافةً إلى أن ذات الأسلوب قد اتبع مرةً أخرى بعد ذلك، وذلك في كتابة أسفار الشريعة بيد اليهود بأمرٍ من موسى، وبذات الطريقة، وهو ما يتضح في قوله لهم:

> فيوم تعبرون الأردن إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك «حجارةً كبيرة» تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس ... «نقشًا» جيدًا. (تثنية، ٢٧: ٢، ٣، ٨)

[٥] الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١، ج١، ص٢١١.

(٤) اللغة التي دوِّن بها العهد القديم

على غلاف الكتاب المقدس نجد لافتةً تنبه وتقول: «الكتاب المقدس: أي كتب العهد القديم، والعهد الجديد (الجديد هو الأناجيل)، وقد ترجم من اللغات الأصلية وهي: اللغة العبرانية واللغة الكلدانية واللغة اليونانية.»

أولًا «العبرانية هي اللغة الكنعانية مكتوبة بالخط الآرامي المربع»، ويعترف الكتاب اليهودي المقدس صراحةً بذلك في سفر إشعيا (١٩: ١٨) بأن العبرية هي «شفة كنعان»، وهناك لغاتٌ أخرى استخدمت في الكتابة، لم تُشِر إليها اللافتة المذكورة، فنحن نعلم الآن أن بعض الأجزاء قد كُتبت بالآرامية، وأخرى كتبت بالخط المربع (هو خطٌّ آشوري أصلًا) بعد السبي البابلي، ومعلوم أن عزرا صاحب معظم أجزاء العهد القديم، قد استخدم تلك اللغة، في تدوين كتبه أو أسفاره.

لكن بعض الترتيب المنهجي والمنطقي، لا بد أن يؤدي إلى افتراض أن أول ألوان الكتابة، الذي استخدمه محررو التوراة وأول لغة «كانت هي المصرية»، فنحن نجد جميع البطاركة قبل النزول إلى مصر لا يعرفون الكتابة، ويقيمون الأدلة على العهود والمواثيق بين الناس، ليس بأوراقٍ أو نقوش، بل بقَسَم مثل القسم الذي أقسمه إبراهيم وأبيمالك عند بئر سبع، وحيث تم ذبح سبع نعاج علامة أو وثيقة للعهد، أطلق بموجبهما الاسم على المدينة «بئر سبع»، كذلك عهد يعقوب مع خاله لابان الأرامي، الذي تم بعمل رجمة أحجار تشهد بالعهد وبنوده، أو العهد الإبراهيمي مع الله وختمه بوثيقة الختان بعد أن بلغ غيتا من عمره، كتوقيع منه ووثيقة لعدم معرفتهم بالكتابة، «ثم فجأة تظهر الكتابة عند هؤلاء بالنقش على الحجر، مع خروجهم من مصر» تحت قيادة موسى، المعروف في الكتاب المقدس أنه عاش في قصر الفرعون، و«تعلم بكل حكمة المصريين» على حد تعبير الكتاب المقدس، بل ربما يجب أن نذهب بالفرض بعيدًا، فنقول إن اللغة المزعوم أن موسى قد خاطب بها ربه في سيناء «يجب أن تكون اللغة المصرية القديمة» تحديدًا، فهي لغة موسى في بلاط الفراعين، علمًا أن موسى لم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان (العبرية)، ومات وهو بعيد عن تلك الأرض، ناهيك عن كون كلمة توراة نفسها، كما قلنا مصرية قح فهي Torah في العبرية، أي التعاليم من المصرية Toroth أو شوراه أي الشريعة.[٦]

[٦] فؤاد حسنين علي: التوراة الهيروغليفية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

ترجمات العهد القديم

من المعروف أن ترجمة هذا الأثر الهائل إلى العربية عن لغته الأصلية وهي النسخة المتداوَلة الآن، قد تمت فيما هو مُحقَّق عام ١٨٦٥م، أما الترجمة الإنجليزية فقد تمت في عهد الملك جيمس عام ١٦١١م، وكلتا الترجمتَين قد تمت عن الأصل العبري، المعروف بالنص المازوري المدوَّن في القرن العاشر الميلادي، عن مجموعة نسخٍ مجهولة الآن، ومجهول تاريخها أيضًا، لكن ذلك لا يعني أن نصًّا عبريًّا أو نصوصًا لم تكن موجودة قبل ذلك، وإنما كل ما يعنيه هو أن هذه الأصول قد فُقدت، والنسخة المازورية الأقدم الموجودة الآن، تعود إلى عام ٨٩٥ ميلادية، وتم الكشف عنها «في كنيزة المعبد اليهودي في القاهرة».

وكان النص المازوري في النسخ السابقة للقرن العاشر الميلادي، غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق الحروف، فكانت جميعًا ساكنة الكتابة، وعند تدوين الأصل البعيد للنص المازوري، تم اقتباس حركات النظام البابلي في الكتابة، واستخدم في تحريك أحرف النسخة المازورية.

وهناك نصٌّ آخر دُوِّن باللغة اليونانية القديمة، ويعرف باسم النص السبعيني، وقد تمت كتابته على يد اثنين وسبعين فقيهًا يهوديًّا، بأمرٍ من ملك مصر آنذاك بطلميوس فيلادلفوس أي «المحب لأخيه» (٢٨٥–٢٤٧ق.م.)، وتزيد عن النسخة المازورية بأربعة عشر كتابًا أو سفرًا جديدًا، وهي أسفارٌ غير موجودة بالطبع في النسخة العربية؛ لأن النسخة العربية مأخوذة عن المازورية وليس عن السبعينية، وتلك الأسفار هي:

- «سفر طوبيا»: وهو وصف لسيرة أسيرٍ إسرائيلي في الأسر الآشوري بمدينة نينوى في القرن السابع قبل الميلاد.
- «سفر الحكمة لسليمان»: ويشمل أمثلةً حكمية وعظات ضد الوثنية.
- «أسفار المكابيين»: وعددها اثنان، تتحدث عن المكابيين الذين تمكنوا من الاستقلال بفلسطين، وحكمها حكمًا وطنيًّا زمن السلوقيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد جاء اسمهم من الشعار الذي كانوا يتنادون به عند القتال وهو «مي كا مو خابجييم يهوفا» أي «من مثلك بين الآلهة يا يهوه»، فأُخذ من كل كلمة حرف (م كا ب ي) شكَّلت الاسم «مكابي».
- «سفر يهوديت»: ويروي قصة أرملةٍ يهويةٍ غنية وتقية، ساعدت اليهود في الانتصار على الآشوريين في إحدى المعارك.

- «سفر الكهنوت»، ويدعى أيضًا: سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، وهو مجموعة أمثال على غرار سفر أمثال سليمان.
- «سفر تسبيحة الفتية الثلاثة»: وهي تسابيح يُقال إن أصدقاء دانيال الثلاثة كانوا يرنِّموها، وهم ملقَون في أتونٍ مشتعل بالنار، فكانت عليهم بردًا وسلامًا، وقد «نسبت تلك الحادثة في الإسلام للنبي إبراهيم»، وهو ما لم تَقُل به التوراة.
- «سفر سوزان»: أو سوسنة العفيفة، وهي قصة تمجيد من النبي دانيال لقاضٍ، دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

هذا إضافة إلى ثلاثة أسفارٍ منسوبة لعزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصل المازوري في أسفار إستير ودانيال. والمعلوم أن الكنيسة بمعظم مذاهبها لم تتخلَّ عن النص اليوناني السبعيني إلى النص العبري المازوري، إلا بعد القرن العاشر الميلادي، حيث أصبح النص المازوري هو النسخة المعتمدة للعهد القديم، ورغم ذلك ما زالت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والكنيسة الروسية وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعيني اليوناني.

(٥) مساحة الصدق التاريخي في العهد القديم

لا يخلو كتاب أو سفر من أسفار العهد القديم، من خرافاتٍ وأساطيرَ واضحةٍ ملتبسة بأحداثٍ وقعت بالفعل، مع تدخلٍ دائم من المحرر التوراتي لتفسير الأحداث، وربطها بإرادة يهوه ومشيئته. والقاسم المشترك دومًا هو الأيديولوجيا الدينية، التي تُرجع كل شيء وتُفسِّر كل شيء، بما يخدم قضية شعب الله المختار، حتى لو تم تزييف بعض الحقائق التاريخية لصالح الهدف القومي، إضافة إلى شغفٍ شديد من المحررين بالمبالغات الأسطورية، التي تكسر قواعد الطبيعة وخط سيرها لصالح الشعب المختار، بل نجد تلك الأساطير والمبالغات، قد أصبحت في اليهودية ومن بعدها في المسيحية وتراث الإسلام، موضوع تصديق وإيمان باعتبارها حقائق حدثت بلا شك.

ونظرًا لحجم الكتاب وما حواه من تأريخ وعقائد وأساطير وسير بشر وملوك، مندمجة جميعًا في صياغةٍ، كان همها الدائم والأول هو يهوه وشعبه، فقد تعددت مدارس نقد التوراة وتتالت كشوفها، بحيث أصبح بالإمكان نخل وغربلة هذا المأثور الهائل؛ لاستخلاص حقائق الأحداث التاريخية، التي يمكن أن تكون محلًّا للبحث ومعينًا للباحثين، فهناك نصوص يمكنها أن تحمل اسم الوثيقة التاريخية، وبإمكانها أن تملأ لنا فراغًا في بعض مناطق التاريخ كعلم، والتي فقدنا وثائقها التاريخية الأصلية.

والمشكلة التي تواجه الباحث أنه حتى النص، الذي يمكن احتسابه نصًّا تاريخيًّا بالعهد القديم، ويتحدث عن واقعةٍ تاريخية بعينها، قد دخله حشو وإضافات وحذف وتفسير، خرج به من فضاء التاريخية إلى الهوام في الأسطورية، وبقيت من الحقائق ظلالٌ باهتة، تحتاج من الباحث إلى مشقةٍ عظيمة، في تدقيق مصداقيتها التاريخية.

والمعلوم مثلًا أن العهد القديم، يحوي رواياتٍ تثبت معرفةً مدهشة من المحرر التوراتي، بأحداثٍ تاريخيةٍ قديمةٍ بائدة، كانت مخفيةً عنا ولم نعلم بأمرها، إلا بعد كشف مناطقها الآثارية وفك رموز لغاتها، وهي أمورٌ حديثة جدًّا قياسًا على ما سبق وساقه العهد القديم، وذلك مثل معرفة ذلك الأثر التوراتي، بأسماء مدنٍ مصريةٍ قديمة، أهال عليها الزمن النسيان، حتى وإن ورد بعضها عند المؤرخين اليونان، ولم نكتشفها ونتعرف على أسمائها بشكلٍ واضح، إلا حديثًا بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية، كأسماء مدن مثل نوف/منف، ورعمسيس/رمسيس، وتحفنيس/تفنه أو دفنه، وأون/عين شمس ... إلخ، وكأسماء فراعنة مثل شيشق/شيشنق، ونخاو، كذلك اسم فوطي فارع كاهن مدينة أون: بادي بارع، وإله الشمس رع، ومركبات فرعون، ومراكب الشمس.

هذا إضافة إلى معرفةٍ دقيقة بأحوال مصر القديمة، وعقائدها مع طقوس كطرق دفن الموتى والتحنيط ومواعيد الدفن، كذلك الأساليب المعمارية في البناء والكتابة والتوابيت، وكلها أمور لم نعلم دقائقها إلا بعد فك رموز الهيروغليفية، وما كشفت عنه الحفائر الحديثة، هذا ناهيك عن أسماء المواضع الجغرافية — مثلًا — في رحلة الخروج من شرقي الدلتا المصرية عبر سيناء وحتى فلسطين، وهي مواضع تحتمل ثقةً شديدة فيها؛ لأن لا علاقة لها بأية أهدافٍ أيديولوجية ولا أساطيرَ قومية؛ لأنها كانت مجرد مواضعَ جغرافيةٍ معلومة للجميع أوانها، حفظت لنا التوراة أسماءها وإحداثيات بعضها الجغرافية، قبل أن تتغير مسمياتها عبر الزمان.

ورغم ذلك فإن أبرز وأهم النتائج الأولى، التي خرجت بها مدارس نقد التوراة، أن نسبة الكتب الخمسة الأولى لموسى، وأنه صاحبها أو كاتبها بوحيٍ من الله، قد أصبحت نسبةً باطلة تمامًا، ولا ظل لها من الحقيقة، وبسبيل ذلك تم تقديم عدد من الأمثلة الشاهدة، إليك بعضًا منها:

- هناك عبارات تتعلق بموسى، لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه، وذلك مثل «وأما الرجل موسى فكان حليمًا جدًّا، أكثر من جميع الناس، الذين على وجه الأرض»

شكل ١-٣: نموذج من الكتابة الهيروغليفية.

(عدد، ١٢: ٣)، فهنا كاتب أو محرر يتحدث عن موسى، وليس موسى من يتحدث عن نفسه.

- هناك خبرٌ خاص بموت موسى يقول: «فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله، ودفنه في الجواء في أرض موآب» (تثنية، ٣٤: ٥)، ومن المستحيل بالطبع أن يكتب موسى عن نفسه قصة موته بعد أن مات، بل تحدد في القصة الموضع الذي دفن فيه.
- نحن نعلم أن موسى قد مات، ولم تطأ قدماه أرض فلسطين، ومع ذلك تجد في التوراة المنسوبة إليه، أسماء مواضعَ جغرافيةٍ موجودة في عمق فلسطين، هذا إضافة إلى أن أكثر أسماء تلك المواضع، لم تكن قد وضعت بعد زمن موسى، بل تمت تسميتها بعد ظروفٍ ومستجدات، حدثت بعد موت موسى بقرون، وذلك مثل ورود اسم مدينة دان في التكوين، ١٤: ١٤؛ والتثنية، ٣٤: ١، ومجموعة قرى يائير في العدد، ٣٢: ٤١؛ والتثنية، ٣: ١٤، وهي القرى التي لم تظهر أصلًا إلى الوجود، إلا في عصر القضاة (انظر قضاة، ١٠: ١٤).

- ونجد في سفر التكوين عبارات تتحدث عن يعقوب (إسرائيل) وزمنه، وتقول إن ذلك قد حدث «قبل أن يملك ملك من بني إسرائيل» (تكوين، ٣٦: ٣١؛ العدد، ٢٤: ٧)، وهي جملة لا يكتبها إلا شخصٌ عاصر العهد الملكي، وعرف بقيام المملكة، وهي بذلك لا يمكن أن تكون قد كُتبت قبل العهد الملكي لإسرائيل.
- ونجد أيضًا تعبيرًا متواترًا هو «حتى اليوم»، يلحق بحكايات بعض الأحداث، كالقول إنه تمت تسمية مدينة كذا زمن كذا، وظل هذا اسمها «حتى اليوم»، أي حتى لحظة التدوين، وبالتدقيق تكتشف أن كل الأحداث والتسميات، التي لحقها هذا التعبير، قد تمت بعد موسى بقرون، والأمثلة على ذلك كثيرة وحاشدة، ونموذجًا لها ارجع إلى (تكوين، ٣٥: ٢٠ و٤٧: ٢٦ و٤٨: ١٥؛ خروج، ١٠: ٦؛ وعدد، ٢٢: ٣٠؛ تثنية ٢: ٢٢ و١٠: ٨ و١١: ٤).
- وهناك تعبيرٌ بالتوراة يقول: «ولم يظهر نبي مثل موسى» (تثنية، ٣٤: ١٠)، وهو ما يعني معرفة المحرر بظهور أنبياء من بعد موسى، علمًا أن الأنبياء لم يبدأ تواجدهم الفعلي إلا بعد عهد صموئيل، ومع قيام المملكة.
- أما أهم ما ينفي نسبة التوراة لموسى، فهو أنها أبدًا لم تكن موضعًا واحدًا متكاملًا دفعةً واحدة، ويؤكد ذلك التكرار في قصة الخلق، الذي يشير إلى اختلاف المحررين، وهو تكرارٌ يحوي اختلافاتٍ جوهرية، تشير إلى أكثر من محررٍ، لم يلتقوا معًا، ليصفُّوا ما بينهم من خلافات.

فالعهد القديم مجموعةٌ جمَّة من التآليف، التي اشترك في وضعها محررون كثيرون، اختلفوا فيما بينهم، وهذه المجموعة من التآليف، تُعنى بمسائلَ دينيةٍ ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، وقد أبدت الكنيسة الكاثوليكية تفهمًا، لما انتهت إليه مدارس نقد الكتاب المقدس، وسجلت اعترافها بذلك، في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس، الصادرة في عام ١٩٦٠م في نصٍّ يقول: «ما من عالمٍ كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته قد كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص؛ لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده؛ لذلك يجب القول: إن ازديادًا تدريجيًّا قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.»

ولهذا كله؛ ولأن العهد القديم سيستخدم في هذا العمل كوثيقةٍ تاريخيةٍ أساسية، مثلها مثل بقية وثائق علم التاريخ، وهي الوثائق التي بدورها قد دخلها الحشو والتزييف

والأساطير والأغراض، كما في كل نصوص الحضارات القديمة بل والحديثة؛ لهذا سنسلك بقارئنا في يم هذا المأثور التوراتي ومأثورات حضارات المنطقة، برؤية التحري وعيون المباحثية قبل الوثوق، الذي سيكون بدوره دومًا محتملًا.

الفصل الثاني

«كل إسرائيل» أو مملكة إسرائيل الموحدة

يزعم الكتاب المقدس (العهد القديم) أن إبراهيم أرومة العبريين، قد جاء إلى أرض كنعان/فلسطين، قادمًا من موطنٍ أطلقت عليه مرة «أور الكلدانيين» ومرة «بلاد حاران»،[1] ليسكن جنوبي أرض فلسطين (النقب)، التي أطلقت عليه المأثورات اليهودية الكلاسيكية «أرض الأحبار»، أي أرض الأجداد الآباء البطاركة الأوائل إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط.

ويحكي المقدس التوراتي أنه قد حلت ببلاد كنعان سنواتٌ عجاف «وجوعٌ شديد في الأرض»، وكعادة البدو على حدود مصر، لجأ إبراهيم مع زوجته سارة إلى وادي النيل المصري، درءًا للموت جوعًا، وحصل من ملكها على خيرٍ جزيل وثروةٍ عظيمة، بعد أن زوَّج الفرعونَ سارة زوجته، بعد أن زعم أنها شقيقته وليست زوجته، وعاد بها بعد أن ردَّها إليه الفرعون مرةً أخرى، إلى أرض الأحبار.

وكرةً أخرى تعود كرة الجفاف والجوع، لتعم المنطقة بأسرها زمن الأسباط، لكن مصر تنجو من الجوع بحكمةٍ يوسفية، حيث تمكن ذلك البدوي المتجول حفيد إبراهيم بعد أن بيع عبدًا في مصر، أن يصل إلى أعلى المناصب بدهاءٍ إسرائيليٍّ متميز، وأن يفيض بحكمته على مصر وشعبها، بتخزين الحبوب للأعوام العجاف، وتنجو مصر وتفيء بخيرها على روادها من جيرانٍ جوعى.

---

[1] للمزيد انظر كتابنا: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.

لكن الظروف في مصر تتغير فجأة بالكلية، ويأتي طاقمٌ قياديٌّ جديد إلى سدة الحكم، ويتنكر السادة الجدد للأفضال الإسرائيلية، ويستعبدون بني إسرائيل في أعمال المعمار والإنشاء بقسوة.

وبعد مرور «٤٣٠ عامًا» فيما تزعم التوراة العبرية المازورية، أو «٢١٥ عامًا» كما تزعم التوراة السبعونية، خرجت سلالة الأسباط من مصر، تحت قيادة شخصيةٍ جبارة هي شخصية موسى، أول أنبياء بني إسرائيل، بعد أن دمر الرب يهوه مصر تمامًا، وتركها خرابًا يبابًا، وعبر الخارجون البحر المنشق بمعجزة العصا الثعبانية، إلى براري سيناء في طريقهم إلى فلسطين مرةً أخرى.

ويقضي الخارجون سنتين ارتحالًا، حتى يحلُّوا في مدينةٍ في أقصى شرقي سيناء على حدود النقب، باسم «قادش برنيع» أو «قادش عين مشفاط»، ويقضوا هناك ثمانية وثلاثين عامًا، حتى تمكنوا من غزو فلسطين من شرقها عبر نهر الأردن عند أريحا شمالي البحر الميت، وبذلك يكون قد انقضى منذ خروجهم من مصر إلى غزو أريحا حوالي أربعين عامًا، تُعرَف اصطلاحًا باسم سنوات التيه.

وعاش الخارجون على هامش الحياة الكنعانية في فلسطين، تحت حكم القضاة القبلي، حيث كان القاضي هو شيخ القبيلة. ويزعم المقدس أن زمن القضاة قد استمر حوالي أربعة قرونٍ أخرى، حتى قامت للإسرائيليين أول مملكة في فلسطين، تلك التي أسسها شاءول بعد أن اختاره للعرش الكاهن القاضي صموئيل، بضغطٍ من أفراد الشعب الذين طالبوا بالتحول عن نظام القضاة البدوي إلى النظام الملكي المركزي، أو كما قالوا لصموئيل في التوراة: «اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب» (صموئيل أول، ٨: ٥)، ليحكم شاءول على إسرائيل جميعًا أو على إسرائيل ويهوذا معًا (كل إسرائيل).

ويظهر شابٌّ وسيمٌ طموح باسم داود، يتمكن بعصابةٍ من شذاذ الآفاق وبمجموعةٍ من الحيل السياسية والمؤامرات المدروسة، يتمكن من إنهاء حكم أسرة شاءول ويقفز على العرش، وبعدها يصبح داود هو المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل الموحدة، بعد أن تم تفسير تلك الأحداث السياسية وفق رؤًى دينية، حيث ستفسر الملكية بعد ذلك باحتسابها عهدًا بين يهوه وبين داود وسلالته وأولاده، يمتد إلى العهد القديم مع البطاركة الأوائل.

وتوطدت سلطة داود المركزية، ثم من بعده سلطة ولده سليمان، الذي تمكن من تحجيم دور الكهنة ونفوذ الأنبياء الكثر، حتى إن داود بدأ يُعيِّن الكهنة بنفسه (انظر صموئيل الثاني، ٨: ١٧ و٢٠: ٢٥-٢٦)، ويؤدي بنفسه الوظائف الكهنوتية ليجمع بيديه

السلطة الزمنية والسلطة الدينية في ديكتاتوريةٍ متكاملة، ورغم أن تقديم المحرقات أو الذبائح أو القرابين للإله، كانت قاصرة على الكهنة اللاويين بأوامر الرب يهوه في شرائع موسى، وكان العقاب صارمًا لمن يفعل ذلك من غير اللاويين وينتهي بالموت، وهو السيناريو الذي تم بموجبه تصفية بيت شاءول؛ لأنه أقدم بنفسه على كسر احتكار الكهنة، وتقديم القرابين بنفسه، لكن لأن للقوة منطقها فقد تمكن داود من أن يجمع السلطتَين في يده، دون أن يخشى أحدًا ولا حتى الرب يهوه نفسه، «وأصعد محرقات أمام يهوه وذبائح سلامة، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم يهوه رب الجنود» (صموئيل الثاني، ٦: ١٧–١٨).

وعندما جاء ولده سليمان جازف أكثر، حتى إنه عندما اختلف مع الكاهن الأكبر أبيثار «طرد … أبيثار عن أن يكون كاهنًا ليهوه.» أي أنه استبعد الكاهن الأكبر ليهوه، والذي كان زمن داود كاهنًا أول لتابوت العهد في معبد يهوه المركزي، لكن كتابع لداود الملك (انظر ملوك أول، ٢: ٢٦–٢٧)، وهو ما دفع بالكهنة إلى تدبير مؤامرةٍ كبرى ضد سليمان، تزعَّمها النبي أخيا الشيلوني (أي أخيا الذي من قرية شيلوه)، بمشاركة أحد المقربين من الملك ويدعى يربعام. ويدين المحرر التوراتي يربعام، وكيف تجرَّأ ورفع يده على الملك (ملوك أول، ١١: ٢٦)، وتتضح المؤامرة من النص القائل:

> وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم، أنه لاقاه أخيا الشيلوني النبي في الطريق، وهو لابس رداءً جديدًا وهما وحدهما في الحقل، فقبض أخيا على الرداء الجديد الذي عليه، ومزقه اثنتي عشرة قطعةً، وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع؛ لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل: «ها أنا ذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، ويكون له سبطٌ واحد.» (ملوك أول، ١١: ٢٩–٣٢)

والنص هنا يصبح واضحًا، عندما نعلم أن يربعام هذا قد قام بثورة ضد رحبعام بن سليمان بعد موت سليمان، واستقل بعشرة أسباط «عُرفت في التاريخ باسم الأسباط الإسرائيلية»، وأقام مملكةً شمالية عُرفت باسم «إسرائيل»، وترك الجنوبية لرحبعام بن سليمان، وهي التي «عرفت بمملكة يهوذا الجنوبية»، وتفككت دولة إسرائيل المتحدة أو كل إسرائيل إلى دولتَين، غالبًا ما كانتا بعد ذلك متعاديتَين.

ولما كانت تلك مصيبةً كبرى قد حلَّت بالمملكة، وكان يجب الاعتراف بها، ولما كان يهوه ربًّا محبًّا لشعبه، يرجو له الخير؛ ولأن ما حدث لا بد كان قد حدث بإرادة يهوه؛

ولأن ما حدث كان شرًّا مستطيرًا؛ لذلك لجأ المحرر التوراتي لتبرئة يهوه، وإلقاء اللوم على شعبه، ولو سألنا يهوه لماذا فرقت مملكتك وشعبك؟ فإنه يرد ويقول:

> لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت إلهة الصيدونيين ولكموش إله الموآبيين، وللكولم إله بني عمون. (ملوك أول، ١١: ٣٣)

وعلينا هنا أن نلاحظ أمرًا له أهميته، وهو أن أمهات ملوك بني إسرائيل كن غير إسرائيليات، فداود يعود إلى جدةٍ موآبية باسم «راعوث»، وأبشالوم ابن داود من أم «جشورية» اسمها معكة، وسليمان ابن بتشبع «الحيثية»، ورحبعام بن سليمان من أمٍّ «عمونية» (انظر صموئيل الثاني، ٣: ٢؛ وملوك أول، ١٤: ٢١).

وملحوظةٌ ثانيةٌ مهمة وهي أن الإسرائيليين، عندما قرروا إنشاء مملكة والتحول إلى المركزية، لم يكن لديهم مراسم تتويج معلومة، «ومن هنا أخذو مراسم التتويج عن مصر القديمة، وهو دهن المسحة أو المسح بالزيت»، ومن هذه المراسيم ظهرت أهم الأفكار الإسرائيلية؛ لأن منشأ كلمة «شيحا» العبرية، يعود إلى طقس المسح بالزيت المقدس، تتويجًا للملك على العرش، أو رسم منصب الكاهن الأكبر. وتمثل الطقس التتويجي بصبِّ الزيت، أو مسحه بالإصبع على رأس المسوح أو جبهته، وبعد ذلك يتحول إلى شخصٍ مقدس لا يُمسُّ، آمرًا ناهيًا باسم الإله (انظر صموئيل الأول، ٢٦: ٩)، «وبعد مسح الملك يصبح مسيحًا مُقدسًا» (؟!).

وحتى تقوم الدولة المركزية، وتتوحد مجموع القبائل المتناثرة، أرجع المحرر التوراتي ذلك التوحد إلى الزمن القديم، فاخترع قرابات دم بين الآباء البطاركة الأوائل، أسلاف تلك القبائل، وألقى بوحدة إسرائيل في مرآة التاريخ القديم إلى وحدة عنصر ودم قرابيةٍ تأسيسية، رغم أننا سنعلم مما سيظهره هذا البحث، أنهم «كانوا قبائل ضمن مجموعاتٍ قبليةٍ عديدة، لا ترتبط برابطة الدم، قدر ما ارتبطت بروابط المصالح المشتركة».

ورغم أن سيرة داود بالكتاب المقدس، تشير إلى شخصٍ نفعيٍّ داهية، يضحي بأي كمٍّ من الدماء لتحقيق مآربه، ويعقد التحالفات حتى مع أعداء شعبه، وكثيرًا ما أظهر ورعًا زائفًا، بينما كان يسعى لتحقيق مصالحَ دنيويةٍ بحتة، فإن المحرر اللاهوتي اللاحق رفع داود إلى موضع المختار من يهوه شخصيًّا، ووضعه في مصافِّ القديسين؛ «لأن يهوه قد غفر له كل خطاياه وآثامه، والسبب أنه كان شديد المَلاحة عظيم السمت جميل الطلعة.»

وفنان أيضًا ينشد المزامير على آلات الطرب، «وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر ... يُحسن الضرب بالعود» (صموئيل أول، ١٦: ١٢، ١٧).

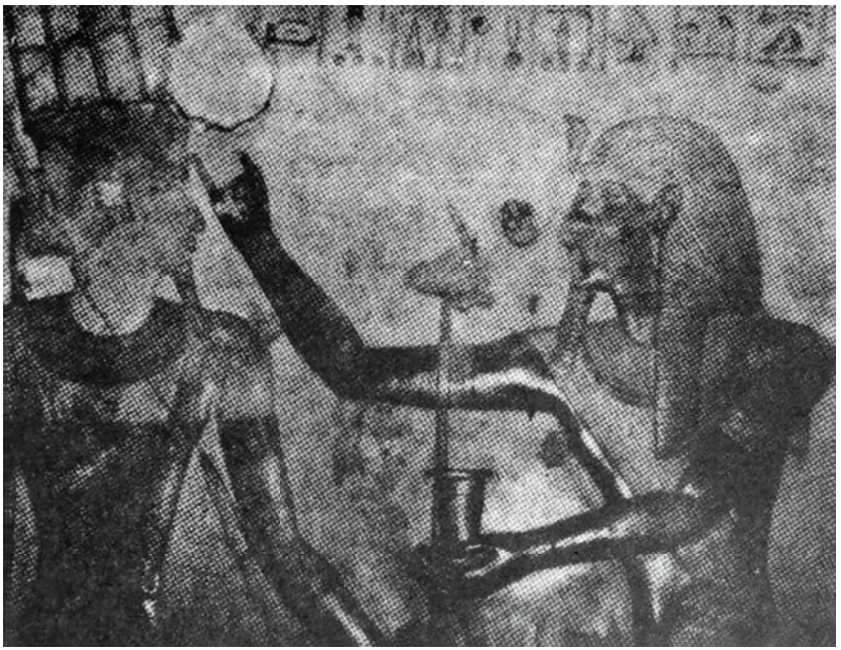

شكل ٢-١: المسحة المصرية المقدسة بالدهن أو الزيت المقدس.

وبشأن داود يقول «روجيه جارودي» في كتابه الذي كتبه بعد إشهار إسلامه، وترجمه له الداعية الإسلامي عبد الصبور شاهين:

> حينئذٍ بدأ الصعود الرهيب لداود، الذي جعل من إسرائيل قوةً سياسية. كان داود في بداية أمره حامل سلاح لشاول (صموئيل أول، ١٦: ٢١)، ثم أبعده شاول لأنه كان يغار من انتصاراته ضد الفلسطينيين (٢٨: ٨)، بل حاول قتله (١٨: ١١ و١٩: ١٠)، فهرب داود في جبال الضفة الغربية لنهر الأردن، حيث كوَّن «عصابةً» مسلحةً قوية للغزو (٢٥: ١٣)، كما كان يفعل الخابيرو قديمًا، «وعمل داود مع مرتزقته في خدمة الفلسطينيين» الذين كانوا في حربٍ عنيفة ضد إسرائيل ... ولم يكن الأمر في هذه الغارات أمر تحريم أو إبادة مقدسة، أمر

بها يهوه الرب، كما كانت الحال على عهد يشوع، إنما كانت مجرد «عمليات سطو مسلح دنيويةٍ محضة وسياسية» قامت بها المملكة التي سوف يشيدها داود، لا مع الفرق المجندة من الأسباط، بل مع جنده المحترفين من كل جنس. ولما كان داود قد تزوج من ميكال ابنة شاول، فقد كان صهرًا للملك القديم (١٨: ٢٢–٢٧)، وهو ما جعله خليفته الشرعي، عند ذلك تدخل الفلسطينيون للمرة الأخيرة فهزمهم داود، لا بواسطة جيش الأسباط بل بالمرتزقة. (صموئيل الثاني، ٥: ١٢)[٢]

ويزعم المقدس أن داود تمكن في سنواتٍ قلائل، من إقامة دولةٍ كبرى، أخضعت بلاد جيرانها مثل آدوم وموآب وعمون، بل وأجبر الأراميين في دمشق على دفع الجزية، وأخذ أورشليم من اليبوسيين واتخذها عاصمة لملكه، وجعل ليهوه مقرًّا واضحًا، بنقل التابوت المتجول، الذي ينام فيه يهوه، من حالة البداوة المرتحلة إلى حالة الاستقرار المدني في مدينة، ثم تقديسها لنزول الإله بها، وأعطى أورشليم قدسية لتصبح رمزًا لوحدة إسرائيل، رغم أن هذه القدسية كان يحوزها قبل ذلك جبل حوريب المقدس بسيناء، حيث كان يتجلَّى الرب المدمدم المزمجر العاصف الناري لموسى، وحيث صنع التابوت، وحيث التقى موسى بربه، وحيث تلقَّى موسى ألواح الشريعة، وحيث كان هناك مقر الإله وعلامات قوَّته في سيناء المصرية.

وقد تزامن تشكيل المملكة الإسرائيلية الموحدة في فلسطين مع فجر القرن العاشر قبل الميلاد، ومع بداية تمركز الأراميين في ممالك ببلاد الشام، ورغم أن البحوث الأركيولوجية لم تفدنا إطلاقًا بمثل هذا التوسع للدولة الإسرائيلية، فهو مما يوعز بشدة أن حكاية إخضاع داود للشعوب الأخرى، لم تكن سوى مبالغات من المحرر التوراتي، صاغها في حبكةٍ ملحمية، حيث لا دليل تاريخي، ولا آثاري يؤكدها أو حتى يشير إليها مجرد إشارة، لا في نصوص آثار فلسطين ذاتها، ولا في أي أثرٍ من آثار حضارات المحيط بالمنطقة جميعًا.

[٢] جارودي: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة د.ت، ص١٢٠ (لاحظ أن ذلك النسق الشرعي في وراثة العرش، بزواج داود من ميكال ابنة الملك السابق شاول، هو نسقٌ مصري بحت، فكانت شرعية الملك للحكم، بزواجه من ابنة الملك السابق، فهي صاحبة العرش أو الوريثة الملكية [المؤلف]).

لكن ذلك لا يعني شطب القصة برمَّتها، وعدم اعتماد تاريخيتها، لأن أول تقاطع بين التوراة وبين التاريخ، كعلم نجده في حديث التوراة عن ملك حكم في دمشق باسم «بن حدد بن طبريمون الأرامي»، إبان حربٍ بين مملكتي يهوذا وإسرائيل، وهو ما جاء في النص:

> وأخذ آسا (ملك يهوذا المملكة الجنوبية) جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، ودفعها ليد عبيده وأرسلهم الملك آسا إلى «بنهدد بن طبريمون بن حزيون، ملك أرام الساكن في دمشق» قائلًا: إن بيني وبينك وبين أبي وأبيك عهدًا، هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضةٍ وذهب، فتعال انقض عهدك مع بعثا ملك إسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن إسرائيل، وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالي. (ملوك أول، ١٥: ١٨–٢٠)

وفي التاريخ كعلم تعطينا الوثائق اسم ملك أرامي هو «بن حدد الأول»، وقد عثر قرب مدينة حلب على نصب بازلتي نذره هذا الملك باسمه «بن حدد بن طبريمون بن حزيون» ملك أرام دمشق للإله ملقارت، ويرجع تاريخ النصب إلى حوالي عام ٨٦٠ق.م.

وعليه نقشٌ يقول: «النصب الذي أقامه بن حدد بن طبريمون بن حزيون ملك أرام لسيده ملكارت الذي نذر له فسمع قوله.» ويحفظ هذا النصب الآن بمتحف حلب بسوريا،[٣] والمنطق التاريخي أيضًا يجب أن يفترض وجود معاركَ تنافسيةٍ حول المصالح والسيادات بين دولتَين، تنشآن في زمنٍ واحد حيث يعود تاريخ نصب بن حدد إلى السنوات الأخيرة من حكم آسا. ويصدق هنا المحرر التوراتي ويثبت أن التوراة ليس كتابًا للتلاوة الدينية والعظة الحكمية فقط، إنما هو أيضًا مصدرٌ تاريخيٌّ هام ووثيقةٌ عالية القيمة، رغم ما يشوبها طوال الوقت من تدخلات المحرر، بما لديه من أوهامٍ وأخيله وعواطف، وطموحات قادته إلى تمجيد ملوك إسرائيل تمجيدًا عظيمًا، يتناقض مع معلوماتٍ أخرى بذات المواضع بالكتاب المقدس، تشير إلى ضعفٍ شديد ووهن كان سمة لتلك المملكة وملوكها، كذلك لا يعرف علم التاريخ عظيمًا باسم داود فتح ممالك وهزم شعوبًا، ولا ملكًا كونيًّا وحكيمًا حاز شهرةً فلكية باسم سليمان، وكثيرًا ما حير هذا الأمر العلماء

[٣] فراس السواح: الحدث التوراتي، سبق ذكره، ص٢٨٢.

والباحثين فلا آثار مصر ولا العراق ولا تركيا ولا الشام ولا فلسطين ذاتها، تنطق ببنت شفة في هذا الأمر، بينما تقرر رواية سفري صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول، أن داود قد أقام إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات، وعليها قامت أحلامٌ إسرائيليةٌ كبرى في قرننا هذا، تطلب عودة الإمبراطورية الكبرى، بحسبانها أمرًا ربانيًّا وقرارًا إلهيًّا، وتقول رواية هذه الأسفار إن تلك الإمبراطورية الكبرى قد ورثها سليمان عن أبيه داود بعد موته، لكن رغم الهوس الأركيولوجي في دولة إسرائيل اليوم، والذي دفع إلى نبش الأرض في كل موضعٍ محتمل للعثور على ما يؤيد هذه الرواية، فإن كل ذلك لم يفضِ إلى العثور على أي أثرٍ مباشر أو حتى غير مباشر، يشير إلى إمبراطورية داود وولده سليمان.

وكل ما يمكن قوله — بفرض وجود شخص اسمه داود — أنه ربما كان واحدًا من الملوك الصغار تمكن من رئاسة تحالف القبائل الإسرائيلية، التي كانت تسكن فلسطين آنذاك، وفقط في مناطق الهضاب؛ لأن المسح الأثري لم يكشف أي وجود لبني إسرائيل لا على الساحل الفلسطيني ولا شمالي فلسطين عند الجليل، ولا في صحراء النقب جنوبًا، فقط ربما امتد هذا التواجد بالمواقع الجبلية الوسطى الممتدة من دان (تل القاضي الآن شمالًا) حتى بئر سبع جنوبًا.

وقد تمكن أحمد عثمان بحق من اكتشافٍ مميز، حيث قام بعقد مقارنات، انتهى منها إلى أن محرري العهد القديم في بابل إبان القرن السادس قبل الميلاد، قد علموا بقصة الفرعون الفاتح العظيم تحتمس الثالث، التي كانت تتواتر حتى ذلك الزمن بحسبانه بطلًا تاريخيًّا كبيرًا، وأنه أقام إمبراطوريةً كبرى تمتد من النيل إلى الفرات، ولا زالت قصة فتوحاته كأكبر فتوحات، تمت في العالم القديم حتى زمانه، مدونة على جدران معبد الأقصر. ويرى عثمان أن الإسرائيليين قد بهرتهم تلك البطولات والأمجاد، ولما كانوا طوال الوقت يعلنون ارتباطهم الوثيق بمصر، فلم يجدوا بأسًا في «استعارة تلك القصة البطولية من المأثور المصري، وإدخالها كما هي دون تعديلاتٍ واسعة في وسط قصتهم الرئيسية عن داود».

والمتابع للقصة بالعهد القديم يجد أن داود كان معه، جيشًا مكونًا فقط من ٦٠٠ مسلح من رجال العصابات المرتزقة، وأنه دخل بهم معارك مع بني جلدته الإسرائيليين ومع الفلسطينيين، ثم فجأة تجد تفاصيل معركةٍ كبرى، وتتحول العصابة المأجورة إلى جيشٍ عظيم، يخوض معارك عظمى عند قلاعٍ محصنة متعددة في بلاد الشام، ويرى عثمان أن سفر صموئيل الثاني تحديدًا يحتوي على إصحاحَين هما رقم ٨ ورقم ١٠

«مقتبسان بالكامل من قصة حروب تحتمس الثالث الفاتح الأعظم»، كذلك يرى أن الإصحاح الخامس يحوي جزءًا آخر من القصة المصرية، وهو المتعلق باستيلاء داود على مدينة القدس، التي كانت ترديدًا لدخول تحتمس الثالث المظفر أورشليم.[٤]

ولو حذفنا من قصة داود المستعار المصري، لاقتصرت الرواية على صراع داود مع شاول، ثم مع ابنه، ثم مع شبع بكري من قبيلة بنيامين، وكان صراعًا على العرش وليس أكثر من ذلك، فكان داود بهذا الرأي مشغولًا طوال الوقت، بخلافات العائلة والثوار الذين ثاروا عليه.

هذا ناهيك عن كون ظروف بني إسرائيل، حسبما وردتنا بالعهد القديم، تتناقض تناقضًا شديدًا مع مسألة الإمبراطورية والتوسع والفتوحات، فهم يظهرون في حالةٍ دائمة من الدفاع عن وجودهم إزاء الفلسطينيين، وهي حالة تتناقض مع استعاراتٍ، كتلك التي تقول إن داود ضرب حدد عزر، وذهب يرد سلطته عند نهر الفرات، بينما «لا نجد قبل كورش الفارسي، أي ذكر لأي ملكٍ من ملوك العالم القديم، تمكن من مد حدوده ما بين النيل والفرات، سوى تحتمس الثالث».[٥]

ويرى عثمان أن محرري التوراة، قد اختاروا قصة تحتمس الثالث، لنسبتها إلى داود لأسبابٍ أهمها: أولًا أن تحتمس الثالث كان أول من أقام إمبراطورية تشمل العالم القديم المعروف في زمانه، وثانيًا أن اسمه «تحوت-موسى» يتطابق في شقه الأول «تحوت» مع اسم «داود»، وفي رأينا يجب نطق «تحوت» الإله المصري «ضحوت» أو «ضحوض» وهو الأقرب، ويتطابق مع اسم «داود» تمامًا والحاء تسقط بالتخفيف والإهمال، وسنقدم في الفصول المقبلة الكثير عن هذا الإله، وثالثًا، أن تحتمس الثالث هو الفرعون، الذي دخل إبراهيم في زمنه إلى مصر، وهو الذي تزوج من سارة،[٦] «وهنا نختلف مع عثمان، ونتباعد تمامًا عن بقية ما يقوله حتى النهاية.»

ونترك عثمان يستمر في سرد رؤيته لنعود إلى بدايته، حيث يجد ثلاثة إصحاحات خارج سياق الرواية، وضمنها ما ورد في الإصحاح الخامس عن استيلاء داود على أورشليم، ويقول هذا الإصحاح: «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم سكان الأرض، وأخذ

---

[٤] أحمد عثمان: تاريخ اليهود، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١، ص١٣٦، ١٣٧.

[٥] نفسه: ج١، ص١٤٣، ١٤٤.

[٦] نفسه: ج١ ص١٤٤، ١٤٥.

داود حصن صهيون، هي مدينة داود.» وعاش داود في الحصن وزاد من تدعيمه، وبدلًا من القتال المستمر بينه وبين الفلسطينيين، نجد فجأة قصة حروبٍ عظيمة، خاضها داود ضد تحالفٍ أعظم، ضم ملوك كنعان وبلاد الشام، ويقوم داود هنا بدور البطل المغوار المهاجم، الذي يغزو كل الممالك الواقعة بين النيل والفرات، وتقول النصوص المقحمة على حكاية داود الأصلية، إن مركز اللقاء الحربي قد حدث عند مدينة ربة (بالعربية: ربطة/الرباط [المؤلف])، وكانت عاصمة بلاد عمون الواقعة شرقي نهر الأردن، ويحتمل أنها عمان الأردن الحالية، وتحكي القصة أن ملك هذه المدينة توقع مهاجمة داود له، فقام بجمع ملوك دويلات بلاد فلسطين والشام تحت قيادة هدد أو حدد عزر ملك واحدة من الممالك الآرامية، وتجمعت جيوش الأحلاف عند ربة بني عمون، وقسمت نفسها قسمَين: واحد داخل أسوار المدينة والآخر خارج المدينة على الأرض المكشوفة بالجوار منها، وفعل داود ذات الأمر، فقسم جيشه قسمين، وعند الالتحام العسكري هربت جيوش التحالف المتجمعة في الأرض المكشوفة، وأسرعت مع ملوكها بدخول المدينة المحصَّنة، وأغلقوا الأبواب؛ مما اضطر داود لفرض الحصار عليها، وترك جيوشه تحاصر مدينة ربة، وعاد إلى أورشليم ينتظر استسلامها، وبالفعل تمكنت جيوشه من فتح مدينة ربة، فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها وأخذ تاج ملكهم عن رأسه، ووزنه وزنة من الذهب مع حجرٍ كريم، وكان على رأس داود، وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جدًّا (صموئيل ثاني، ١٢: ٢٩، ٣٠).[٧]

ورغم الهزيمة التي مُني بها التحالف، نجد حدد عزر ملك صوبة الآرامية موجودًا، وينظم التمرد ضد داود؛ مما يشير إلى وجوب استنتاج أنه هرب بجلده من الهزيمة عند ربة عمون، لكن داود يتمكن مرةً أخرى من هزيمته، عندما سار إلى شمال سورية، حين ذهب «ليرد سلطته عند نهر الفرات.» ونصب داود تذكارًا (أقام لوحة/نصبًا تذكاريًّا) عند نهر الفرات، يخلد بها انتصاراته الكبرى، وبعد هذا النصر المؤزَّر، استسلمت لداود كل ممالك التحالف السوري الكنعاني، وأصبحوا من أتباعه «ولما رأى جميع الملوك عبيد هدد عزر، أنهم انكسروا أمام إسرائيل، صالحوا إسرائيل واستعبدوا لهم.» ومن ثم قام داود ينشر حامياته العسكرية في سورية وكنعان، ليضمن سيطرته عليها، ولضمان تدفق الجزية في مواعيدها.[٨]

---

[٧] نفسه، ج١ ص١٤٩.

[٨] نفسه: ج١ ص١٥٠.

ويرى عثمان أن كل ذلك السرد البطولي، لا علاقة له بداود الإسرائيلي بل بتحتمس/تحوت/ضحوت المصري، ويحكي: «وكان الملك أحمس قد بدأ حكم الأسرة ١٨ في مصر عام ١٥٧٥ق.م. عندما طرد ملوك «الهكسوس الكنعانيين» من مصر (مسألة أن الهكسوس كنعانيون بهذا القطع، نخالف فيها عثمان كما سيظهر من السير في بحثنا هذا [المؤلف]) ... وجاء آمنحتب الأول فخرج إلى كنعان وجنوب سورية في مطاردةٍ لفلول الهكسوس ... ولم يكن لآمنحتب الأول ولد فزوَّج ابنته إلى القائد العسكري تحتمس (الأول [المؤلف])، وتمكن هذا الملك — مع أن حكمه لم يتجاوز ١٨ سنة — من الوصول بجيشه إلى جنوب الأناضول عبر الفرات، وهناك أقام لوحةً سجَّل عليها أخبار انتصاراته، وكان لتحتمس ابنٌ من زوجةٍ أخرى غير زوجته الملكية، أراد أن يخلفه على العرش، فزوَّجه حتشبسوت ابنته الوريثة، لكن تحتمس الثاني (أي هذا الابن [المؤلف]) لم يكن مقاتلًا مثل أبيه، فهو لم يقم بأي معركةٍ حربية طوال عقدين من الزمان، جلس فيهما على عرش مصر، وواجه تحتمس الثاني المشكلة التي واجهها الأب من قبلُ، فهو لم ينجب ابنًا من الوريثة حتشبسوت، وكان له ابنٌ وحيد من محظيةٍ اسمها إيزيس، أراد أن يجعله وليًّا للعهد، ومع أن حتشبسوت أنجبت له بنتًا، إلا أنها لم توافق على زواجها من ابن المحظية، فحرمته من حق خلافة أبيه عن هذا الطريق (كان حق العرش في مصر القديمة، لمن يتزوج الأميرة الوريثة [المؤلف]).

وبسبب عدم وجود ولي عهد شرعي في البلاد، قام الكهنة في يوم احتفال العيد بحمل تمثال آمون في تابوت، وطافوا به حول قاعة الأعمدة الكبيرة بالكرنك، وتحرك التابوت وجاء عند ابن الملك — وكان ما زال طفلًا لا يتجاوز الخامسة من عمره، وقد التحق بالمعبد للدراسة — وقاده الكهنة وأوقفوه عند قدس الأقداس في المكان المخصص للملوك، وكان ذلك تعبيرًا عن أنه أصبح ابنًا لآمون بالتبنِّي، فضار له الحق بالتالي في خلافة أبيه في العرش، من دون حاجةٍ إلى الزواج من الوريثة، وخلف الطفل أباه على العرش باسم نفرو رع تحتمس الثالث، ومع ذلك وبسبب صغر سنه، أصبحت حتشبسوت زوجة أبيه وصية عليه، وسرعان ما أعلنت نفسها ملكة إلى جانبه، وطوال حياة حتشبسوت التي استمرت ٢٢ عامًا بعد وفاة زوجها، ظل تحتمس الثالث بعيدًا عن السلطة.

... وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم بعد أبيه، كان قد مر حوالي أربعين عامًا خلال حكم أبيه وزوجة أبيه، لم يشن الجيش المصري أي حملاتٍ عسكرية، وكان ملك قادش

الواقعة في منتصف الطريق بين دمشق وحمص في شمالي سورية، قد تزعم تحالفًا من ملوك سورية وكنعان في حركة تمرد على السلطة المصرية.»[٩]

ويقف عثمان يرصد مقارنًا فيرى القصتَين، تتفقان على مواجهة الملك لتحالف من ملوك كنعان وأرام، بقيادة ملكٍ أرامي عند مدينةٍ محصنة، وفي كلتا القصتَين نجد جيوش التحالف مقسمة إلى قسمَين، أحدهما داخل المدينة والآخر خارجها، وكذلك فعل الملك فقسم جيشه قسمَين، وفي كلتا القصتين تهزم جيوش الملك المتحالفين، الذين يهرعون إلى داخل أسوار المدينة، وأن الملك بطل القصة في القصتَين، قد حاصر المدينة وأقام في مدينةٍ أخرى، ثم ذهب ليتسلم المدينة بعد استسلامها، وفي كلتا القصتين نجد ملك التحالف المهزوم، يهرب ويعود إلى مملكته، ويجمع شتات المتحالفين المتمردين مرةً أخرى، لكن ليسير إليهم بطل القصة ويهزمهم، ثم يسترجع سلطته عند الفرات، ويقيم على الفرات نصبًا تذكاريًّا، ويعلن كل الملوك ولاءهم ويدفعوا الجزية، ويقيم الملك البطل حاميات في كل مكان، إعلانًا عن نفوذه أينما كان.[١٠]

وبعدها يعرج عثمان على القصة الأصلية، حيث دونت هناك في جنوب الوادي المصري، على جدران معبد الأقصر بعاصمة الإمبراطورية الكبرى ليحكي لنا: «وخرج تحتمس الثالث بجيشه من مدينة زارو الحربية عند القنطرة شرق، وسار في طريق حورس بشمال سينا متجهًا إلى كنعان، ووصل الملك إلى مدينة غزة، وكانت ما تزال خاضعة للنفوذ المصري، وهناك احتفل بعيد جلوسه الثالث والعشرين، وكانت المعلومات التي وصلت القيادة المصرية، تفيد بأن ملك قادش جمع عددًا كبيرًا من ملوك سورية وكنعان، عند مدينة مجدو بوسط كنعان، وكانت أكبر مدينةٍ محصنة، فسار تحتمس الثالث بجيشه على سلسلةٍ جبليةٍ وعرةٍ محاذية للبحر، وكانت هناك ثلاثة طرق تؤدي لهذه المدينة، طريق ينتهي غربي مجدو والثاني يؤدي إلى جنوبها الشرقي، بينما الثالث كان طريقًا أشد وعورة «مع ضيقٍ شديد»، لكن تحتمس الثالث قرر ركوب الصعب، فسلك الطريق الثالث رغم خطورته؛ لأنه الطريق الذي كان لا بد سيستبعد الأعداء مجيئه منه، وكانوا قد قسموا جيوشهم قسمَين، واحد داخل المدينة والآخر خارجها يقف عند نهاية الطريق الممهد ينتظرون مجيئه.

---

[٩] نفسه، ج١، ص١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

[١٠] نفسه، ج١، ص١٥٥.

واختبأ تحتمس الثالث يومين في الجبال، حتى يسمح لجيشه «بعبور المضيق»، وقسم جيشه إلى وحدتَين، كان هو نفسه على رأسهما، فوق عربته الحربية المطهمة بالذهب، وخرج عليهم من عند المضيق مباغتًا؛ ليجدوه في القلب من صفوفهم، وكان لظهور المصريين المفاجئ أثره، فارتبك جيش الأحلاف، وأخذوا يولون الأدبار تاركين الخيول والعجلات والسلاح، فانهمك أفراد الجيش المصري في الغنيمة، دون متابعة العدو واحتلال المدينة؛ مما أعطى الفرصة للأحلاف للتحصن داخل أسوار مجدو وإغلاق أبوابها، واضطر تحتمس الثالث إلى فرض الحصار على المدينة، بينما تمكن ملك قادش الزعيم من الهرب، وذهب تحتمس الثالث ينتظر تسليم مجدو في مدينةٍ أخرى، فتحت له أبوابها دون قتال، وبعد سبعة أشهر استسلمت مجدو، وخرج أمراء التحالف يحملون الهدايا لتحتمس طالبين السلام، وسلموا كل أسلحتهم ومركباتهم، وعند حضور تحتمس لاستلام المدينة وقف أمامه ٣٥٠ ملكًا، يعلنون خضوعهم لسلطان مصر.

وعاد الفرعون المنتصر إلى عاصمته المصرية في طيبة، بينما كان ملك قادش يعيد تجميع الأحلاف مرةً أخرى، فخرج إليه تحتمس الثالث بعد سبع سنوات، ليستعيد نفوذه الذي سبق وأقامه جده عند نهر الفرات، وسقطت قادش وعبر تحتمس الثالث الفرات، «وأقام بجوار نصب جده التذكاري نصبًا جديدًا، يسجل أخبار انتصاراته»، وبذلك يكون تحتمس الثالث هو الشخص الذي تنطبق عليه عبارة العهد القديم، جملة وتفصيلًا وكلمةً كلمة، وهي التي تقول عن داود إنه: «ذهب ليرد سلطته عند الفرات، ونصب تذكارًا هناك.»[١١]

ولا يبقى سوى اختلافاتٍ طفيفة بين القصة التوراتية وبين القصة المصرية، وهي ما يبرره عثمان بقوله: «أما استخدام كتبة العهد القديم لأسماء أخرى مثل «ربة» بدلًا من «مجدو»، و«صوبة» بدلًا من (قادش)، فهذا شيءٌ متوقع منهم لمحاولة إخفاء الأصل الحقيقي للقصة، فمدينة ربة هي عمان الحالية عاصمة الأردن، ولم تكن سوى قريةٍ صغيرة غير محصنة في عصر داود، «أما صوبة فلم يتم العثور على موقع بهذا الاسم، في أيٍّ من المصادر التاريخية القديمة»، ومجدو (تل المتسلم حاليًّا حسبما يرى بعض الباحثين)، التي كانت أهم المدن الحربية في كنعان، موجودة داخل الإمبراطورية، التي يقول سفر أخبار الملوك الأول، إن داود أورثها لسليمان، وجاءت نتيجة الحفريات الحديثة

[١١] نفسه: ج١، ص١٥٣–١٥٥.

لتنكر كل ما نسبه كتبة العهد القديم لداود من انتصاراتٍ مزعومة. ومع أنه تم العثور على ما يؤكد دمار المدن، التي تقول القصة بدمارها على يد داود، إلا أن تاريخ هذا الدمار ثبت أنه يرجع إلى عصر تحتمس الثالث في النصف الأول من القرن ١٥ق.م. وليس إلى عصر داود بعد ذلك بخمسة قرون.»[١٢]

ولنا هنا ملحوظة، وهي أن المعلومات التي خالفت بها التوراة القصة المصرية، ربما لم تكن مخالفة، لو نظرنا إليها من وجهة نظر أخرى، ستأتي في حينها في ثنايا عملنا هذا، «حيث سنفترض لمملكة صوبة مكانًا آخر تقع فيه، ووفق هذا الفرض سنكتشف أن مجدو كانت تقع في الجوار منها فعلًا، وأن قادش في النصوص المصرية كانت تقع بدورها في الجوار من صوبة، كما أشارت النصوص التوراتية.»

ويتابع عثمان مقارناته فيقرأ بالعهد القديم، أن داود بعدما صار ملكًا على كل إسرائيل (يهوذا وإسرائيل)، قام بالاستيلاء على مدينة أورشليم «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض، وأخذ داود حصن صهيون وهي مدينة داود.» وتعبير الملك ورجاله لا يشير إلى جيوشٍ جرارة، تفتح البلاد وتهزم الملوك، إنما يشير إلى عصابةٍ تتكون بحدٍ أقصى من ٦٠٠ مقاتل، وقد اعتمد داود خطةً ذكية لدخول مدينة أورشليم المحصَّنة، فقد كانت المدينة تقوم على هضبةٍ مرتفعة، وكانت تحصل على المياه من نبع في أسفل الوادي بأسفل المدينة، عبر ممرٍّ محفور تحت أسوار المدينة يصل إلى عين الماء، وكان يمكن الحصول على الماء أثناء الحصار بهذا الشكل، دون أن يخرجوا من المدينة المرتفعة، وكان داود يعرف هذا الأمر، فأعلن أنه سيكافئ الرجل الذي يمكنه أن يتسلق البئر إلى داخل المدينة، ويفتح أبوابها، بتعيينه رئيسًا على رجاله. وهكذا تمكن داود من الاستيلاء على أورشليم، لكن عثمان يعقب بأنه قد «عجز الأثريون عن العثور على بقايا تدعم هذه الرواية.»[١٣] لكن في واقع الأمر أن عثمان لا يعرف أنه قد تم العثور على ذلك الموقع جميعه، وبتفاصيله الدقيقة مع الأثر الأركيولوجي المدوَّن، الذي يحكي قصة حفر النفق بين المدينة العالية، وبين مصدر المياه البعيد المنخفض.

معروف أن أورشليم التي كانت تُعرَف بمدينة اليبوسيين، نسبة إلى قبيلة يبوس التي سكنتها، واتخذتها مدينةً منيعة وقلعةً حصينة، كانت تقع بكاملها إلى الجنوب

---

[١٢] نفسه: ج١، ص١٥٦-١٥٧.

[١٣] نفسه: ج١، ص١٦١.

من أورشليم الحالية، على سلسلة تلال القدس الشرقية، «وقد تطابقت جغرافية المدينة وطبوغرافيتها المكتشفة، مع عرض العهد القديم بشأنها»، فقد بُنيت المدينة على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية، وبني الهيكل على الجزء الأوسط منها، أما الجزء الشمالي فلم يكن ضمن المدينة القديمة، ويقع حاليًّا ضمن مدينة القدس، وتحيط بأورشليم التلال من جوانب ثلاثة، كما هو واقع وكما هو وارد في «مزامير، ١٢٥: ٢»، فإلى الشمال الشرقي يقع جبل المشهد أو جبل المشارف، ويسمى أيضًا جبل سكوبس، وإلى الشرق يقع جبل الزيتون، وفي الجنوب جبل المكبر.

وأما الوديان فيقع وادي قدرون شرق أورشليم بين المدينة وبين جبل الزيتون، وكان يسمى وادي يهو شافاط أيضًا (يوئيل، ٣: ١٢)، ويسميه العرب الآن وادي الست مريم، وفي الغرب بين سلسلة التلال الشرقية والغربية، يقطع المسافة وادي تيبريون، ويسميه العرب اليوم «الوادي» فقط، وإلى الغرب من التلال الغربية يقع وادي هنوم، الذي يسميه العرب الآن وادي الربابة.

وقد أثبتت التنقيبات أن المدينة تعود إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد زمن عصر البرونز الأول، ويبدو أنها كانت مدينةً صغيرة بدون أسوار، ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، تظهر دلالات انقطاعٍ حضاري وسكني، يبدو أنه قد حدث إبان الموجة الهكسوسية، التي احتلت مصر حوالي ذلك الزمان. ومع مطلع عصر البرونز الوسيط يلاحظ انتعاشًا جديدًا، وتظهر المدينة اليبوسية، التي تم العثور على سورها وتزمين بنائه بحوالي عام ١٨٠٠ق.م. «وهي الفترة التي ظهر فيها لأول مرة اسم أورشليم في نصوص مصر.»[١٤]

وكان موضع المدينة محاصرًا بنبع جيحون في وادي قدرون، وكان المصدر الرئيسي لمياه الشرب، ومن ثَمَّ تم بناء السور قرب النبع لحمايته أثناء الحصار، لكنه من جانبٍ آخر بُني بحيث لا يهبط نحو الوادي، فيكشف المدينة والمدافعين عنها، ومن هنا «تم حفر نفق تحت الأرض بين المدينة والنبع، يمر أسفل السور وتم الكشف عنه»، وهو قناة سلوام المذكورة في الرواية التوراتية، والتي نفذ منها القائد يوآب ومجموعته، لاقتحام المدينة بطلب الملك داود، كما في سفر صموئيل الثاني (٥: ٨) وأخبار أيام أول (١١: ٦، ٧).

ومن أهم أعمال الملك اليهوذي حزقيا الباقية للآن، هو سحبه مياه نبع جيحون، إلى قناةٍ تمرُّ تحت مدينة أورشليم، حتى وادي تبريون لتصب في بركة سلوام في موقع

[١٤] KathLeen Kenyon, Digging Up Jerusalem, Ernest Ben, London, 1974, pp. 76–83.

محصن، لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد، الذي يغذي المدينة بالمياه، «وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى، وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود، وأفلح حزقيا في كل عمله» (أخبار أيام ثاني، ٢٢: ٣، ٤، ٣٠)، ولم تزل بركة سلوام موجودة وتعرف اليوم باسم بركة سلوان، ويعرف نبع جيحون باسم نبع العذراء، وقد اكتشف المنقب وارن Warren القناة في ١٨٦٧م، ونظَّفها المنقب باركر Parker في ١٩١١م، وتابع العمل بها بعثة الأركيولوجية كاثلين كينيون ١٩٦١–١٩٦٧م، ويتطابق مجرى القناة المكتشفة الآن مع وصف سفر أخبار الأيام الثاني.[١٥]

وقد تم العثور على نقشٍ حجري، يصف اللحظة الأولى لانتهاء حفر القناة اليبوسية تحت المدينة، وكيف التقى فريقا الحفر القادم كلٌّ منهما من الاتجاه المعاكس، ويقول النقش: «بينما النحاتون يرفعون فأس الحفر كلٌّ تجاه رفيقه، وبينما بقي ثلاث أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادي أخاه؛ لأنه وجد ثقبًا في الصخر من ناحية اليمين، وفي يوم انتقابه ضرب النحاتون رجل أمام رجل، وفأس على فأس، وسالت المياه من النبع إلى البركة، مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع، وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين.»[١٦]

ولأن أحمد عثمان فيما يبدو، لم يتابع تلك الكشوف، فقد أنكر قصة أولئك الجنود، الذين دخلوا المدينة عبر النفق والقناة، واحتسب أورشليم هي المدينة التي استراح فيها الملك الفاتح داود أو تحتمس الثالث سبعة أشهر، كانت هي مدة حصار ربة كما في قصة داود، أو حصار مجدو كما في قصة تحتمس، وأنها كانت مدينةً صديقة للفاتح، فتحت له أبوابها دون قتال ورحبت به؛ لذلك أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم مدينة السلام أو أورشليم.[١٧]

هذا رغم أنه كان بإمكان عثمان المتابعة، وافتراض أن قصة دخول المدينة عبر النبع والقناة، قد حدثت بأمرٍ من تحتمس الثالث، وليس داود، خاصة وأن أورشليم لم تكتسب اسمها زمن تحتمس الثالث، كما يذهب عثمان، إنما أبعد من ذلك بكثير، وقد سبقت إشارتنا إلى أن أول ظهور لهذا الاسم، كان في النصوص المصرية حوالي ١٨٠٠ق.م.

---

[١٥] فراس السواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٤٣، ١٤٤، ١٥٠، ١٥١.

[١٦] إسرائيل ولفنستون: تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠م، ص٨٣.

[١٧] أحمد عثمان: تاريخ اليهود، سبق ذكره، ج١، ص١٦٢، ١٦٣.

«أي قبل زمن تحتمس الثالث بحوالي أربعة قرون كاملة»، ورغم ذلك يصر عثمان ويتابع القول، إن «هذه المدينة التي انفردت بإعلان السلام مع الملك المصري في تلك المعركة، أصبح السلام جزءًا من اسمها منذ ذلك التاريخ، فهي صارت معروفة على أنها مدينة السلام أو أورشليم، والمدينة التي يسميها العرب قدس أو بيت المقدس، لم تعرف في أيٍ من المصادر القديمة باسم أورشليم، إلا بعد عصر تحتمس الثالث.»[١٨]

ويرى عثمان أن تحتمس الثالث، لم يذكر في قائمة المدن الكنعانية، التي أخضعها مدينة باسم أورشليم؛ لذلك افترض أنها تلك التي جاءت في نصوصه باسم قادش، الذي هو اسم القدس الحالية، هذا «بينما سنفترض نحن لقادش افتراضًا آخر سيأتي في حينه».

وكما قدم عثمان قراءته الجديدة لأهم السجلات المقدسة، حول المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل الموحدة أو كل إسرائيل المعروف باسم داود، وأبان عن ميلٍ شديد من المحرر التوراتي، إلى نسبة الأعمال العظيمة لبني إسرائيل، كما حدث مع تحتمس الثالث وداود، فإنه يعرج على مبالغات المحرر التوراتي بشأن مملكة سليمان الأسطورية، ليكشف لنا أنها لم تكن سوى تسجيل لصدى أيام حكم الفرعون المصري آمنحتب الثالث، هارون رشيد العالم القديم، لكنه يقول لنا هذه المرة، إن هناك مصادرَ أساسية لتلك المقارنة، ثم لا يذكرها لنا، فهو يؤكد أنه قد «لاحظ كثيرٌ من المؤرخين الشبه الشديد بين قصة سليمان كما وردت في سفر الملوك الأول، وتفاصيل حياة آمنحتب الثالث تاسع ملوك الأسرة ١٨ المصرية، والذي حكم لمدة ٣٩ عامًا عند بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد.»[١٩]

وعن هؤلاء المؤرخين الذين «لاحظوا» يأخذ عثمان ثم يحكي، «كان آمنحتب الثالث يسيطر على معظم أرجاء العالم المعروف في زمانه، وعندما توفي والده تحتمس الرابع، كانت الأمور استقرت للملك الصغير، الذي تولى الحكم وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وعمد آمنحتب الثالث إلى الزواج من أميرات ممالك الإمبراطورية، وتبادل الهدايا مع الملوك خصوصًا الذهب، الذي كانت مصر تحصل عليه بكثرةٍ من مناجم أفريقيا. وفي العام العاشر لحكمه «تزوج آمنحتب، الأميرة جيلوخيبة ابنة شورتانا ملك ميتاني بشمال ما بين النهرين»، وجاءت العروس إلى مصر في موكبٍ كبير، ومعها ٣١٧ امرأةً من الوصيفات للانضمام إلى حريم الملك.»

---

[١٨] نفسه: ج١، ص١٦٣.

[١٩] نفسه: ج١، ص١٧٢.

«... وعاد آمنحتب فتزوج أميرةً أخرى من مياني وأميرتين من بابل، وأميرة من سوريا إلى جانب زوجاته المصريات.»[٢٠]

ثم يتابع: «عندما جلس آمنحتب الثالث على عرش مصر، كان الثراء قد وصل درجةً لم يصل إليها من قبلُ، ولا وصل إليها في أي عصرٍ لاحق، واستطاع الملك الذي ساد السلام في عصره، أن يستخدم هذا الثراء في البناء، سواء في مصر أو في بلاد سورية وكنعان، فشيد المعابد والقصور والمدن المحصنة، وكان لوجود عددٍ كبير من أسرى الحرب في ذلك الزمان أثرٌ فعال.»[٢١]

ثم يعقد المقارنات مع قصة العهد القديم، التي تتحدث عن ثروة سليمان، التي كانت تأتيه من الممالك الخاضعة له «وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنةٍ واحدة ستمائة وستين وزنة ذهب.» وكانت فترة حكم سليمان فترة سلام، فلم يقم بأي حروب طوال سني حكمه الأربعين؛ لذلك استعمل تلك الثروات في المعمار والإنشاء، كبناء قصر الملك وبناء المعبد والهيكل، استخدم فيه جيشًا من البنَّائين، جمعه من بين الشعوب التي خضعت له، كما امتلأ قصره بالغيد الحسان من زوجات وجوارٍ، وصل عددهم إلى ما يربو على الألف امرأة، ويلاحظ عثمان أن «كل النسوة لم يكن بينهن ولو واحدة فقط من بني إسرائيل»![٢٢]

ثم يقول: «وبينما لم يتم العثور على أية بقايا لكل هذه الإنشاءات، ترجع إلى القرن العاشر ق.م. الذي عاش فيه سليمان، نجد الأدلة كلها تؤكد أن هذه الأعمال نفسها تمت من أربعة قرون، قبل ذلك في عهد آمنحتب الثالث. والبعثة الأمريكية التي قامت بالكشف عن القصر الذي بناه آمنحتب الثالث غرب الأقصر، أكدت أنه كان مكونًا من البيوت نفسها، التي ورد ذكرها في قصة سليمان، وما زال خشب الأرز اللبناني قائمًا هناك.»[٢٣] ... وإن هذه الإمبراطورية الإسرائيلية الوهمية، اختفت تمامًا كالسراب في قصص العهد القديم نفسه، «بمجرد أن وارى التراب جثة سليمان، فلا قصور ولا حصون ولا جيش جرارًا، ولا سفن تجوب البحر إلى أوفير، ولا خشب من صور، ولا جزية من أرام سورية

---

[٢٠] نفسه: ج١، ص١٧٢-١٧٣.

[٢١] نفسه، ج١، ص١٧٢.

[٢٢] نفسه: ج١، ص١٦٩-١٧٠.

[٢٣] نفسه: ج١، ص١٧٤.

أو من موآب وآدوم في الجنوب»، وعادت القصة إلى الصورة الأصلية لقبائل بني إسرائيل المنتشرة على سفوح الهضاب الفلسطينية، في حالةٍ مستمرة من الدفاع عن النفس أمام قوًى كانت دائمًا أكبر منها بكثير.»[٢٤]

والمعلوم أنه بعد موت سليمان، انقسمت المملكة إلى يهوذا في الجنوب، وإسرائيل في الشمال، بينما قام الفرعون شيشنق المصري، بمهاجمة مملكة يهوذا، ولم تسجل نصوصه شيئًا عن مملكةٍ قوية في فلسطين، ولم يذكر شخصًا باسم سليمان ولا بالإشارة، بينما كان العهد القديم يشير إلى مملكةٍ وصل نفوذها إلى الفرات، وطبقت شهرة ملكها سليمان الآفاق، ومن ثم يعقب فراس السواح بالقول: «فإما أن التاريخ قد أحبك مؤامرة صمت مقصودة، وإما أن هذه المملكة الموحدة لم يقم لها قائمة، إلا في خيال المحرر التوراتي؛ فلم يتم العثور على بنيةٍ واحدة من بُناها، وعلم الآثار كما تقول السيدة كينون، لا يستطيع تقديم أية فكرة عن مدينة العصر الذهبي وثرائها، وقصور سليمان التي بناها له ولزوجاته.»[٢٥]

ويتابع: «وفي قصة زواج الملك سليمان من ابنة الفرعون، يقع المحرر في تناقضٍ يظهر الطابع الخيالي لنفوذ سليمان الداخلي والخارجي، فقد صعد فرعون مصر المجهول الاسم على فلسطين وأخذ مدينة جازر، وهذه لا تبعد عن أورشليم أكثر من بضع عشرات من الكيلومترات. وهكذا نعرف مدى النفوذ الفعلي للملك سليمان، الذي وصلت سلطته إلى الفرات، وكان عاجزًا عن ضم مدينةٍ كنعانيةٍ قوية، لا تبعد إلا رمية حجر من عاصمته.»[٢٦]

ثم يتساءل السواح: «وإذا كانت سلطة داود قد وصلت الفرات، فلماذا لم يصطدم بالآشوريين؟ ولماذا خلا الخبر التوراتي من أي ذكر لهم ولتواجدهم في عبر النهر؟ ولماذا لم يرد ذكر لداود في الوثائق الأرامية، التي اكتشفت في عواصم ومدن ممالك أرام عبر النهر؟ ... هذا المحرر لم يكن يقصد إلى تقديم نصٍّ تاريخيٍّ موثق عن حرب داود، بل إلى تزيين سيرة هذا الملك الملحمي بأخبار حروب، جمعها من الذاكرة القبلية للمنطقة.»[٢٧]

---

[٢٤] نفسه: ج١، ص١٧٧.

[٢٥] فراس السواح: أرام دمشق، سبق ذكره، ص١٤٩–١٥٠.

[٢٦] نفسه: ص١٤٧.

[٢٧] نفسه: ص١٣٢.

أما «زياد منى» فيقول بشأن ما جاء عن سليمان وملكه وحكمته في العهد القديم: «إن المحرر اتخذ موقفًا منحازًا لسليمان بن داود، ولا يمل من كيل المدح له، لكن المتابعة الدقيقة لعهد سليمان التوراة، تبين أنه «كان أبعد ما يكون عن الحكمة، فولعه غير العادي بالنساء، جعله يستحق صفة زير نساء من الطراز الأول»، أما ضعف مقاومته لكافة أنواع البذخ والترف ومتع الحياة الدنيا، فجعله أبعد ما يكون عن الحكمة، وأقرب للولد العاق، الذي أضاع الثروة التي قضى الأب عمره في جمعها. فالتوراة تسجل في سفر ملوك أول (٩: ١٠–١٣) بصريح العبارة أن سليمان اضطر للتنازل عن بعض أقاليم مملكته، وإجراء تعديلاتٍ حدودية، لرد بعض الديون التي استحقت عليه من قبل بعض الممالك المجاورة، كما أن اهتمامه وبطانته ببذخ الحياة، هي التي أدت بلا شك إلى تراخي جيشه، التي عبر عنه بفقدان بعض أقاليم مملكة داود سفر ملوك أول (١٤: ١١–٢٢)، فأية حكمة هذه التي تؤدي إلى انهيار المملكة فور موت ملكها؟! إن انقسام مملكة داود إلى إسرائيل ويهوذا بعد وفاة سليمان، كانت النتيجة الحتمية لسياسة الأخير «التي يمكن نعتها بأي صفةٍ باستثناء الحكمة»، أما الأحاديث التوراتية المطوَّلة عن إنجازات عهده، فلا يمكن أخذها جديًّا لأنها تدخل ضمن التراث الأدبي الشعري العام، هذا عدا أنها لا تنقل لنا أي عمل مادي محدد، وفيما يتعلق بمسألة الهيكل فمن الضروري الإشارة إلى أن «علماء التوراة — كثيرًا في الخفية وقليلًا علنًا — لا يقبلون الادعاء بأن سليمان التوراة قام ببناء أي معبد»، بل إنهم مقتنعون بأن الهيكل لم يكن أكثر من قاعة أو غرفة في القصر الملكي. إن سياسة سليمان التي قامت على استعباد الشعوب الأخرى المقيمة بالمملكة، واستثنائها من المشاركة في السلطة شكلت القاعدة الوحيدة لموقف المحرر الإيجابي تجاهه، وهذا هو منبع مديح الكهنة لسليمان وعهده، كما أن سليمان على عكس أبيه داود شارك المحرر الكهنوتي في وجهة نظره القائمة على حصر إسرائيل في مجموعةٍ معينة، وعمل على تطبيق ذلك نصًّا وروحًا.»[٢٨]

(انظر أيضًا شكل رقم ٢-٣.)

[٢٨] زياد منى: بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، الأهالي، دمشق، ١٩٩٥م، ص١١٨، ١١٩.

شكل ٢-٢: خريطة لمواقع الأحداث القديمة حسبما رأى المؤرخون.

شكل ٢-٣: خريطة لموقع الأحداث بالأقمار الصناعية.

الباب الثاني

مصر والتوراة

الفصل الأول

قبل زمن الخروج

علاقة القبيلة الإسرائيلية ببلاد مصر، علاقةٌ وطيدة تلمسها بطول الكتاب المقدس (العهد القديم) وعرضه، هناك مصر دومًا وباستمرار، ويحكي المقدس التوراتي أن أول علاقة للقبيلة العبرية بمصر، قد حدثت في زمن أول البطاركة وأبيهم، ذلك الذي عرفه التاريخ باسم أبي الكثرة أو أبي الرهام أو إبراهيم، كناية عن وصف الكتاب المقدس لنسله الآتي، بأنه سيكون في الكثرة العددية كرمال الصحراء ومياه البحر، رغم أنه لم ينجب إلا بعد أن بلغ من عمره عتيًّا.

ولنبدأ الحكاية التوراتية من البداية ...

يأتي البطرك إبراهيم إلى فلسطين غريبًا من بلادٍ بعيدة، يقول المقدس مرة إنها أور الكلدانيين، ومرة إنها بلاد حاران داخل الحدود التركية الآن شمالي بلاد الشام الأقصى، وقد انتهينا في كتابنا النبي إبراهيم والتاريخ المجهول إلى قدومه من منطقة أرمينيا الحالية، وأن وصف التوراة لسلف القبيلة الإسرائيلية بأنه كان أراميا «أراميًّا تائهًا كان أبي.» كان يعني بلاد أرمينيا الحالية تحديدًا.

وعند وصول إبراهيم إلى فلسطين، كان يعيش إلى جوار أهلها الكنعانيين أقوامٌ أخر، منهم الفلسطينيون القادمون من جزر البحر المتوسط، والحيثيون القادمون من تركيا، مع عددٍ آخر من العروق البشرية دوَّنتها التوراة بتكرارٍ مفصل.

ومن البداية تظهر مصر في تاريخ التوراة، فتحكي التوراة أنه قد حدثت في فلسطين مواسم من الجفاف، دفعت بإبراهيم لنزول مصر هربًا من المجاعة. والغريب أن إبراهيم في تلك الرحلة يتمكن من الاقتراب من القصر الملكي المصري، عن طريق مَلاحة زوجته سارة وجمالها، ثم يخرج من مصر بأموالٍ جزيلة، أهداها له الفرعون. «لكن المقدس لا يعلمنا بمن كان هذا الفرعون؟ ولا باسمه؟ ولا في أي مدينة كان يعيش؟ ولا السر وراء

اهتمامه بهذا الراعي البسيط؟ سوى حكاية سارة غير المقبولة بذوقنا القيمي اليوم، وإن كان المفسرون يرون تلك الروايات، دلالة صدق الكتاب المقدس بسرده سقطات الآباء القيمية.»

ويعود إبراهيم إلى فلسطين ثريًّا موسرًا، يعيش جنوبها ينتقل بين مدائن الجنوب أو النقب، يعيش حياة البداوة في الخيام مع سوائمه، التي ترعى وتتحرك ويتحرك معها وراء الكلأ.

وينجب إبراهيم من سريته المصرية هاجر ولده إسماعيل، لكن السياسة الأيديولوجية التأسيسية للكتاب المقدس، تستبعد إسماعيل من التركة المقدسة؛ لأن إبراهيم قد أنجب بعده ولدًا حرًّا من زوجته سارة هو إسحاق، وينجب إسحاق: عيسو ويعقوب، ومرةً أخرى تتم التصفية والغربلة، فيستبعد عيسو السلف البعيد للشعب الآدومي، ليبقى يعقوب وحده في المصفاة، ويحمل يعقوب اسم إسرائيل في شبابه، وينجب اثنى عشر ولدًا أو سبطًا، ومع الأسباط يعود ذكر مصر مرةً أخرى، فقد حنق الأسباط المكرمون على أخيهم الحلوم الصغير يوسف، لما تميز به عند أبيه يعقوب من حظوة، ومن هنا يتآمرون على الصغير المليح، ويلقونه في بئرٍ جافة، فتلتقطه قافلة تجار، وتبيعه في مصر ... وفي مصر يشتريه «فوطي فار» رئيس الجند أو «... رئيس الشرط»، وهو اسمٌ مصريٌّ قح «بادي بارع» أي «من يعطيه رع»، و«رع» هو رب الشمس المصري ورب الدولة.

ويرتفع شأن يوسف في مصر زمن مجاعة، نجت منها مصر بالحكمة اليوسفية، ويرتقي سدة الوزارة العظمى آنذاك، وهي وزارة الخزانة أو المالية، وكان توليه شئون مصر الاقتصادية، مدعاةً لدخول متغيرات جوهرية، على أنظمة مصر الاقتصادية، ومن ثم الاجتماعية، فبعد أن كان الناس يعيشون أحرارًا يملكون أرضهم، ويتعبدون لمن شاءوا بين مئات الآلهة، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة ومصالحها، يقول المقدس:

> اشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله؛ لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون. فقال يوسف للشعب: إني اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، فقالوا أحييتنا ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي، فنكون عبيدًا لفرعون، فجعلها يوسف فرضًا على أرض مصر إلى هذا اليوم. (تكوين، ٤٧: ٢٠–٢٦)

ويستدعي يوسف أهله ليقيموا معه في مصر «وسكن إسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدًّا» (تكوين، ٤٧: ٢٧).

> وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر، مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته، رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وأشير، وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسًا، ولكن يوسف كان في مصر، ومات يوسف وكل إخواته وجميع ذلك الجيل، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرًا جدًّا، امتلأت الأرض منهم، «ثم قام ملكٌ جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف» فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هل نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير، لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن: فيثوم ورعمسيس. (خروج، ١: ١–١١)

وكثيرًا ما أثار دهشة الباحثين تعبير التوراة أن السبعين شخصًا الذين دخلوا مصر قد صاروا أكثر عددًا من المصرين أنفسهم، ويعطي سفر التكوين صورةً هائلة لعدد هؤلاء عندما خرجوا من مصر تحت قيادة موسى «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد» (خروج، ١٢: ٣٧). وبحسبةٍ بسيطة تضع الأولاد والنساء في التعداد سنجد الخارجين لا يقلون بحال عن المليونَين من البشر، هذا ناهيك عن زيادة أخرى على هذا لرقم، لأنه «صعد معهم لفيف كثير أيضًا.» ولا نعلم من هم هؤلاء اللفيف (سيأتي الحديث عنهم في موضعه من هذا الكتاب)، لكنهم على أية حال كانوا زيادةً عدديةً أخرى.

ويطرح السؤال نفسه: كم قضى هؤلاء من الزمن في مصر، حتى يبلغوا هذا العدد الهائل؟ وتأتينا الإجابة: «وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، فكانت أربعمائة وثلاثين سنة» (خروج، ١٢: ٤٠)، لكن الأغرب والأكثر تناقضًا في هذه الرواية، أن الإسرائيليين منذ دخولهم أسباطًا زمن شقيقهم يوسف إلى زمن خروجهم، لم يستغرقوا سوى أربعة أجيال فقط، حيث تروي التوراة أن لاوي شقيق يوسف أنجب قهات، وأن قهات قد أنجب عمران، وأن عمران قد أنجب موسى، الذي خرج بهم من مصر (خروج، ٦: ١٤–٢٠) «فقط، وهكذا؟! أربعة أجيال عاشت أربعة قرون وثلث القرن، بل وأنجب هؤلاء الأربعة الملايين من البشر!!» لكن في موضعٍ آخر نجد المقدس، يحيطنا علمًا أن فترة

إقامتهم في مصر، لم تتجاوز حياة جيلٍ واحد، وهو لم يصرح بذلك، لكنه ما يفهم مما سجله، ففي سنوات يوسف الأخيرة يشهد يوسف ولادة أولاد أحفاده «وأولاد ماكير بن منسي [ابن يوسف] أيضًا ولدوا على ركبتي يوسف» (تكوين، ٥٠: ٢٣) ثم نرى أولاد ماكير أبناء حفيد يوسف (لأن ماكير بن منسي بن يوسف) يخرجون مع موسى من مصر إلى فلسطين (يشوع، ١٣: ٣ و١٧: ١)، وهو ما يعني أن المدة الفاصلة بين دخول مصر والخروج منها، لم تتجاوز حوالي المائة عام؛ لأن الذين ولدوا في مصر في حياة يوسف، هم من خرجوا من مصر مع موسى، وهم من دخلوا فلسطين مع يشوع خليفة موسى.

وما أكثر المدهشات بالكتاب المقدس، لكن أكثرها إدهاشًا ما تعلق منها بقصة موسى، الذي قاد بني إسرائيل في رحلة خروج كبرى عبر سيناء إلى فلسطين، فقد هرب هؤلاء من تسخير وعبودية مصر، «ومعهم مواشٍ وأغنام كثيرة» (خروج، ١٢: ٣٨)، الأمر الذي يتناقض والأوضاع المعلومة للعبيد.

والفرعون حسب التوراة قد خشي من الكثرة العددية للمستعبدين لديه، وسخرهم في بناء مدينتَيه الكبيرتَين؛ فيثوم أو بالمصرية بي توم، أي مقر الإله آتوم، ورعمسيس/مدينة رمسيس؛ لذلك أمر الفرعون بقتل من يولد لبني إسرائيل من الذكور «كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها» (خروج، ١: ٢٢). وفي هذا الظرف العصيب …

> ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابنًا، ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ، أخذت له سفطًا من البردي وطلته بالحمر والزفت، ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به؟ فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبيٌّ يبكي فرقَّت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت اخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي، وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة الفرعون فصار لها ابنًا، ودعت اسمه موسى وقالت: إني انتشلته من الماء. (خروج، ٢: ١–١٠)

لكن موسى حسب رواية التوراة بعدما يفع واجتاز مرحلة الصِّبا إلى الرجولة لم ينسَ أصله رغم أنه قد أصبح أحد نبلاء البلاط، فقتل مصريًّا انتصارًا لإسرائيلي، فطلبه القصاص القانوني، فهرب من مصر إلى مكان تصفه التوراة بأنه: «أرض مديان» (خروج، ٢: ١٥) ويبدو أنها كانت أرضًا صحراوية؛ لأن موسى عندما ذهب هناك «جلس عند البئر» (خروج، ٢: ١٥) ويبدو أنها كانت قرب مخرج مصر، حيث لا تفاصيل بالتوراة، عن رحلةٍ طويلة لموسى؛ مما يعني أن المديانيين كانوا ينتشرون في سيناء، حتى حدود مصر الشرقية مع سيناء.

والتقى موسى ببعض غيد مديان عند البئر، فاستقى لهن بشهامة، فذهبن وأخبرن أباهن «فقلن رجلٌ مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وأنه استقى لنا» (خروج، ٢: ١٩)، ولحسن حظ موسى كان أبوهن كبيرًا من وجهاء مديان، فهو «رعوئيل» أو «يثرون» سيد وكبير كهنة مديان، وتنتهي أحداث هذا الجزء بالحدث السعيد، ويتزوج موسى من صفورة بنت يثرون، وينجب منها ولدين هما جرشوم وألعازر.

واشتغل موسى برعي غنم حميه يثرون، وبينما هو مع أغنامه عند سفوح الجبل المقدس المعروف بجبل الله أو جبل حوريب «جبل الله حوريب» (خروج، ٣: ١) من عبارة «هو الرب» العبرية، رأى ظاهرةً عجيبة، نبات مضيء؟ نبات يبدو مشتعلًا بالنار لكنه لا يحترق؟ واقترب موسى المشدوه بالمشهد، لكن ليكتشف أن ذلك الضوء ضوءٌ إلهي مصحوب بصوتٍ يناديه: «لا تقترب إلى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك؛ لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرضٌ مقدسة» (خروج، ٣: ٥).

ويتعارف الاثنان، ويقدم هذا الإله نفسه لموسى هكذا: «أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، رأيت مذلة شعبي الذي في مصر؛ فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جيدة وواسعة» (خروج، ٣: ٦–٨).

ويبدو أن «موسى كان يجهل اسم «إيل»، رب البطاركة» الأوائل المفترض أنهم أسلافه؛ لذلك سأل الإله عن اسمه وصدق إجابته فورًا، في حوارٍ سأل فيه موسى ربه «فإذا قالوا لي ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذي «أهيه ... يهوه» إله آبائكم ... هذا اسمي إلى الأبد» (خروج، ٣: ١٣–١٥).

وكانت خطة يهوه هي إخراج بني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، بترتيباتٍ إلهيةٍ مدعومة بالمعجزات، فأعطى موسى آياتٍ سحرية كالعصا الثعبانية وإضاءة يده، إذا أدخلها

في جيبه أو «عبه» بتعبير التوراة، وكانت الخطة هي إيهام الفرعون أن الإسرائيليين بحاجةٍ إلى إقامة احتفالٍ دينيٍّ خاص بهم، يذبحون فيه حيوانًا مقدسًا عند المصريين؛ لذلك فهم بحاجةٍ إلى الابتعاد عن مساكن المصريين «نمضي ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا» (خروج، ٣: ١٨)، وبعد ابتعاد مسيرة ثلاثة أيام في الصحراء يكونون قد أصبحوا بعيدين بمسافةٍ كافية، ويمكنهم الاستمرار في الهرب وهم آمنون من اللحوق بهم، لكن كان عليهم أيضًا بأمر يهوه أن يستعيروا حلي المصريات ومصوغاتهن الذهبية زينة للعيد، ثم يفرون بها، أو كما أمر يهوه موسى قائلًا: «وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين» (خروج، ٣: ٢١، ٢٢)، لكن موسى كانت لديه حجةٌ أخرى جعلته مترددًا في تنفيذ أوامر يهوه، وهو أنه «ثقيل الفم واللسان»، فجعل له يهوه من أخيه هارون ناطقًا بما يريد ومبلغًا.

«وقال الرب لموسى في مديان: اذهب ارجع إلى مصر؛ لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» (خروج، ٤: ١٩)، وبموت الفرعون، الذي كان يطلب القصاص من موسى لقتله المصري، بات موسى آمنًا في العودة إلى مصر، وذهب موسى وهارون فور العودة إلى قصر الفرعون، يطلبون منه السماح بارتحال بالمستعبدين في أعمال المعمار، إلى البوادي الشرقية ليذبحوا لإلههم، فرفض الفرعون، لكن يهوه أعلن لشعبه: «أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراعٍ ممدودة وبأحكامٍ عظيمة وأتخذكم لي شعبًا وأكون لكم إلهًا» (خروج، ٦: ٦-٧)، وهكذا اختار يهوه شعبًا خاصًّا له ليتأله عليه، وحمل هذا الشعب من يومها لقب «الشعب المختار».

ويبدأ يهوه ألاعيبه ليثبت أنه أشد سحرًا من السحرة المصريين، وأنه أقوى من فرعون الذي كان أقوى ملوك العالم، وكان الانتصار عليه انتصارًا عالميًّا بل وكونيًّا، فقام يهوه يركز غضبه على عصب الحياة والاقتصاد والزراعة المصري، فيقوم بضرب نهر النيل ليتحول إلى دم، ليضطر المصريون إلى الحياة كالبدو والرعاة بحفر الآبار للشرب، كي لا يموتوا عطشًا (خروج، ٧: ١٩–٢٤)، وينشر الضفادع في بلاد النيل (خروج، ٨: ٥، ٦)، ثم البعوض (خروج، ٨: ١٦)، ثم الذباب (خروج، ٨: ٢٠–٢٤) ثم ينشر الوباء بين البشر والسوائم (خروج، ٩: ٣–٦)، مع دمامل وبثور (خروج، ٩: ٨–١٠)، ثم يسلط ظواهر الطبيعة الرديئة على الوادي الغني ليفقره، كالبرد الثلجي والنار والرعود (خروج، ٩: ٢٢–٢٦)، ويلحق بها الجراد ليقضي على البقية الباقية من خيرها (خروج، ١٠: ١٢–١٥)،

ثم ينزل بالبلاد جميعها ظلامًا دامسًا وقت النهار (خروج، ١٠: ٢١–٢٣)، حتى تأتي ضربة يهوه العاشرة وهي قتل الصبية المصريين من الأبكار، وكذلك أبكار السوائم أيضًا:

> وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو منتصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحا، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخٌ عظيم في كل أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحا، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخٌ عظيمٌ في كل أرض مصر. (خروج، ١١: ٤–٦)

وإبان ذلك جميعه، تصرُّ دراما الفزع والرعب التوراتي، على تأكيد أن المصريين وحدهم، هم من عانى تلك الضربات، بينما كان الإسرائيليون يسكنون أرض جاسان في مصر، ولم تصبهم ولا أرض جاسان التي سكنوها أيٌّ من شرور يهوه الكونية تلك، لكن يبدو أن المحرر التوراتي لم ينتبه، وهو يؤكد تلك العناية والرعاية، من يهوه لشعبه المختار، أنه قد جعل من جاسان حيث يقيم شعبه، مقرًّا للبلاط الملكي الذي استحق كل هذا الدمار والغضب اليهوي، والذي لا شك لم يلحقه بدوره هذا الدمار، لوجوده في مقاطعة جاسان، التي لم تصب بأي أذًى، ولكن ذلك لم يكن شاغلًا للمحرر، فهو متأكد من وجود جاسان بعيدًا عن الضربات، وهو ما أصرَّ المحرر على تأكيده مع كل ضربةٍ يهوية، انظره يقول مثلًا:

> أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت المصريين ذبانًا وأيضًا الأرض التي هم عليها، «ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لا يكون هناك ذبان». (خروج، ٨: ٢١، ٢٢)

> فماتت جميع مواشي المصريين «وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها واحد». (خروج، ٩: ٦)

> فأعطى الرب رعودًا وبردًا وجرت نار على الأرض ... «إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد». (خروج، ٩: ٢٣–٢٦)

> ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء، ليكون ظلام على أرض مصر ... «لكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم». (خروج، ١٠: ٢١–٢٣)

ثم يختتم يهوه وعصاته الثعبانية تلك المغامرات المدمرة واللذات الشاذة بإغراق المصريين جميعًا مع فرعونهم وجيوشهم في لجج البحر المفلوق بالعصا السحرية الثعبانية (خروج، ١٤).

لكن وسط كل هذا الصخب الأسطوري والضجيج السحري، يضع المحرر شروحاتٍ جغرافيةً بينية، لخط سير الخروج، تلتقي إلى حدٍّ مدهش مع أوضاع الجغرافيا في شرقي الدلتا المصرية المتصل بالصحاري السينائية، فهناك كان بداية طريق حورس الحربي الكبير المؤدي إلى فلسطين، والمسمى أيضًا طريق فلسطين، لكن يهوه ينحرف بشعبه عن هذا الطريق الأسهل، لتحاشي قتالٍ متوقَّع، ويأمر أتباعه بالاتجاه نحو بحر باسم بحر سوف، ومن مدينة باسم «سكوت» — وردت بذات الاسم بالوثائق المصرية القديمة أيضًا — يتحركون نحو بادية باسم إيثام في طرف الصحراء، ومن هناك ينزلون على بحر سوف بين ثلاثة إحداثيات جغرافية هي: مجدل، وبعل صفون، وفم الحيروث، وعند نقطة فم الحيروث تفلق العصا الحية البحر، ليعبر الإسرائيليون بينما يغرق الفرعون وجنده عند مطاردتهم للإسرائيليين، إذ ينطبق عليهم البحر المفلوق (خروج، ١٣: ٢٠، ١٨؛ ١٤: ٢).

والغريب أن الخارجين لم يكتفوا باصطحاب أنعامهم الوافرة، بل حملوا معهم من مصر ذهبًا هائل الوفرة، لم يجد له المحرر التوراتي سوى تكرار تفسير يقول: «وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعةً فضةً وأمتعة ذهبًا وثيابًا، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس» (خروج، ١٢: ٣٥–٣٧).

وهكذا يخرج بنو إسرائيل من مصر تحت قيادة موسى في خط سير جغرافي شديد التدقيق (بالتوراة)، يتجهون معه نحو جبل الله حوريب المقدس في عمق سيناء، ويستغرق رحيلهم سنتَين كاملتَين، حتى يحطوا في قادش في أقصى شرقي سيناء، ليعيشوا هناك ثمانية وثلاثين عامًا كاملة، ومن قادش تبدأ رحلة غزوهم لفلسطين بعبور الأردن، من شرقيِّه عند جبل نبو إلى غربيِّه عند أريحا، رغم أن قادش كانت تقع في النقب جنوبي فلسطين، دون أي عوائق أو موانعَ جغرافية مع فلسطين شمالها، لذلك يظل السؤال ينتظر إجابة: لماذا اجتاز الإسرائيليون مانعَين هامَّين؟ الأول هو مانع سيادي حيث اجتازوا دولة آدوم مشرِّقين، ثم التفافهم من الشرق إلى الغرب بعبور مانعٍ جغرافي هو نهر الأردن، لماذا كل هذه الالتفافة وفلسطين على مسيرة يوم أو يومَين شمالي قادش؟

الفصل الثاني

النظريات التاريخية للخروج

(١) نظرية أن الإسرائيليين هم الهكسوس

تعدُّ أقدم نظرية طُرحت بشأن خروج بني إسرائيل من مصر، تلك التي تربط بينهم وبين الهكسوس، الذين ورد ذكرهم في الوثائق المصرية كمحتلين أجانب للبلاد، وتعتبرهم مع بني إسرائيل شيئًا واحدًا، وكان صاحبها هو المؤرخ اليهودي «فلافيوس يوسفيوس» (٣٧–١٠٠م)، الذي حصل على تكريم الإمبراطور الروماني «فيسبيان»، وقام بتأليف كتبٍ ثلاثة، هي على الترتيب: «العاديات اليهودية»، ويتناول فيه تاريخ بني إسرائيل، ثم «الحروب اليهودية»، ويعالج فيه ثورات القبائل الإسرائيلية بفلسطين ضد الحكم الروماني، أما الثالث — وهو الأهم لموضوعنا — فهو الكتاب الذي وضع فيه نظريته، حول خروج بني إسرائيل من مصر، وهو الكتاب المعروف بعنوان «ضد آبيون»، وقد ألَّفه ردًّا على «آبيون النحوي السكندري» المصري، الذي كان يبغض الجنس الإسرائيلي، ويكنُّ للإسرائيليين كراهيةً شديدة ومقتًا عظيمًا، ودوَّن عنهم رواية تقول: إنهم كانوا نوعًا من الأجناس القذرة الدنسة بين بني البشر، وإنهم عاشوا في مصر عبيدًا، دون أن يتعلَّموا من أهلها قواعد النظافة والتطهر، فأصابتهم علل القذارة، مثل البرص والقراع وما يشوب الجلد من قرح، فلما خشي المصريون تفشِّي الوباء بينهم «طردوهم من بلادهم» وقادهم في رحلة خروجهم من مصر إلى فلسطين عبر سيناء، ذلك الشخص المدعو «موسى».

وقد رد «يوسفيوس» اليهودي على «آبيون النحوي» المصري في كتابه: «الرد على آبيون»، ليؤكد أن هؤلاء الأنجاس الدنسين، لم يكونوا سوى الهكسوس، الذين دخلوا مصر بلد آبيون المصري غزاةً فاتحين، حكموها كملوك ولم يعيشوا فيها كعبيد، ولم

يكونوا أنجاسًا ولا ملاعين، وقد دعم «يوسفيوس» رده هذا بكلام المؤرخ المصري «مانيتون السمنودي»، وكان «مانيتو» كاهنًا مصريًّا، عاش زمن الملك «بطلميوس الثاني» ملك مصر، الذي حكم حوالي عام ٢٨٣–٢٤٦ق.م. ودوَّن تاريخ بلاده باللغة اليونانية، بتكليفٍ من ذلك الملك، ليقدم للإغريق صورة عن تاريخ مصر.

وقد تمكن «مانيتو» بجهدٍ وحذق، وبمعرفته بلغة بلاده وباللغة الإغريقية، أن يتابع بمهارةٍ نقوش مصر القديمة ومدوناتها الحجرية والبردية، التي كانت قائمة حتى زمانه، وأن يجمع منها تاريخًا متكاملًا لوطنه، هذا إضافة إلى سبعة كتبٍ أخرى، جاءنا منها فقط بعض أسمائها، ومنها «تون فيزيكون أبيتومه» وخصصه للاهوت المصري والقصص الديني في التكوين والخلق، وكتاب «في صنع بخور المعابد»، وكتاب في التقويم المصري والتقسيم الزمني بعنوان «كتاب الشعرى اليمانية سيتوس»، إلا أن الكتاب الذي حاز الشهرة، ونقل عنه المؤرخ اليهودي «يوسفيوس»، ويعد عمله الرئيس، هو كتاب تاريخ مصر «إيجبته ياكا»، وهو مصنف في مجلداتٍ ثلاثة، يغطي المجلد الأول منها تاريخ الأسرات المصرية الحاكمة الأولى، من الملك «مينا» موحد القطرين حتى الأسرة الحادية عشرة، ويتناول المجلد الثاني المساحة الزمنية الممتدة ما بين الأسرة الحادية عشرة وبين الأسرة العشرين، ثم يتابع معالجة بقية الأسرات في المجلد الثالث، الذي ينتهي عند حكم آخر ملك مصري وطني، وهو الذي أسماه «نيكتا نيبوس».

وقد ألف «مانيتو» كتابه «إيجبته ياكا» باللغة اليونانية، لكن لسوء الحظ لم تصلنا منه أية نسخة، سوى تلك الشذرات التي نقلها عنه «يوسفيوس» في كتابه «الرد على آبيون»، إضافة إلى ما نقله آخرون مثل «يوليوس الأفريقي/أفريكانوس» (ت ٢٢٠م)، و«سنكلوس» (ت ٨٠٠م) في كتابه «تاريخ العالم من الخليقة حتى دقلديانوس».

ومن الجدير بالتنويه هنا، أن خبر نجاسة الجنس الإسرائيلي وإصابته بأوبئة عدم النظافة، لم يكن بدعًا من «آبيون» المصري، حيث نجد بعد ذلك حوالي عام ٩٠٠م، ترجمة عربية لكتابٍ قديم أَلَّفه كاهنٌ كنسي هو «هروشيوش» أو «أورسيوس» باسم «تاريخ العالم»، بتكليفٍ من القديس المسيحي «أوغسطين» شخصيًّا، يقول فيه «هروشيوش» نقلًا عن مؤرخٍ قديم باسم «قرناليس»:

> قال قرناليس: اتفقت دواوين أصحاب الأمر، على أنه أصابت القبط (المقصود هنا المصريين [المؤلف]) جوائح أفسدت أبدانهم، وشوَّهت أجسامهم، وأن ملكهم

بخوريم Boccorim رأى أن يعالج ذلك «بنفي من ظهرت عليه الجائحة» فتجمعت من المنفيين جماعات، كان على رأسهم رجل يدعى موسى، حضَّهم على أن يتخلوا عن الاستنصار بالأوثان، ويتبرءوا من عبادتها، ويفوِّضوا أمرهم لرب السماء لينصرهم ويشفيهم من دائهم.[١]

والواضح في تأريخ «هروشيوش»، أنه لا يرى الإسرائيليين جنسًا يتميز بذاته، قدر ما يحتسبهم «صنفًا من المصريين» أصابهم وباءٌ مُعدٍ، فنفاهم أهلوهم خارج البلاد، تحسُّبًا من انتشار المرض بين بقية المصريين.

وفي رده على «آبيون»، يؤكد لنا «يوسفيوس» أنه سينقل عن «مانيتو» المصري بكل أمانة، حتى إنه سينقل ذات الكلمات بالحرف، وهو بصدد ذلك يروي الراوية التالية:

«توتيمايوس» في عهده، لسببٍ لا أعرفه، حلَّت بنا ضربة الإله، وفجأة، تقدم في ثقةٍ بالنصر، غزاة من إقليم الشرق، من جنسٍ غامض، إلى أرضنا، واستطاعوا بالقوة أن يتملَّكوها بسهولة، دون أن يضربوا ضربةً واحدة.

ولما تغلبوا على حكام الأرض، أحرقوا مدننا بغير رحمة، وقوَّضوا أرض معابد الآلهة، وعاملوا المواطنين بعدوانٍ قاسٍ، فذبحوا بعضهم، وساقوا زوجات آخرين وأطفالهم إلى العبودية، وأخيرًا عيَّنوا واحدًا منهم ملكًا يدعى «سالاتيس»، وكان مقره ممفيس، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى، وكان يخلف وراءه حاميات في الأماكن الهامة.

وفي المقاطعة السيتورية، وجد مدينة ذات موقعٍ طيب «تقع على الضفة الشرقية من الفرع البوباستي للنيل» وكانت تسمى «أفاريس»، تبعًا للتراث الديني المصري، فأعاد بناء هذا المكان، وحصَّنه بأسوارٍ ضخمة، ومات سالاتيس بعد أن حكم تسعة عشر عامًا.

وخلفه ملكٌ آخر يدعى «بنون»، حكم أربعة وأربعين عامًا، تلاه بعدها «أباخنان» الذي حكم ستة وثلاثين عامًا وسبعة شهور، ثم «أبوفيس» الذي

[١] أورسيوس: تاريخ العالم، الترجمة العربية التي تمت في منتصف القرن الرابع الهجري، تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص١٠٣.

حكم واحدًا وستين عامًا، ومن بعده «ياناس» مدى خمسين سنة وشهرًا واحدًا، وأخيرًا جاء «أسيس» الذي حكم تسعة وأربعين عامًا وشهرين.

وهؤلاء الملوك الستة، هم أول من حكم منهم، وكانوا يعملون جاهدين أكثر فأكثر لاستئصال العنصر المصري، وكان جنسهم عادة يسمى الهكسوس، أي الملوك الرعاة؛ لأن هيك في اللغة المقدسة: ملك، وسوس في اللغة الدارجة: راعي.[٢]

هذا؛ وقد نقل «يوليوس الأفريقي» بدوره عن «مانيتو»، أسماءً لستة حكام من الهكسوس، قال: «إنهم حكام الأسرة الخامسة عشرة»، وأضاف أنهم «فينيقيون»، وإن أوردهم بنطقٍ مختلف قليلًا عما أورده «يوسفيوس»، وبالمقارنة يصبحون كالتالي:

الأول: عند يوسفيوس — «سيتلاتيس» Sutchlatis

وقد حكم تسعة عشر عامًا، ويبدو أن تلك الأسماء القديمة كانت غير واضحة تمامًا أو دقيقة لزمن هؤلاء المؤرخين؛ لذلك أسماه يوليوس الأفريقي «سيتيس» وأعطاه ذات المدة الزمنية للحكم، وكما هو واضح فالاسم هو «الستي»، نسبة إلى الإله سيت المصري رب الصحاري Sutch/set، ونظرًا لوجود أسماءٍ هكسوسية أخرى في الآثار المصرية، تكتشف على التتابع، فقد تمت مطابقة واحد من هؤلاء جاء ذكره في قائمة منف، وتمت قراءة اسمه «شارك» أو «شالك» أو «شليك»، بالملك «سيتلاتيس» أو «سيتيس»، ويحتمل أنه هو ذات الاسم الوارد بالآثار المصرية «مي إيب رع شيشتي».[٣]

الثاني: دونه يوسفيوس بالنطق بنون Benon

ويرجِّح المؤرخون أنه ذاته الذي ورد في بردية تورين بلفظ بنيم، ويحتمل أيضًا أنه هو من جاء اسمه على بعض الآثار مكتوبًا «سكا»، وبالنظر إلى الكلمة الهيروغليفية لاسمه، وتتضمن صورة لرجلٍ يدفع محراثًا؛ ولأن الكلمة «سكا» في الساميات وضمتها

[٢] جاردنر: مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م، ص١٧٨.

[٣] Hayes, W. C., Egypt of from the death of Ammene mes II, p. 19–20.

العربية، تعني سلاح المحراث، فربما كان يعني «الحارث»، كما سنرى في داخل هذا البحث أن «سكا» هي «إسحاق»، وهو اسمٌ ساميٌّ معلوم، وقد وردت سكا في الآثار هكذا 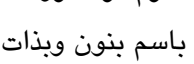 ، وقد ذكره يوليوس الأفريقي أيضًا باسم بنون وبذات مدة الحكم.

الثالث: كتبه يوسفيوس: «أبا خنان» أو أبخناس Ibikhnas، وربما كانت تعني «أبا الغنم» من «خنم» المصري، فنحن نجد إلهًا مصريًّا قديمًا باسم «خروف»، ويُرسَم خروفًا ويُكتَب «خنوم» و«خنوف»، هو الذي كان يشكل البشر من صلصالٍ كالفخار في العقائد المصرية القديمة، ويرجِّح المصرولوجيون، أن يكون هو الوارد في الآثار المصرية باسم «نب خبش رع 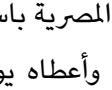 » والمعروف بلقب «أبوفيس الأول »، وأعطاه يوسفيوس مدة حكم تصل إلى ستة وثلاثين عامًا، وأطلق عليه يوليوس الأفريقي اسم «بخنان»، مع مدة حكم مُضاعفة، فقد حكم مدة واحد وستين عامًا.

والمعلوم أن «أبوفيس» هو الاسم المصري للحية الثعبانية الأفعى الضخمة «الأفعوان»، وهو في الأساطير المصرية إله شرير، يقوم الإله رع بقتله وينطق اختصارًا أبيبي، وهو المقابل المصري لذات الأفعى في المأثورات السامية، التي وردت باسم لوياثان، وقد وجدت مدونة في آثار مدينة أوغاريث على الساحل السوري، وقد تكفل بقتلها الإله بعل الكنعاني/الفينيقي، كما وردت في التوراة، وتكفل بقتلها رب التوراة يهوه.

الرابع: عند يوسفيوس يحمل اللقب مباشرة «أبوفيس Ibuphis وهو أبوفيس الثاني/أبيبي» وقد أعطاه يوسفيوس مدة حكم واحد وستين عامًا، ومن المحتمل أن يكون هو عاقنن رع أي «الحمار الشجاع»،[٤] وسنعرف فيما بعدُ أن الهكسوس قد عبدوا الرب الشيطاني سيت، وأنه ضمن تمثلاته التجلي في هيئة الحمار الأحمر اللون، ومن هنا أطلق عليه يوليوس الأفريقي اسم «ساتان/ستان»، وجعل مدة حكمه خمسين عامًا، ومن جانبنا نرى أن «ستان» هو «شيطان» في العربية، كما سنرى داخل هذا العمل.

[٤] سليم حسن: مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٤، ص٨٥، ٦٢، ٨٢.

الخامس: عند يوسفيوس هو: يان-س Jaynas/جون، ويحتمل أنه المذكور في الآثار باسم «خيان» Khayan، وقد حكم عند يوسفيوس خمسين عامًا، وقد تأكد أنه الذي حمل اللقب المصري «سازوسر إن رع»/ابن رع، بعد أن عثر السير آرثر إيفانز سنة ١٩٠١م بقصر كونسوس في كريت، على غطاءٍ مرمري يحمل الاسم «سازوسر إن رع» مع «خيان»، في خرطوشٍ واحد،[٥] كذلك عثر على ذات الأسماء على صدر أبي هول صغير جيء به من بغداد.[٦]

وفي المأثور التاريخي العربي حديث عن ملك حكم مصر باسم «الريان»، وهو ما يلتقي مع الاسم «إيان» أو «يان-س»، وكان الريان في المأثور العربي من ملوك العرب، الذين حكموا مصر باسم العمالقة، وهو أمرٌ سنتعرض له فيما بعدُ بالتفصيل.

وهكذا فإن خيان أو يان بالتأكيد كان هو سازوسر إن رع إلا أن يوليوس الأفريقي أطلق عليه اسم أرخليس، وأعطاه مدة حكم تصل إلى تسعة وأربعين عامًا.

السادس: يكتبه يوسفيوس أسيس، وأعطاه مدة حكم واحدًا وستين عامًا، وربما كان هو المذكور في الآثار باسم «عاوسر رع»، وهو اسم مصري انتقل إلى الساميين في المسميات «عازر» و«عزرا» و«عزير»، ناهيك عن كون اسمه «أسيس» هو «عزيز»، وقد دونت الآثار المصرية اسمه عاوسررع هكذا ، لكنا نعلم من يوليوس الأفريقي أنه قد حمل اللقب أبوفيس، ويصبح بذلك أبوفيس الثالث، وقد أعطاه يوليوس ذات مدة الحكم، ويعتبر آخر حكام الهكسوس الستة، ويحتمل أنه الوارد بلقب خمودي أو حمودي في بردية تورين.[٧]

---

[٥] Efans. A, The Place of Minos at Konassos, 1921, p. 419.

[٦] Save. St, J.E.A, 37, p. 63–217.

[٧] Hayes, Egypt froem …, p. 24.

ويمكن تلخيص ذلك في الجدول التالي:

م	اسم الملك عند يوسفيوس	مدة حكمه	اسم الملك عند يوليوس الأفريقي	مدة حكمه	الاسم كما ورد في الهيروغليفية المصرية	تخريج الاسم [للمؤلف]
١	سالاتيس = «شالاد»	١٩	سايتيس = «سيت»	١٩	مي إيب رع شيشي، ربما هو شليك = أو شارك	الستي
٢	بنون = «بيبون»	٤٤	بنون	٤٤	بنيم سكا	سكا = إسحاق = الحارث
٣	أباخنان = «أبو فيس الأول»	٣٦	بخنان	٦١	نب خبش رع أبو فيس	أبو الغنم
٤	أبو فيس الثاني	٦١	ستان	٥٠	ابيبي أبو فيس عاقنن رع	الشيطان
٥	يان-س	٥٠	أرخليس	٤٩	خيان = سازوسر إن رع	الريان
٦	أسيس = «أبو فيس الثالث»	٦١	أبو فيس	٦١	عاوسر رع = خمودي	عزيز = حمودي

لكن المربك في الأمر هو وجود أسماء أخرى في الآثار للهكسوس، غير تلك التي تمت مطابقتها مع لائحة الملوك الستة لمانيتو، وتلك الأسماء يحمل بعضها لقب «حقا خاسوت»، أي الهكسوس بالنطق المصري، منهم واحد باسم سمقن وآخر باسم «عنات» هر، وأسماء أخرى تحمل لقب «الإله الطيب» وردت على جعارين، وهم حوالي ثمانية ينتهي اسم كل منهم باسم إله الشمس المصري رع، ومجموعة أخرى تحمل لقب «ابن الشمس»، مثل ابن الشمس «يعقوب» هر، وابن الشمس «عامو»، وابن الشمس قار، ولا حل سوى القول إن هؤلاء جميعًا شيوخ قبائل (والتوراة تشير لشيوخ القبائل باعتبارهم ملوكًا)، وأنهم

كانوا من الشيوخ البارزين في الطاقم الهكسوسي المتميز، فحازوا مكانةً تركت بموجبها أثرها فيما وصلنا من آثار؛ وهو الأمر الذي انتهى إليه جاردنر في تفسير هذا اللغز، وأوضحه (محمد بيومي مهران) في قوله عن الأسماء الهكسوسية الواردة في بردية تورين بقوله: «إن الحصر الإحصائي للبردية، يضم ملوكًا كثيرين كانوا موجودين معًا في وقتٍ واحد، ومن المحتمل أنهم كانوا في أنحاءٍ متباعدة من البلاد، وينظر إليهم كمجرد رؤساء لقبائلَ آسيويةٍ مختلفة وعديدة، متجمعين تحت لواء ملك الهكسوس الكبير.»[٨]

المهم أن «يوسفيوس» يتابع روايته عن الهكسوس، نقلًا عن «مانيتو»، فيقول: إن الحال قد استمر كذلك حتى قام الفرعون المصري «تثموزيس» Tethmosis بالتمرد عليهم، وطردهم من بلاده في حربٍ هائلة،[٩] حيث لم يكن حكام الهكسوس قد تمكنوا من القضاء على الحكم المصري الوطني، المتحصن طوال الوقت في طيبة جنوبي مصر؛ أولئك الذين خاضوا حربًا طويلة ضد الهكسوس، وبعد أن استمر الاحتلال خمسمائة عام وإحدى عشرة سنة، تمكن «تثموزيس» من طرد المحتلين، فانسحبوا إلى سوريا (يقصد بسوريا كل بلاد الشام شرقي المتوسط [المؤلف])، حيث أسسوا هناك المدينة المعروفة باسم أورشليم.[١٠]

ولما كان «مانيتو» قد زعم أن البعض اعتبر الهكسوس عربًا، وأن البعض الآخر رآهم فينيقيين، فقد رأى «يوسفيوس» من جانبه أن خروجهم من مصر إلى يهوذا تحديدًا وتأسيسهم أورشليم بالذات، وصفتهم كعرب «بدو ساميين»، وكفينيقيين، شواهد قاطعة على أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم دخلوا مصر ملوكًا ولم يدخلوها عبيدًا أبدًا.

ويستمر «يوسفيوس» ناقلًا عن «مانيتو»: أن الهكسوس تركوا منهم بقايا لم يستطيعوا الفرار، فوقعوا أسرى بيد المصريين، حيث سيموا العذاب الطويل، وفرضت عليهم السخرة انتقامًا منهم، «وبعد أن قضى أولئك الذين أرسلوا للعمل في المحاجر، زمنًا طويلًا في تلك الحياة البائسة، طلبوا من الملك أن يخصص لهم مدينة أفاريس Avaris

---

[٨] محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص١٤٢، ١٤٣.

[٩] لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٤.

[١٠] غطاس الخشبة: رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٤٣.

— وكانت قد خوت على عروشها، بعد أن تركها الرعاة الهكسوس — لتكون لهم مسكنًا ووقاءً، فاستجاب للرغبة وحققها لهم، والواقع أن هذه المدينة كانت مدينة الإله Typho تيفون/ست، وفقًا للديانة القديمة، ولكن لما دخلوها وجدوا المكان صالحًا لإشعال الثورة، فأقاموا على أنفسهم من بين كهنة هليوبوليس (أون/عين شمس) حاكمًا عليهم، وأعطوه العهد أن يطيعوه في كل شيء، وكان أول ما فعله أن سن لهم هذه الشريعة، التي بموجبها حرم عليهم أن يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمسكوا عن عبادة أي حيوان من تلك الحيوانات المقدسة، التي يعظمها المصريون أيما تعظيم، بل أمرهم أن يقتلوها ويدمروها جميعًا، كذلك نهاهم أن ينضموا إلى أحدٍ غير رابطتهم.

وبعد أن وضع أمثال هذه الشرائع — والكثير من غيرها — المعادية في أغلبها لعادات المصريين، أمرهم أن يستخدموا ما يملكون من سواعد كثيرة، لبناء سور حول المدينة، وأن يعدُّوا أنفسهم لقتال الملك أمينوفيس Amenophis (آمنحتب Amenhotep)، أما هو نفسه فقد أنشأ صداقات «مع الكهنة الآخرين، ومن كانوا قد أفسدوهم»، وأرسل السفراء إلى الرعاة/الهكسوس، الذين كان تثموزيس Tethmosis قد طردهم من البلاد إلى أورشليم، وعن طريق السفراء أبلغهم بأحواله وبأحوال أولئك الآخرين، الذين عوملوا بكل تلك الشناعة، وطلب إليهم أن تجتمع كلمتهم، على أن يخفوا لمساعدته في حربه ضد مصر، كذلك وعدهم بأنه سيبادر إلى إعادتهم إلى مدينتهم ودولتهم القديمة أفاريس، وبأنه «سيموِّن جموعهم بالغذاء الوفير»، وبأنه «سيحميهم» ويقاتل من أجلهم، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، «وأن في ميسوره أن يخضع البلاد لسلطانهم».

وقد اغتبط هؤلاء الرعاة بهذه الرسالة أيَّما اغتباط، وخفوا جميعًا على وجه السرعة، وكان عددهم ٢٠٠٠٠٠ رجل، وبلغوا أفاريس في وقتٍ قصير، ولما بلغ أمينوفيس ملك مصر نبأ غزوهم، اضطرب اضطرابًا عظيمًا، وتذكر ما كان قد أخبره به آمنحتب بن بابيس (آمنحتب بن حابو [المؤلف])، وبدأ يجمع حشود المصريين ويتشاور مع قادتهم، وأرسل في طلب «الحيوانات المقدسة» ليأتوا بها إليه، ولا سيما الحيوانات التي كانت معبوداتٍ رئيسية في معابدهم، وأصدر أمرًا خاصًّا وواضحًا للكهنة، أن يخفوا أوثان آلهتهم بعنايةٍ تامة، كذلك «أرسل ولده سيتوس Sethos، وكان يسمى أيضًا رمسيس Ramses من أبيه هورامبيس Rhempes إلى صديقٍ من أصدقائه، وكان الغلام لا يزال في الخامسة من عمره».

وبعد هذا سار مع بقية المصريين، وكانوا ٣٠٠٠٠٠ رجل من أعند المقاتلين، لمواجهة العدو، الذي التقى بهم في المعركة، غير أنه لم يشترك في المعركة مع رجاله، «فقد كان

يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة»، ولذا عاد أدراجه ووصل إلى منف Memphis، حيث أخذ أبيس (العجل المعبود) وغيره من الحيوانات المقدسة، التي كان قد طلب إحضارها له، وسار لفوره إلى إثيوبيا Ethiopia، ومعه كل جيشه وحشود المصريين، فقد كان ملك إثيوبيا تحت ولايته، فاستقبله ورعى كل من كان معه من الحشود، بينما قدمت تلك البلاد كل الغذاء الكافي لرجاله، كذلك خصص مدنًا وقرًى لهذا المنفى، الذي كتب له أن يكون في بدايته، «خلال تلك السنوات الثلاث عشرة التي قضى بها القدر»، كذلك كرس معسكر الجيش الإثيوبي، ليتولى حراسة الملك أمينوفيس عند حدود مصر.

هذه كانت حال الأمور في إثيوبيا، أما «شعب أورشليم» فعندما نزلوا مع «المصريين الفاسدين»، عاملوا الرجال بوحشيةٍ بالغة، جعلت كل من رأى قهرهم للبلاد المذكورة، وما ارتكبوه من فظائعَ بشعة، يستنكر فظائعهم أشد الاستنكار، فهم لم يكتفوا بإحراق المدن والقرى، بل استمرءوا خطيئة تدنيس الأحرام وتحطيم الأوثان، وأشعلوا النيران في التماثيل المقدسة، واستخدموها في شي الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهنة والأنبياء على أن يكونوا الجلادين، الذين يذبحون تلك الحيوانات، كذلك قيل إن الكاهن الذي وضع سياستهم وشرائعهم، كان بالمولد من هليوبوليس، وكان اسمه «أوزرسيف Osarsiph» (المأخوذ من اسم إله هليوبوليس أوزيريس Osiris).

وبعد هذا عاد أمينوفيس من إثيوبيا بجيشٍ عظيم، وكذلك ابنه هورامبيس بجيشٍ آخر، واشتركا معًا في قتال الرعاة والناس الفاسدين، وهزموهم وفتكوا بعددٍ عظيم منهم، وطاردوهم حتى سوريا.»[١١]

وهنا وجد «يوسفيوس» الدليل الأقوى في مجموعة أحداث، تتشابه في بعضها مع قصة التوراة عن الخروج، أما الأقوى والحاسم في الأمر، فهو «أوزرسيف» الذي رأى فيه «يوسفيوس» شخص موسى نفسه، ومن ثم انتشرت تلك القصة عن «يوسفيوس» في العالمين الإغريقي والروماني، وظلت زمنًا طويلًا يمتد قرونًا، التفسير شبه التاريخي، شبه الموثق، لقصة الخروج، المؤسسة على المزج بين الهكسوس وبين بني إسرائيل ومن ثم «كان ذلك كافيًا لتفسير عدم ذكر المصريين في نصوصهم لبني إسرائيل، ودخولهم أو خروجهم من مصر؛ لأن مصر قد عرفتهم بالفعل، وعرفت أنهم دخلوها وأنهم خرجوا منها، ولكن باسم الهكسوس».

[١١] لويس عوض: مقدمة ... سبق ذكره، ص١٤، ١٥.

وهنا يضيف «يوسفيوس» إلى تلك الرواية خبرًا غريبًا يجب أخذه بحذر، وذلك في كتابه «العاديات اليهودية»، نوجزه في قوله: عندما كان موسى في مصر حدثت حرب بين مصر وإثيوبيا، واشترك موسى في المعركة كضابط بالجيش المصري، ووصل الإثيوبيون حتى تخوم منف، لكن موسى ببراعته حاربهم مع رجاله، ودحرهم حتى عادوا ديارهم، وحاصر مدينتهم، وهناك من على الأسوار، رأته بنت ملك إثيوبيا، فدخل حبه إلى قلبها، فأرسلت تخطبه لنفسها، وهنا ساومها موسى على الحب مقابل استسلام مدينتها.

ثم يؤكد يوسفيوس رغبة الآلهة المصرية في التحالف بين المصريين والإسرائيليين بقوله: «فلما وصل الغزاة الإثيوبيون إلى أبواب منف، لجأ المصريون لاستشارة الآلهة، طلبًا للنبوءة واستلهام الوحي، وإذا النصيحة تأتي من الإله أن اتخذوا من اليهودي حليفًا.»[١٢] وهي الرواية التي قصد منها الالتقاء بما ورد في التوراة، حول زواج موسى من امرأةٍ كوشية/زنجية سوداء، وجاءت الإشارة إليها في حكاية التوراة السريعة المختصرة المبتسرة «وتكلمت مريم وهارون على موسى، بسبب المرأة الكوشية، التي اتخذها؛ لأنه كان قد اتخذ امرأة «كوشية»، فقالا: هل كلم الرب موسى وحده، ألم يكلمنا نحن أيضًا» (عدد، ١٢: ١-٢).

لقد حاول يوسفيوس أن يجد تعليلًا، لزواج موسى من سوداءٍ زنجية كوشية في سيناء، فقال بحربٍ بين مصر وإثيوبيا، حيث الكوش الزنوج، والتي تقع جنوبي مصر، انتهت بزواجه من بنت ملك كوش، وهو ما يتناقض تناقضًا صارخًا مع بقية روايته، التي تتحدث عن صداقة أمينوفيس/آمنحتب لملك إثيوبيا ولجوئه إلى بلاده، إبان حربه مع الغزوة الهكسوسية الثانية، التي تحالفت مع الثائر الكاهن أوزرسيف.

والواضح أن المحرر قد استخدم كلمة إثيوبيا مرتَين، للدلالة على العنصر الأسود وليس على المكان؛ لأننا سنرى في هذا البحث أن إثيوبيا التي لجأ إليها الفرعون جنوبي مصر أمر، وإثيوبيا التي كانت في حالة عداء مع الفرعون آنذاك أمر آخر وموضع آخر، موضع ضم عددًا من الأجناس من بينها الزنج (الكوشيون)، ناهيك عن كوننا نعلم أن موسى تزوج صفورة بنت يثرون، أو رعوئيل كاهن مديان بسيناء، «ولا شك لدينا أنها هي ذاتها التي وصفت بكونها زنجيةً كوشية، وهو ما سيتأكد مع السير في بحثنا هذا قدمًا».

[١٢] عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود القديم في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٣٠، ٣١.

وهكذا يمكن تفصيل المكونات الرئيسية لنظرية مانيتون، حسب رواية يوسفيوس في عناصرٍ هامة أبرزها:

- أن فرعون مصر زمن غزو الهكسوس لمصر كان باسم «توثيما يوس»، وهو ما يغطي لنا صمت الوثائق المصرية عن الحديث، بشأن اسم الفرعون المصري زمن غزو الهكسوس، ولو مؤقتًا.
- أن الهكسوس كانوا هم ذات عين الإسرائيليين، وأنهم ربما كانوا عربًا أو فينيقيين.
- أنهم أقاموا عاصمةً عسكرية في مدينة باسم أفاريس/أواريس/حواريس/حويرة على مختلف الألسن القديمة/هوارة بالعربية/حاوعرة بالمصرية القديمة.
- أنهم عبدوا هناك الإله المصري رب الصحاري وسيد الشر «سيت» بالنطق المصري، أو «سوتخ» أو «سوتتش» بالنطق الهكسوسي، وهو من أطلق عليه اليونان اسم «تيفون» رب الأوبئة والدمار.
- أن فرعون باسم «تثموزيس» كما نقل يوسفيوس، أو «آموس» كما كتبه يوليوس الأفريقي، قد حاربهم وطردهم من مصر، فانسحبوا منها إلى فلسطين، وأقاموا في إقليم يهوذا الجنوبي، وأسسوا هناك مدينة أورشليم.
- بقي من الهكسوس في مصر أسرى بعددٍ غفير، واستخدمهم المصريون في الأعمال الشاقة، وفي زمن آمنوفيس/آمنحتب (دون تحديد أي أمنحتب هو بين المناحتة)، التمسوا فيه بعض الرحمة، فطلبوا منه أن يمنحهم لسكناهم مدينة الهكسوس القديمة أفاريس، فمنحهم المدينة ليسكنوها، وهناك لحق بهم كاهنٌ مصري من كهنة عين شمس يدعى أوزرسيف، الذي ربما كان هو موسى ذاته، وقد استولى على قيادة أمرهم، ووضع لهم شرائعَ جديدة، تخالف كل شرائع المصريين.
- أن هناك «غزوةً هكسوسية ثانية»، حدثت زمن نفس الملك المصري آمنحتب/آمنوفيس، جاءت من خارج الحدود الشرقية، متحالفة مع ثورة أسرى أفاريس وزعيمها أوزرسيف في الداخل، «وعادةً لا يأخذ المؤرخون المحدثون قصة الغزوة الهكسوسية الثانية، التي أشار إليها يوسفيوس نقلًا عن مانيتون مأخذ الجد أو حتى الاعتبار».
- أن فرعون مصر آنذاك آمنوفيس/آمنحتب، كان له ولد، والغريب أن الرواية هنا شديدة الالتباس والغموض، فهذا الولد مرة اسمه «سيتوس»، ومرة أخرى «رمسيس»، ومرة ثالثة «هورامبيس».

- «أن هذا الصبي الملكي قد استبعد من مصر وهو طفلٌ صغير»، حرصًا على حياته عند أصدقاء أوفياء للملك، وكان عمره حينذاك لم يتجاوز بعدُ «الخمس سنوات».
- أنه كان في حواريس مع بقايا الهكسوس الأسرى «عنصرٌ مصريٌّ منفي بدوره» لأسبابٍ غير معلومة، ووجود هؤلاء في مدينة العبيد الأسرى مع زعيمهم أوزرسيف لم يزل لغزًا محيِّرًا غير محلول.
- أن الرعاة قد هزموا للمرة الثانية، وتم طرد الحملة الهكسوسية الثانية إلى فلسطين أمام دفاعات الجيوش المصرية التي قادها آمنحتب/آمنوفيس، وولده ذو الأسماء الثلاثة، بعد أن يفع ونضج وأصبح قائدًا عسكريًّا مظفرًا، والمفترض أنه آنئذٍ كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، حيث استُبعد وله من العمر خمس سنوات، وعاد بعد ثلاثة عشر عامًا حسب رواية يوسيفيوس ليحارب مع أبيه ضد الغزاة.

زمن الغزو الهكسوسي لمصر

من المعلوم أن الوثائق المكتشفة في تاريخ مصر القديمة، لم تمدنا حتى الآن بتحديدٍ دقيق لزمن غزو الهكسوس مصر، ولا من هم الهكسوس ولا جنسهم، ويقول لنا «محمد بيومي مهران»: «ولقد اختلف المؤرخون القدامى منهم والمحدثون، في تقدير مدة حكم الهكسوس في مصر، فهناك من وصل بها إلى أكثر من تسعة قرون، بينما نزل بها آخرون إلى قرنٍ واحد.»[١٣]

وكل ما نعلمه عن محاولات المصرولوجيين تزمين وقت غزو الهكسوس لمصر، أنها قد اتفقت على مجيء الهكسوس بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أُسر الدولة الوسطى حوالي عام ١٧٨٨ق.م. وأن الاحتلال قد استغرق خمس أسر حاكمة هي: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، حتى مجيء فراعنة التحرير من الأسرة السابعة عشر وأشهرهم «أحمس» آخر ملوك الأسرة ١٧، ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة، حوالي عام ١٥٧٥–١٥٥٠ق.م. والتي تعد الأسرة الأولى في سلسلة أسر الدولة الحديثة (الإمبراطورية).

[١٣] بيومي مهران: دراسات ... سبق ذكره، ص١٣٧.

ولما كان سقوط الأسرة الثانية عشرة، قد حدث حوالي ١٧٨٨ق.م. فقد اعتبر ذلك هو التاريخ المرجَّح للغزو الهكسوسي لمصر، وبذلك يكون مجموع سنوات حكم الهكسوس لمصر، إضافة للأسر المصرية الحاكمة التي لم تقع تحت النير الهكسوسي، أو التي ظلت تحكم تحت سيطرتهم، لا تتجاوز ٢٣٨ سنة، وإن كان التقدير الدقيق في ترجيح المصرولوجي «جاردنر»، لا يتجاوز «٢١٥ سنة».[١٤]

وتشمل هذه المدة خمس أسرٍ كاملة، وهو التقدير الذي يخالف بشدة الزمن الذي رصده «مانيتو» لذات المدة، وقدره بحوالي ١٧٧٠ سنةً، منها ٥١١ سنةً للحكم الهكسوسي، و١٢٥٩ سنةً لأُسرٍ مصرية، تقع جميعًا بين نهاية الأسرة الثانية عشرة، وبداية الأسرة الثامنة عشرة.

والمشكل في الأمر هنا، أن المؤرخين — أنفسهم — الذين رصدوا زمنًا قدره ٢٣٨ سنة لمجموع الأسر الخمس، يعترفون بعسر قبول ذلك، حيث الزمن قصير جدًّا بالنسبة لعدد الأسر، التي تراكمت إبَّانها في الحكم، ولما لم يجدوا حلًّا لهذه المشكلة، نظرًا لاعتمادهم في ذلك التقدير على معطياتٍ آثارية، ومتشابكات ومتزامنات لا تسمح بغير ٢٣٨ سنة للأسر الخمس، فقد لجئوا لحل المعضل، بما ذهبتْ إليه — كمثالٍ موجز — موسوعة تاريخ العالم، مستندة إلى «مانيتو» مرةً أخرى، بالقول إن مصر انقسمت أقاليم في ذلك الزمان، «وتعاصرت الأسر المختلفة في الحكم على تلك الأقاليم»، فحكمت الأسرة المصرية الثالثة عشرة في طيبة متحصنة هناك، بعيدًا عن يد البطش الهكسوسي، وفي ذات الوقت تعاصرت معها أسرةٌ مصرية، حكمت في سخا بوسط الدلتا، كانت خاضعة تمامًا للهكسوس، هي الأسرة الرابعة عشرة، أما الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة، فكانت أسرًا هكسوسيةً خالصة، حكمت خلال ذات الزمن والمدة المرصودة، ثم قامت الأسرة السابعة عشرة في طيبة، بعد سقوط أسرتها الملكية عند الغزو، وهي الثالثة عشرة، وهي الأسرة التي قاد ملوكها الأماجد، حملات التحرير ضد الهكسوس. وبطرد الهكسوس على يد أحمس أحد رجال تلك الأسرة العسكريين، تأسست معه وبداية به، الأسرة الثامنة عشرة، أولى أسرات الدولة المصرية الحديثة، دولة الإمبراطورية.

أما «جاردنر» فوضع حلًّا لمشكلة الحجم الزمني الضئيل، لمجموع الأسر التي أخبرنا التاريخ بها، فافترض بداية أن هناك امتدادًا للدولة الوسطى، خلال أسرتَين مصريتَين

[١٤] جاردنر: مصر الفراعنة، سبق ذكره، ص١٨١.

حكمتا لمدة ١٠٧ سنوات، هما الأسرة الثالثة عشرة الضعيفة، والأسرة الرابعة عشرة التي استغرقها حكم الفرعون القوي «نفر حوتب» 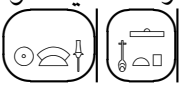 ، الذي حاول ترميم ضعف الأسرة السابقة، وبنهاية «نفر حوتب» جاءت غزوة الهكسوس، التي شكلت الأسرة الخامسة عشرة، التي دام حكمها في رأي «جاردنر» ما لا يزيد عن ١٠٨ سنوات، وحكم خلالها الملوك الستة الذين أشار إليهم «مانيتو»، لكن «جاردنر» اعتبر «مانيتو» مضلِّلًا في قوله إنهم أول الملوك الهكسوس الأقوياء؛ حيث اعتبرهم «جاردنر» هم كل من حكم مصر من ملوك الهكسوس، وقد استند «جاردنر» في ذلك، إلى ما جاء في بردية تورين، التي ذكرت ستة ملوك هكسوس حكموا مصر لمدة ١٠٨ سنوات.

ثم قام «جاردنر» بإلغاء أسرتين هما السادسة عشرة والسابعة عشرة دفعةً واحدة، واعبر وجودهما خطأً من «مانيتو»،[١٥] ومن ثم أعاد ترتيب الأوضاع كالآتي:

الأسرة ١٣، ١٤	أسر مصرية صميمة
الأسرة ١٥	أسرة هكسوسية
الأسرة ١٦، ١٧	غير موجودة أصلًا

وعليه لن يكون هناك سوى ثلاث أسر فقط وليس خمس، تقع في الفترة ما بين سقوط الدولة الوسطى وبين قيام الدولة الحديثة، وقد عمد «جاردنر» وهو بسبيل إثبات خطأ «مانيتو» إلى مقارنةٍ تاريخية، بتأريخ عالمٍ رصين هو «إدوارد ماير»، الذي انتهى بعد دراسته للتأريخ بحسب النجم سايروس/الشعرى اليمانية، حيث جرى تزمين المصريين لتأريخهم بحسابات ظهوره واختفائه، وقال «ماير» أن أبعد نقطة يمكن الوصول إليها في تزمين بداية أول أسرة مصرية حاكمة، لا تبعد عن عام ٣٢٠٠ق.م.

ومن المعلوم أن هناك ثلاثة جداولَ أخرى للملوك، تم اكتشافها وترجمتها، تحصر لنا ملوك مصر عبر الأسرات الحاكمة، وهي: جدول أبيدوس المنقوش على جدران المعبد الكبير بالعرابة المدفونة (أبيدوس)، وجدول سقارة الذي عثر عليه «وبدي جونيري» عام ١٨٦١م، في مقبرة رئيس عمال منف، وجدول الكرنك المنقوش بمعبد طيبة، وقد اشتركت

[١٥] الموضوع نفسه.

الجداول الثلاثة في الاتفاق على عدم تسجيل عدد من الملوك، اعتبرهم المصريون غير شرعيين، وهو ما جرى على ملوك الهكسوس من الأسرة الخامسة عشرة حتى السابعة عشرة، «كما لوحظ استبعاد الجداول الثلاثة لملوك أسرة العمارنة بدورها، والتي تمثل «آمنحتب الرابع» المعروف باسم «إخناتون»، وخلفائه المباشرين من أعضاء أسرته».[١٦]

وقد علل المصرولوجيون ذلك بمروق إخناتون الديني، بحيث اعتبرت فترة حكمه لا تقل سوءًا وكراهية عن فترة حكم الهكسوس، لكن السؤال هنا الذي يقف بلا إجابة: إذا كان ذلك جائزًا بحق «إخناتون» نفسه، فكيف يجوز بحق أخلافه الذين عادوا إلى عبادة آمون، وانتقلوا من «أخت آتون» بالعمارنة إلى «طيبة» مرةً أخرى، وهم الفراعنة سمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي؟ إن المسألة بحاجةٍ إلى تفسير أكثر إقناعًا من ذلك، المهم أن سقوط أسرة العمارنة من تلك الجداول، أدى بالمؤرخين قبل اكتشاف تل العمارنة ومعرفة تلك الأسرة، إلى الوقوع في أخطاءٍ شديدة، «حيث كانت هناك فجوةٌ تاريخيةٌ هامة بل وخطيرة غير معلومة لديهم بالمرة».

وعملًا بقاعدة إهمال المصريين تدوين ملوك بعينهم، مع سني حكمهم، نجد جدولي الكرنك وأبيدوس — كمثال — لا يوردان إطلاقًا أي ذكر لحكام الأسرة ١٣، ١٤، ١٥، رغم أن جدول الكرنك ذكر ملوكًا من الأسرة الحادية عشرة لا يستحقون ذكرًا، وسجل أسلاف الملك «أحمس» في الأسرة ١٧، وهم غير مهمين بالمرة، كذلك سجل جدول أبيدوس ملوكًا لا قيمة لهم إطلاقًا من حكام الأسرة الثامنة عشرة، وإذا أخذنا بقاعدة الإهمال في التدوين؛ لأن الملوك في تلك الحال غير شرعيين أو أجانب، «فينبغي في تلك الحال اعتبار حكام الأسر ١٣، ١٤، ١٥ حكامًا غير شرعيين، ويجب أن نستنتج أنهم لا بد كانوا هكسوسًا».

وهكذا كانت الخدعة المبيتة في التاريخ المصري، والتي تأكدت لنا في محاولة الفهم: لماذا اعتبر «مانيتو» أن «هورامبيس» الذي يجب — بمطابقة الأسماء — أن يكون هو الفرعون «حور محب» آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وأول ملوك الأسرة التاسعة عشرة؟ وجاء بعد انتهاء حكم أسرة العمارنة، يجب أن يكون «هورامبيس» هذا ابنًا مباشرًا للفرعون «آمنحتب»؟ والإجابة هي أن الفرعون السابق مباشرة لحور محب، بعد حذف ملوك العمارنة الأربعة الذين لم تدونهم جداول الملوك المصرية هو «آمنحتب الثالث»، ومن

[١٦] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٦٨.

ثم احتسب «مانيتو» أن «هورامبيس» أو «حور محب» ابنًا لـ «آمنحتب الثالث»، بينما تقف بين آمنحتب الثالث وبين حور محب، أسرة حاكمة كاملة هي أسرة تل العمارنة.

المهم أن ذلك كله يشير إلى قدرٍ كبير من الصدق التاريخي في تاريخ «مانيتو»، لكنه لا يعني من جانبٍ آخر التسليم بكل تاريخه؛ لوقوعه في خلطٍ كبير أحيانًا، لبُعد الشقة الزمنية بينه وبين زمن الأحداث التي أرَّخ لها، لكن حتى ذلك الخلط كان يحمل خيوطًا من حقائق وأحداث، لكنها الْتبست عليه فتبدل فيها الأبطال كما تبدَّلت المواضع، وهو ما سنلمسه مع السير في خطوات بحثنا هذا.

وعليه فقد وضع «مانيتو» لحكم الهكسوس زمنًا يصل إلى ٥١١ سنة، وهو رقمٌ مبالغ فيه بعض الشيء، هذا بينما وضع مصرولوجي مثل «جاردنر» زمنًا يقع ما بين ٢١٥ سنة و١٠٨ سنوات، اعتمادًا على بردية تورين، وهو بالمقابل زمنٌ هزيل تمامًا بالنسبة لعدد الأسر ولضخامة الحدث، وما احتواه من أمورٍ جسام، «وعليه فلا مناص من محاولة تحديد مدةٍ زمنية، تتأرجح بين المدتَين المرصودتَين»، وهو الأمر الذي لا يفصل بشأنه، إلا تحديد زمن الفرعون الذي حدث الغزو إبان اعتلائه العرش، والذي ذكره «مانيتو» باسم «توثيمايوس»، أو بحذف التصريف الاسمي اليوناني «توتيماوي»، وهو ما لم يجد المصرولوجيون بشأنه أي أثر حتى الآن، ثم تحديد زمن فرعون التحرير الذي ذكره «يوسفيوس»، نقلًا عن مانيتو بالقراءة «تثموزيس»، بينما قرأه «يوليوس الأفريقي» بالرسم «آموس»، وقرأه يوسابيوس نقلًا أيضًا عن «مانيتو» باسم «آموزس»، واتفقت آراؤهم جميعًا، أنه حكم في طيبة خمسة وعشرين عامًا.

ومن الجدير بالذكر الإشارة لاتجاهٍ هام، يرى الهكسوس قد كونوا إمبراطورية كبرى، مستندين إلى العثور على اسم الملك الهكسوسي «خيان»، والمحتمل أنه ابا خنان/أبا الغنم «حنا» الهكسوسي الثالث، منقوشًا على عددٍ من الجعول، وعلى غطاءٍ مرمري عثر عليه «إيفانز» في كونسوس بكريت. و«خيان» هو الاسم الذي يلتقي مع «يان» أو «ياناس» في جدول «مانيتو»، ووجدت له آثار في سوريا وفلسطين وبغداد، وبين الآثار كان تمثال لأبي هول صغير، عثر عليه في بغداد عليه النقش: «خيان الإله الطيب سوسرن رع»،[١٧] والمهم أن هذه الآثار الهكسوسية المتناثرة في مساحةٍ واسعة، ما بين الأناضول شمالًا ومصر جنوبًا، والعراق شرًا وكريت غربًا، أدت إلى استنتاج «أن الهكسوس قد أقاموا

[١٧] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص٩١، ٩٢.

إمبراطورية كبرى، تشمل كل تلك المنطقة»، وهو الرأي الذي لا يلقى قبولًا واسعًا بين المهتمين، وهناك أعلامٌ مثل «جاردنر» يرفضون قبول تلك النظرية تمامًا.[١٨]

وتأتينا أول النصوص المصرية حول حرب التحرير، في نص «قصة الملك أبو فيس وسقننرع»، والتي تحكي لنا بداية المقاومة الوطنية، في عهد ملك من ملوك الأسرة السابعة عشرة، المتحصنة في طيبة جنوبي البلاد، ويدعى سقنن رع تاعا ، وكان معاصرًا لملكٍ هكسوسي يدعى «أبو فيس»، وكان الملك الهكسوسي يحكم من مقر عاصمته العسكرية «أفاريس» أو «أواريس» أو «حواريس» شمال البلاد.

وبمطابقته مع اللوحة السداسية لملوك الهكسوس يكون ترتيبه السادس بينهم، ويكون هو أبو فيس الثالث حيث سبقه إلى حمل لقب أبو فيس اثنان من الملوك الهكسوس.

وتلك القصة التي تروي ذلك الصراع من أجل طرد الغزاة، دونت بعد عصرها بزمان، في عهد الملك «مرنبتاح بن رمسيس الثاني» في الأسرة التاسعة عشرة، ويبدو عليها أنها كانت تمرينًا مدرسيًّا، وصلنا به أخطاء عديدة نتيجة جهل التلميذ، الذي نقلها عن أصلٍ لا نعرفه الآن، وبها تكرار لبعض الجمل وبعض الأحداث، وغموض في نواحٍ كثيرة، نشأ عن تهشُّم بعض أجزائها، وتقول الفقرة الأولى منها:

> حدث أن أرض مصر كانت في جائحةٍ شنعاء، ولم يكن للبلاد حاكم يعد ملكًا في هذا الوقت، وقد حدث أن الفرعون سقنن رع كان حاكمًا على المدينة الجنوبية، لكن «الجائحة الشنعاء كانت في بلد العامو»، وكان الأمير أبو فيس في أواريس، وكانت كل البلاد خاضعة له، وكذلك كل حاصلاتها بأكملها، كذلك كل طيبات تميرًا (مصر)، وقد اتخذ الملك أبو فيس الإله ستخ ربا له، ولم يعبد أي إلهٍ آخر في البلاد سوى ستخ، وقد بنى معبدًا ليكون حصنًا خالدًا بجانب قصر أبو فيس، وقد كان يستيقظ كل يوم ليقرب الذبائح اليومية للإله ستخ، وكان موظفو جلالته (أي الفرعون سقنن رع) يحملون الأكاليل من الزهر، كما كان

[١٨] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٨٠، ١٨١.

يفعل تمامًا في معبد رع حر أختي[١٩] (علينا هنا ملاحظة أن قرابين سوتخ كانت ذبائح وأن قرابين الرب المصري كانت أكاليل من الزهور).

ويتوالى سرد القصة، فتروي أن حاكم الهكسوس، أراد التحرش بملك المملكة الجنوبية «طيبة/الأقصر»، فأرسل له زاعمًا أن أفراس النهر الموجودة في بحيرات طيبة، تصدر في الليل ضجيجًا يمنعه من النوم ويقلق راحته، وللأسف فإن ما تلا ذلك من أحداثٍ، ينقطع عنا بسبب التشوُّه الذي لحق بالوثيقة، وكل ما أمكن استنتاجه أن حربًا قد بدأت بين الطرفين، وأن الملك المصري الوطني سقننرع قد وقع صريعًا، وهو ما تم استنتاجه من فحص مومياء الملك، التي تقلَّصت تقلصًا شديدا، وهو ما يشير إلى آلامٍ فظيعة عانى منها سقننرع، هو في سكرات موته، وظهر بالمومياء جروح غائرة في الرأس والعنق، من المرجح أنها ضربات بلط، ولم يكن الملك قد تجاوز عامه الثلاثين بعدُ، حسب تقديرات الأطباء الذين فحصوا المومياء.[٢٠]

ويستنتج «محمد بيومي مهران» من ذلك نتيجة يلخصها في قوله: «إن سقنن رع قد قتل في ساحة الوغي، وإن المصريين تمكنوا من حمل الجثمان وتحنيطه، وذلك دليل على سيطرة الجيش المصري على أرض المعركة.»[٢١] وفي عام ١٩٥٤م اكتشف الأركيولوجست المصري «محمد حماد» بالأقصر، لوحةً كبيرة تروى بإفاضة الجهود الحربية التي قادها «كامس» 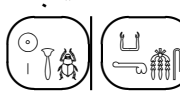 ، خليفة سقننرع ضد ملك الهكسوس أبو فيس أو «أبوبي»، الذي حمل هذه المرة لقبه المصري «عا أو سر رع خمودي»، وهو الكشف الذي دعم شبيهًا له، سبق أن كشفت عنه حفائر «اللورد كارنارفون» بحوالي خمسين عامًا، وكان لوحةً هيراطيقية تروي مراحل الصراع الأولى، وكانت بدورها نسخة نقلها كاتبها عن نصٍ تاريخيٍّ أصيل أقيم بالمعبد، وهو التعدد الذي يشير لأصالة الرواية التي تروى:

السنة الثالثة، حور الظاهر على عرشه، وصاحب الإلهتين، حور الذهبي، الذي يجعل الأرضَين مسرورتَين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، واز خبر رع ابن الشمس، كامس، معطى الحياة مثل رع أبد الأبدين، محبوب آمون رع

[١٩] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص١١٦.

[٢٠] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٨٥.

[٢١] بيومي مهران: دراسات، سبق ذكره، ص١٠٢.

سيد الكرنك، الملك القوي في ربوع طيبة، كامس معطى الحياة مخلدًا، كان ملكًا محسنًا، وقد جعله رع ملكًا حقيقيًّا، وسلمه القوة بالحق المبين، وقد تكلم جلالته إلى مجلس كبار الدولة، الذين كانوا في حاشيته قائلًا: إلى أي مدًى أدرك كنه قوتي هذه؟ عندما أرى «حاكمًا جالسًا في أواريس وآخر بلاد كوش»، وأنا أجلس مشتركًا مع رجل من العامو وزنجي، وكل رجل منهما مسئول عن جزئه من مصر هذه، «وذلك الذي يقاسمني الأرض لن أجعله يمر في ماء مصر حتى منف»، تأمل إنه يسيطر على الأشمونيين، ولا يرتاح رجل لصيرورته عبدًا «للستيو»، إني سأصارعه وأبقر بطنه، وإن رغبتي هي تحرير مصر والقضاء على الآسيويين ... وعندئذٍ قال عظماء مجلسه: تأمل، لقد تقدم الآسيويون حتى وصلوا القوصية، وقد أخرجوا ألسنتهم لنا حتى آخرها، إننا في طمأنينة نملك نصيبنا من مصر وألفنتين، والقوم يحرثون لنا أحسن أرضهم، وماشيتنا ترعى في مستنقعات الدلتا البردي، والشعير يدرس لخنازيرنا، ومواشينا لم تغتصب، بسبب ذلك، «وهو ... ويستولي على أرض العامو، ونحن نمتلك مصر»، ولكن كل من يأتي إلى أرضٍ ليناهضنا سنناهضه ...

وكانوا قد أغضبوا قلب جلالته (بقولهم هذا): أما عن مجلسكم هذا، فإن هؤلاء العامو الذين ... تأملوا إني «سأحارب العامو»، وإن النصر سيأتي، وإذا ... بالبكاء، فإن الأرض قاطبةً سترحب بي، بوصفي الحاكم القوي داخل طيبة، كامس حامي مصر.

ولقد أقلعتُ منحدرًا في النيل بوصفي محاربًا، لأهزم العامو بأمر آمون صادق النصيحة، وقد كان جيشي شجاعًا يسير أمامي، كأنه عاصفةٌ من نار، وكان جنود المازوي في مقدمة معاقلنا، ليتجسسوا على مواقع «الستيو»، وليدمروا مواقعهم شرقًا وغربًا، ومعهم طعامهم وأدمهم، وقد كان جيشي المكتظ بالمؤن في كل مكان.

وقد أرسلت جيشًا من المازوي، في حين أني قد أمضيت يومي ... لأحبس ... تيتي بن بيوبي داخل نفروسي، وكنت لا أريد السماح له بالهرب، ثم جعلت «العامو الذين اعتدوا على مصر» يولون الأدبار، وقد كان مثله كمثل رجل ... قوة العامو، وأمضيت الليل في سفينتي وقلبي فرح، وعندما أضاء النهار، انقضضتُ

عليه كالصقر، وعندما جاء وقت تعطير الفم، كنت قد هزمته وخربت أسواره، ذبحت قومه وجعلت زوجته تنزل إلى شاطئ النهر، وكان رجال جيشي كالأسود، عندما ينقضُّون على الفريسة، ومعهم العبيد والقطعان والأدم والشهد، فقسموا غنائمهم وقلوبهم فرحة، وكان إقليم نفروسي على وشك السقوط، ولم يكن بالأمر العظيم أن تحبس زوجة ... وكان برشاق غير موجود عندما وصلت، وهربت خيولهم من الداخل والحامية.[٢٢]

وهنا يتهشم النص الهيراطيقي، فنكمله بما جاء في لوحة الأقصر التي تقول على لسان «كامس»، وهو ينادي عدوه «أبوب/أبوفيس»، الذي لا شك كان في عاصمة الهكسوس «حواريس»:

إن قلبك معطلٌ أيها الآسيوي الوضيع، الذي اعتاد أن يقول: أنا سيد، وليس لي هناك ند من خمون وبي حتحور حتى أفاريس.[٢٣]

ويبدو أن كامس لم يتمكن من تحرير أفاريس/حواريس، فتتحدث خاتمة اللوح عن عودة كامس، منتصرًا إلى عاصمته، حيث جن الناس به فرحًا، ومع ذلك لم يكن هو القاهر النهائي للهكسوس، حيث ادخر هذا العمل المجيد لخليفته وشقيقه أحمس الذي يلتقي باسمه مع آموس «عند يوليوس الأفريقي»، ومع «آموزس عند يوسابيوس»، ومع بعض التحريف عند «يوسفيوس: تثموزيس»، وهو الفرعون الذي مجَّدته الأجيال اللاحقة، باعتباره محرر مصر من الهكسوس، ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة الماجدة.

وقد علمنا بأمر أحمس وانتصاراته من مقبرة في الكاب في أقصى جنوبي مصر، تخصُّ واحدًا من ضباط جيشه، يحمل ذات اسم الفرعون، هو الضابط «أحمس بن أبانا»، الذي حكى في نقوش مقبرته، كيف أبحر مع سيده الملك أحمس شمالًا، لمهاجمة الآسيويين

---

[٢٢] نشره جاردنر، وجن، في جرنال الأركيولوجيا المصرية، متكرر النشر. J.E.A, III, p. 95.
انظر كذلك لاني A.S. Voll XXXV, p. II.

[٢٣] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٩٠.

(العامو/الستيو)، ليتابعوا حصار قلعة الهكسوس في حواريس، وكيف انسحب العامو عبر سيناء، حتى شاروهين جنوبي غربي فلسطين، وهناك استمر أحمس يحاصرهم لمدة ثلاث سنوات على التوالي، إلى أن استسلموا مرةً أخرى، وتم إجلاؤهم عن المنطقة نهائيًّا،[٢٤] وإن كان خبر إجلائهم عن جنوبي فلسطين من وجهة نظرنا محل شكٍّ كبير، ويبدو أنهم ظلوا هناك، وفي مناطقَ متفرقة بشبه جزيرة سيناء، يتمتعون ببعض قوَّتهم، التي كانت تحتاج من الفراعين إلى تجريد الحملات بين حقبةٍ وأخرى لتأديبهم. ومما يدل أيضًا على وجودهم القوي، ما جاء في تاريخ تحتمس الثالث، بعد قرنٍ من تلك الأحداث، حيث وجد «زيته» في مقدمة تاريخ تحتمس الثالث، إشارة لوجود هكسوس في قلعة شاروهين نفسها، وقد ترجم زيته تلك الفقرة كالآتي:

> السنة الثانية والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء، اليوم الخامس والعشرون، مر جلالته بقلعة ثارو في أول قلعةٍ مظفرة، ليطرد الذين هاجموا حدود مصر بشجاعةٍ ونصر وقوة وفوز.
>
> وقد مرت مدةٌ طويلة من السنين كان فيها الآسيويون يحكمون البلاد اغتصابًا، والكل يخدمون أمام ... وقد اتفق في أزمانٍ أخرى أن الحامية، التي كانت هناك كانت في مدينة شاروهين، «وهم الآن من يرز إلى نهاية الأرض، في استعداد للثورة على جلالته».[٢٥]

الواضح خلال التاريخ أن سيناء ظلت مرتعًا، للبدو الخارجين على السلطان المصري المركزي طوال الوقت، وأنهم كانوا من القوة بحيث جعلوا من سيناء شبه مملكة لهم، أو مجموعة ممالك، وأن السيادة الحكومية المصرية عليها، كانت دومًا في مدٍّ وجزر، وكثيرًا ما دون التاريخ اعتداءهم على حدود الدلتا الشرقية، كما يشهد بذلك النص السالف، وكان الفراعين دومًا بحاجةٍ إلى تقوية حدود مصر الشرقية، لهذه الأسباب تحديدًا، حتى أقاموا أثرًا مشهورًا في تاريخ مصر القديمة، هو المتفق على تسميته بـ «سور الأمير الذي يصد الآسيويين»، على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء.[٢٦]

---

[٢٤] نفسه، ص١٩١.

[٢٥] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص١٤٨، ١٤٩.

[٢٦] برستد: فجر الضمير، مكتبة الأسرة، ص٢١٨، ٢١٧.

وأحيانًا كان تمردهم يصل إلى درجة الهجوم، على المدن المصرية العامرة شرقي الدلتا، كما حدث في عهد الملك ستي الأول من حكمه ١٣٠٢ق.م. عندما هاجموا مدينة بي توم أو فيثوم؛ مما اضطره إلى تجريد حملة تأديب كبرى،[٢٧] وعند حملته على الشام اصطدم مرةً أخرى عند رفح، بجماعات الشاسو[٢٨] أو بدو سيناء، ولم يتمكن من دخول فلسطين، إلا بعد أن أحرز نصرًا شديدًا عليهم.

المهم أنه إذا كانت الوثائق، قد أفادت باسم فرعون التحرير «أحمس»، فإنها لم تفدنا حتى الآن باسم فرعون مصر وقت الغزو، باستثناء ما ورد عند مانيتو عن فرعون باسم «توثيمايوس» أو «توثيمايو»، بعد حذف التصريف الاسمي اليوناني، وقد لجأ المتأوِّلون المتعجِّلون إلى تصحيفه بالقراءة إلى «تحتمس»، لكن ذلك لم يحل الإشكال، فلدينا بين الفراعين أكثر من تحتمس، ومانيتو لم يحدد لنا من هو الـ «تحتمس» المقصود بين الفراعين؟ ثم إن ما يفصل في الأمر، أن الملوك التحامسة لم يحكم أحدهم قط قبل الأسرة الثامنة عشرة، أي أنهم حكموا بعد طرد الهكسوس من مصر، وليس قبل ذلك، وأولهم «تحتمس الأول»، الملك الثالث في ترتيب ملوك الأسرة الثامنة عشرة، بعد أحمس وآمنحتب الأول.

إلا أن الباحث «غطاس الخشبة» نبهني إلى أمرٍ هام بالفعل، حيث إنه تابع قراءة جداول بردية تورين للملوك، المرفقة بكتاب «جاردنر»: مصر الفراعنة، وطابق اسم «توتيماوي» مع الاسم المذكور في العمود السادس تحت رقم ٢٤،[٢٩] إلا ان الأرجح بالفعل أن يكون هو الفرعون الذي ورد بذات البردية في العمود رقم ٧ تحت رقم ٥، باسم «سعنخ رع أن سوا دج/تو»، الذي حكم ثلاث سنوات وشهرين، وهو الاسم الذي ينقح إلى اسمٍ مشهور دون سببٍ واضح لتلك الشهرة، هو «سخم رع سوا دج/توي»، واشتهر باسم «سبك حتب الثالث» ولا سبيل لتفسير تلك الشهرة إلا بحدثٍ كبير مثل حدث غزو الهكسوس.

ولما كان حرف «ت» ينطق — في تلك الحال — «دج»، مع تعطيش الجيم، كما في نطق اسم مدينة «أبيدوس» بذات الطريقة «آبدجو» بدلًا من «أبيدو» المعتادة، فإنه يمكننا

---

[٢٧] غطاس الخشبة: رحلة ... سبق ذكره، ص١٣٧.

[٢٨] سامي سعيد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م، ص٢٢.

[٢٩] غطاس الخشبة: رحلة ... سبق ذكره، ص١٣٧.

أن ننطق اسم الفرعون نطقًا يوافق زمن مانيتو بتخفيف «دج» إلى «ت»؛ ليقرأ: «سخم رع/سوا/ت/تو وي»، وهو الاسم الذي يحوي كل المكونات الفونيطيقية للاسم، الذي أورد مانيتو «توتيماوي» ويقع ترتيبه في سلسلة الملوك — بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة — الثامن والعشرين، وهو بذلك أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة، التي حدث الغزو إبانها بالفعل، وهو ما يعني وجود أسرة بهذا الرقم فعلًا في طيبة، ولا يصح أن نذهب مع من ينصحون بإلغائها، لصالح عمليات التزمين السالف الإشارة إليها.

والمطالع لقائمة سني الملوك الذين حكموا بعد الأسرة الثانية عشرة، سيلحظ فورًا أن هذا العدد من الملوك، قد حكم مددًا قصيرةً جدًّا، حيث إن الملك منهم لم يحكم أكثر من شهور، وبعضهم لم يحكم سوى أيام، وأطول مدة حكمها ملك من بينهم لا تتجاوز سنواتها أصابع اليد الواحدة، كما في حالة «توتيماوي/سبك حتب الثالث»، وحالةٌ أخرى وحيدةٌ نادرة، استمر فيها أحدهم ثلاثًا وعشرين سنة، وهو الأمر الذي يشير إلى قصر عمر قياسي للأسرة الثالثة عشرة، وصراعٍ هائل على السلطة، أدَّى إلى تفكك نظام الدولة وانهيار البلاد، إلى الحد الذي سمح بدخول الهكسوس إليها، لكن في ضوء تضارب التزمين لا يمكن بحال أن ندقِّق بشكلٍ قاطع الزمن الذي دخل فيه الهكسوس مصر، على الأقل في هذه المرحلة من البحث، وإن كان العلماء قد حددوه بعام ١٧٨٨ق.م. أو نحو ذلك، وهو العام الذي حددوه لسقوط الأسرة الثانية عشرة.

أما الدليل الأوفى على صدق «مانيتو»، فهو إشارته لاتخاذ الهكسوس عاصمةً في شمالي مصر باسم «أواريس/أفاريس/حواريس»، واتخاذهم إلهًا رئيسيًّا باسم «تيفون»، وهي أمور لا جدال بشأن صحتها، حيث حدثتنا الوثائق المصرية المكتشفة عن مدينة الهكسوس باسم «حواريس»، وقد وردت باسمها هذا عدة مرات في وثائق التحرير، وطبقًا لما نقله «يوسفيوس» عن «مانيتو»، فإن حواريس كانت تقع في مقاطعةٍ باسم «المقاطعة الستروية»، وتبعًا لما بين أيدينا الآن من تصنيفٍ لمقاطعات مصر القديمة، لم نعثر بينها على مقاطعةٍ بهذا الاسم.

وقد ظلت نظرية «مانيتو» — التي أخذ بها المؤرخون القدامى، مسيطرة وسائدة، إلى ما يزيد عن سبعة عشر قرنًا على التوالي، والتي تؤكد — بتفسير «يوسفيوس» — أن بني إسرائيل، هم ذات عين الهكسوس، وأن طردهم قد تم على يد فرعون باسم «أحمس»، وأن بعضهم بقي أسيرًا في مصر، ثم أشعلوا نار ثورة ضد فرعون باسم «آمنحتب»، ومن علوم المصريات، وحسب جدول الملوك، نعلم أن هناك أربعة ملوك حكموا بهذا الاسم خلال

الأسرة الثامنة عشرة المصرية، أولى أسر الدولة الحديثة، دولة الإمبراطورية، وقد تم ترتيب ملوك تلك الأسرة، وفق قوائم الملوك القديمة (أبيدوس، الكرنك، بردية ليدن ... إلخ)، مع الاستعانة بالكشوف الحديثة في علوم المصريات لآثار مصر، لملء الفراغات التي أسقطتها تلك الجداول، بحيث جاءت كالتالي:

اسم الفرعون	بالهيروغليفية	التاريخ الافتراضي لسني حكمه ق.م.	
أحمس	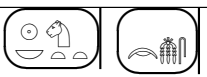	١٥٧٥–١٥٥٠	
آمنحتب الأول	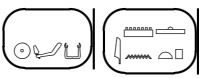	١٥٥٠–١٥٢٨	
تحتمس الأول		١٥٢٨–١٥١٠	
تحتمس الثاني		١٥١٠–١٤٩٠	
حاتشبسوت		١٤٩٠–١٤٦٨	بينهما فترة حكم مشتركه
تحتمس الثالث	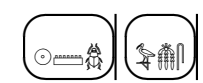	١٤٩٠–١٤٣٦	
آمنحتب الثاني	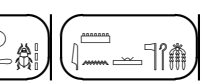	١٤٣٦–١٤١٣	
تحتمس الرابع	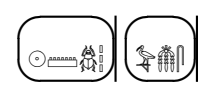	١٤١٣–١٤٠٥	
آمنحتب الثالث	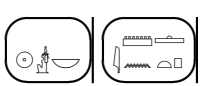	١٤٠٥–١٣٦٧	

اسم الفرعون	بالهيروغليفية	التاريخ الافتراضي لسني حكمه ق.م.
آمنحتب الرابع/إخناتون	أسرة العمارنة ساقطة من الجداول المصرية القديمة	١٣٥٠–١٣٦٧
سمنخ كارع		١٣٤٧–١٣٥٠
توت عنخ آمون		١٣٣٩–١٣٤٧
آي		١٣٣٥–١٣٣٩
حور محب	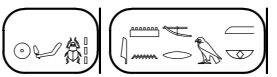	١٣٠٨–١٣٣٥

لكن علوم المصريات الحديثة، رغم أخذها — بعد تأكدها — بما ذكره «مانيتو» عن أحمس كفرعون للتحرير، فإنها لم تطمئن إزاء المعطيات الآثارية المكتشفة، إلى فكرة أن الأسرى الإسرائيليين قد خرجوا بعد ذلك زمن فرعون باسم «آمنحتب»، ومن هنا طرحت عدة نظريات تحاول تزمين خروج بني إسرائيل من مصر، وإذا أخذنا عينات منها على الترتيب الزمني، سنجد: منهم من ذهب إلى خروجهم زمن الفرعونة «حتشبسوت»، ومنهم من أرجأ ذلك لزمن شريكها في العرش وخليفتها الفاتح المظفر «تحتمس الثالث»، بينما ذهب آخرون إلى تأخير ذلك الزمن إلى أيام «آمنحتب الثالث» أو «الرابع/إخناتون»، باعتباره ما ذكره «مانيتو» عن صفات الفرعون المحب للسلم واسمه آمنوفيس، واحتسابه هو فرعون التسخير والاستعباد، وأن الخروج تم في عهد ابنه «هورامبيس» أو «رمسيس» كما قال «مانيتو»، والذي سيتأرجح ما بين كونه إخناتون «آمنحتب الرابع» وبين كونه «حور محب»، لكن ذلك الفرض جاء قبل أن تلقي علوم المصريات الأركيولوجية الضوء على كثيرٍ من المجهول، واكتشفت أنه لا «رمسيس» ولا «حور محب» كانا أبدًا أبناء لآمنحتب، بل إنهما قد أتيا بعد ذلك بفترة، وفي أسرةٍ أخرى هي الأسرة التاسعة عشرة، ثم أخيرًا تأتي آخر النظريات وأكثرها شيوعًا ورسوخًا الآن، وهي التي تقول باستعبادهم زمن الفرعون «رمسيس الثاني» (١٢٩٠–١٢٢٤ق.م.) أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة وأجلهم شأنًا، وخروجهم زمن ولده «مرنبتاح» (١٢٢٤–١٢١٤ق.م.).

(٢) نظريات الخروج المتراوحة بين زمن «حتشبسوت» وبين زمن «مرنبتاح»

والنظرية الأولى هي القائلة بخروج بني إسرائيل من مصر زمن الفرعونة «حتشبسوت» و«تحتمس الثالث»، الذي شاركها في الحكم فترةً من الوقت، ثم أزاحها عن العرش وانفرد به، وقاد جيوش مصر ليقيم أكبر إمبراطوريات ذلك الزمان. ويمثل تلك النظرية أصدق تمثيل الأستاذ «جارستانج» عضو بعثة مارستن Martson التابعة لجامعة ليفربول، للتنقيب في فلسطين، وقد ملأ «جارستانج» الدنيا صخبًا وضجيجًا بما زعمه عن كشفٍ آركيولوجيٍّ حاسم في الأمر جميعه، حيث عثر على جعران في مقابر أريحا الملكية، عليه إشارات فسرها كأدلةٍ قاطعة، تثبت أن «موسى» قد أنجبته الفرعونة «حتشبسوت» عام ١٥٢٧ق.م. بالتحقيق، عندما كانت أميرة، وقبل أن تتربع على عرش مصر، أي خلال حكم الفرعون «تحتمس الأول» أو «تحتمس الثاني»، وأن «موسى» قد تربى في بلاطها وبين حاشيتها بعد ذلك، ثم فرَّ من مصر عندما نجح الانقلاب الذي قام به «تحتمس الثالث»، ثم عاد ليقود الخروج أثناء حكم «تحتمس الثالث» عام ١٤٤٧ق.م. وأن بني إسرائيل وصلوا أريحا وفتحوا فلسطين، بعد سبعة وأربعين عامًا من خروجهم من مصر، أي عام ١٤٠٠ق.م. على وجه التحديد.

وكما ظهرت ضجة «جارستانج» فجأة، خفتت فجأة، وانتهى «جارستانج» إلى الصمت التام، ولم يعد أحد يتحدث عن جعرانه الأعجوبة، ويبدو أن المصرولوجيين لم يقتنعوا تمامًا بتأويلاته لنقوش جعران أريحا، ربما لسقوطه في أخطاءٍ هامة تبرر ذلك الخفوت، فالتلاشي، لكشفٍ بهذه الخطورة.

وممن ذهبوا إلى تزمين الخروج بأيام حكم الفرعونة «حتشبسوت» الباحث «هانز جيدك H. Jedic» الذي أكد هذا المعنى، وحاول إيجاد تبريرٍ معقول للقناعة بغرق الفرعونة وجيوشها، رغم عدم وجود أي وثيقةٍ تاريخية في كل مدونات حوض المتوسط، تشير إلى غرق أي جيش أو أي فرعون، فأرجع الأمر إلى انفجار بركان جزيرة تيرا Tira المعروفة الآن بجزيرة سانتورين Santorin، الواقعة شمالي جزيرة كريت بحوالي سبعين كيلومترًا، حيث زعم أنه قد تصادف خروج الإسرائيليين عقب الانفجار، ولحظة وصولهم إلى بحيرة المنزلة؛ لكي يسلكوا الطريق الساحلي إلى أرض كنعان، وفي اللحظة التي كانت فيها جيوش «حتشبسوت» تدخل المنطقة، و«موسى» وأتباعه على ربوةٍ عالية بعد مرورهم من جنوبي

البحيرة، وصلت موجة المد الهائلة التي سببها البركان، فأدى إلى غرق المصريين، و«جيدك» بذلك يفترض أن بحر سوف الذي عبره الإسرائيليون، لم يكن بحرًا بالمعنى المفهوم، بل موضعًا بساحل بحيرة المنزلة الجنوبي شمال الدلتا، ويكون المد الذي أغرق المصريين قادمًا من البحر الأبيض المتوسط.

ويبدو لنا أن من ذهبوا إلى تزمين الخروج بعهد الفرعونة «حتشبسوت»، قد ازدادت قناعتهم بمذهبهم، استنادًا إلى النقوش التي خُطَّت زمن حتشبسوت بحروفٍ هجائية في صورةٍ بدائية، عند موضع جبل الشريعة (سانت كاثرين وموسى بسيناء)، وورد فيها أكثر من مرة الاسم «منشه Manassah»، الذي دفع إلى الظن بأنه اسم «موسى» نفسه، هذا مع الاعتقاد الراسخ أن جبل سانت كاترين بسيناء، كان هو الجبل الذي توجَّه إليه الخارجون من مصر، إلا أنه لوجه الحق، أن حل رموز تلك النقوش غير محقَّق، إضافة إلى أن الصفات التي وردت في تلك المخربشات عن المدعو «منشه»، تخالف إلى حدٍّ بعيد ما ورد بشأن «موسى» في التوراة، فمنشه هذا كان عاملًا مصريًّا في المحاجر هناك، يعبد آلهةً مصرية كثيرة، وكان فيما يبدو مقربًا في زمنٍ سابق من الفرعونة حتشبسوت.[٣٠]

وربما انبنت قناعة «جارستانج» و«هانزجيدك» على ذلك النص المصري عن «حتشبسوت»، والذي وُجد منقوشًا على واجهة أحد معابدها، في منطقة إسطبل عنتر بضاحية مصر القديمة الآن، وهو معبدٌ إقليمي، أطلق عليه اليونانيين اسم «سبيوس أرتميدس»، ويحمل علاماتٍ شديدة الدلالة، يمكن تأويلها مع قصة الخروج، وهو نص مدهش بالفعل، يقول النص:

> أصغِ إليَّ، إن جميع الناس من البدو هم على ترحالهم، وإني لم آخذ في اعتباري أعمالَهم الشاذة، ولم تشغل خاطري، فإني لم أنسَ أن أشيد «وأصلح ما قد دمَّروه وأتلفوه» من قبلُ، وكان من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، «كانوا يحكمون» بغير مشورة رع، ولم يحدث أن تم التصرف طبقًا للأمر الإلهي، حتى عصر جلالتي.
>
> وحكم جلالتي الآن ثابت بقوة رع؛ لأنه قد سبقت النبوءة بمولدي، بأني سأكون من الملوك القادرين المنتصرين؛ ولذلك جئت كالحية النارية الملتهبة

[٣٠] روبنسون: إسرائيل في ضوء ... سبق ذكره، ص١٠٧.

ضد أعدائي، «ولما سمحت لأولئك الذين أغضبوا الآلهة بالخروج، فكأن الأرض ابتلعت آثار أقدامهم»، وهذه إرادة أبي الآلهة، التي رتبت ذلك في حينه، وهم لا يوافقون على إلحاق الضرر بمن جاء بإرادة الإله آمون، وإني أتمتع بقوة احتمال حين تسطع عليه أشعة الشمس النورانية، «فوجود جلالتي ولقبي شرعي وقانوني»، والإله حورس الصقر هو الذي يحميني بجناحَيه، وينشر اسمي الملكي إلى أبد الآبدين.[٣١]

الواضح لدينا هنا أن «حتشبسوت» تريد تأكيد شرعية ملكها بإرادة الإله «آمون»، وهناك نصوصٌ عديدة حاولت فيها تأكيد تلك الشرعية، مع دليلٍ آخر يدعم ذلك الشك، حيث اصطنعت قصة تقول إنها ابنة مباشرة للإله آمون بالجماع الجسدي مع والدتها، وهو الأمر الذي تكرر مع أكثر من فرعون، وهو ما يقول بشأنه «عبد العزيز صالح»: «وعادةً ما ازداد تمسح هؤلاء بالدين وكرامات آمون، كلما أحس أحدهم بشبهة يمكن أن تمس شرعية ولايته للعرش، حيث يسارع إلى تأكيد بنوَّته المباشرة له، نتيجة تقمُّصه روح أبيه حين أنجبه، وعبرت عن هذه الادعاءات أربع روايات للفراعنة: حتشبسوت، وتحتمس الثالث، وتحتمس الرابع، وآمنحوتب الثالث.»[٣٢]

ويشير كل من «دريتون» و«فانديه» إلى: «إن فكرة تدخل الإله تدخلًا مباشرًا في إنسان الملك الجالس على العرش، كانت شائعةً في الأسرة الثامنة عشرة، إذ تمثل النقوش في معبد الدير البحري عن حتشبسوت، ومعبد الأقصر عن آمنحتب الثالث، ومراحل الاقتران الإلهي؛ أي اجتماع آمون مع الملكة الوالدة، بعد أن يتخذ مظهر الملك الوالد.»[٣٣]

أما الجزء الخاص بالبدو في ذلك النص، فقد جاء عرضًا لإثبات اقتدارها وسلطانها، ولم يكن مقصودًا لذاته، ويبدو لنا لونًا من الادعاءات الكثيرة المتكررة في حوليات الفراعنة غير الشرعيين أو الضعاف، فيدعي أحدهم أنه أسقط حضارة دولةٍ معادية قبل زمنه

---

[٣١] الخشبة: رحلة ... سبق ذكره، ص١٩٣، ١٩٤.

[٣٢] عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ج١، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٩٩.

[٣٣] إتيين دريتون، وجاك فانديه: مصر، ترجمة عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص٩٢، انظر أيضًا: جيمس هنري برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة ١٩٢٩م، ص١٧٩.

بمئات السنين، أو يزعم أنه باني المعبد الفلاني وليس له، أو يكتفي بمحو اسم الفرعون صاحب الأثر العظيم ويضع عليه اسمه، وهي أمور معتادة ومعلومة مع دارس التاريخ المصري القديم، والنص هنا يتحدث عن بدوٍ كانوا يحكمون مصر، لا عن عبيد بمصر، إنه إشارة للهكسوس الحكام، وليس للإسرائيليين المستعبدين، مما يشير إلى أنها أرادت أن تنسب لنفسها تحرير مصر من الهكسوس، الذين حكموا مصر بالنص، وهدموا معابد الآلهة وحكموا بغير مشورة الإله رع، النص هنا لا يمكن تفسيره إطلاقًا بأنه يتحدث عن بني إسرائيل، فلا التوراة ادعت أنهم حكموا مصر، ولا مصر دونت ذلك، النص يتحدث إذن عن الهكسوس تحديدًا في فخر، لفرعونة مشكوك في شرعية حكمها.

أما الجملة: «ولما سمحت لأولئك الذين أغضبوا الآلهة بالخروج، فكأن الأرض ابتلعت أقدامهم.» فيبدو أنها تشير إلى اغتصابها عمل الفرعون «أحمس»، الذي سمح للهكسوس بالخروج من حواريس بعد حصارٍ طويل ومفاوضات، ليتجهوا إلى شاروهين، أما الباحث «غطاس الخشبة» فيبدو أنه لم يلتفت إلى مسألة حكمهم لمصر وهدمهم لمعابدها، ووقف فقط عند تلك الجملة، ليستنتج أنهم بنو إسرائيل.

وقد رتب الباحث نتائج عمله وأجملها في قوله: «إن الهكسوس طردوا من قلعة «حواريس» سنة ١٥٦٨ق.م. في السنة الخامسة لحكم «أحمس الأول»، وظل يطاردهم حتى دخلوا فلسطين، وأن «موسى النبي» ولد سنة ١٥٤٨ق.م. في أول حكم الملك «آمنحتب الأول»، وانتشل من السفط تحت رقابة أخته مريم بنت عمران، وأن خروج بني إسرائيل كان في نهاية حكم «حتشبسوت» عام ١٤٦٨ق.م. بقيادة موسى، حيث كان له من العمر ثمانون عامًا، والأشبه إن صح هذا، أنها ماتت غرقًا عندما لاحقتهم مع الجيش في أطراف بحيرة المنزلة، أو أنها حُمَّت بسبب ذلك، ودفنها تحتمس الثالث سرًّا، لاغتصابها الملك منه، ويبين من ذلك أن تاريخ طرد الهكسوس من مصر سنة ١٥٦٨ق.م. كان سابقًا لخروج بني إسرائيل من مصر سنة ١٤٦٨ق.م. بمائة سنة، الذين كانت متاعبهم قد بدأت في مصر منذ ذلك الحين، عقب طرد الهكسوس.»[٣٤]

«معلومة هامة»: تم اكتشاف أو التأكد من مومياء الملكة حتشبسوت العام ٢٠٠٨م ... وأعلن زاهي حواس عن ذلك.

[٣٤] الخشبة: رحلة ... سبق ذكره، ص١٦١، ١٦٢.

والواضح أن «الخشبة» قد حاول باجتهاد أن يوفق في بحثه، بين رواية التوراة وبين رؤيته وتزميناته هو الاجتهادية لوقائع التاريخ، وفي ذلك لا مثلبة عليه؛ لأننا لا نملك مصدرًا آخر يتعلق بتفاصيل الخروج الإسرائيلي سوى التوراة، ولا مناص من أخذه كمصدرٍ أساسي، عند بحث أي شأن من شئون الخروج الإسرائيلي من مصر.

إلا أن تحديد زمن الخروج الإسرائيلي من مصر، بزمن الفرعونة حتشبسوت، سيتضارب تمامًا مع تقارير التوراة التي اعتمدها هو نفسه واعتمدها غيره، كما نعتمدها نحن، حيث قررت التوراة أن الإسرائيليين قد عاشوا في مصر ٤٣٠ عامًا، وحيث إن الأستاذ الباحث قرر بحساباته، أنهم دخلوا في عهد الملك الهكسوسي الثالث، الذي ذكره «مانيتو» باسم «أبخنان»، فإنه بحسبةٍ بسيطة، سنجدهم قد دخلوا مصر بعد ٦٣ عامًا من غزو الهكسوس، ولما كان غزو الهكسوس لمصر قد تم حوالي ١٧٨٨ق.م. فإن ذلك سيعني دخول بني إسرائيل مصر حوالي ١٧٢٥ق.م. ولما كان باحثنا يقول بخروج بني إسرائيل زمن «حتشبسوت» التي توفيت عام ١٤٨٠ق.م. فمعنى ذلك أن الإسرائيليين لم يقضوا في مصر أكثر من ٢٤٥ عامًا.

ثم إننا لو احتسبنا النص المعتمد صادقًا تمامًا، فهو يشير لحكامٍ غزاة وليس لعبيد إسرائيليين، مما يعني أن مستنده الأساسي، لا يعطي التفسير الذي يذهب إليه هو نفسه، وإن كان ذلك لا يُقلِّل من جهده المحمود.

والنظرية الثانية هي نظرية الخروج زمن الفرعون تحتمس الثالث

وممن اقتربوا بتزمين الخروج من زمن الفرعونة «حتشبسوت»، من ذهب إلى أن الخروج قد حدث زمن الفرعون «تحتمس الثالث» شريكها في الحكم، وخليفتها المباشر، وقد قال بهذا الرأي عدد من الباحثين، نأخذ منهم نموذجًا الدكتور «أحمد سوسة»، في كتابٍ واسع الانتشار بين قراء العربية، مُعنوَن باسم «العرب واليهود في التاريخ»، وفيه قام سوسة اليهودي العراقي، الذي أسلم بمزج النظرية التي أسسها «جارستانج» بآرائه الخاصة، التي توصل إليها بشأن جنس هؤلاء الخارجين من مصر، وهو ما يستحق المعالجة، فقط بسبب الانتشار الواسع للكتاب المذكور، وليس لأي سببٍ علمي، وحيث اعتمد «سوسة» على تأسيس يعتمد اسم الفرعون المذكور عند «مانيتو» كفرعون للخروج، وقرأه «يوسفيوس» بالاسم «تثموزيس»، ليصحفه «سوسة» إلى «تحتمس» وليس «أحمس»، مهملًا قراءة

«يوسابيوس» وقراءة «يوليوس الأفريقي»، اللتين كانتا بإمكانهما تصويب ذلك التصحيف مقدمًا، فهو عندهما «آموزيس» أو «آموس» أي «أحمس».

يقول الدكتور «سوسة»: إن جماعة يعقوب/بني إسرائيل، قد دخلت مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد، لحوقًا بالهكسوس الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك، وأن تلك الجماعة عاشت هناك حوالي خمسة قرون، آخذًا بذلك بتقدير «مانيتو» حول زمن وجود الهكسوس في مصر، وبزيادة من سبعين إلى مائة عام عن تقدير التوراة، لمدة بقاء بني إسرائيل في مصر، ودليله على دخولهم زمن الهكسوس، ما عثر عليه من آثار الهكسوس في مصر، من أسماء ذكرها هي: «يوسف إيل» أو «يعقوب إيل».[٣٥]

وقد أخطأ الرجل بداية في ذكر الأسماء، فما تم العثور عليه تدقيقًا هو الاسم «يعقوب هر»، وقد ترجمها المؤرخ «فيليب حتي»: «ليحم هور إله الجبل»، واعتبرها إشارةً قاطعة ليعقوب، المعروف في التاريخ الديني باسم إسرائيل،[٣٦] بينما نرى من جانبنا أن صدق الترجمة هي «ربوة يعقوب»، وليس «ليحم هور إله الجبل»، ومعلوم فعلًا أن المفردة «هور» تعني في العبرية «الجبل»، لكن التوراة كانت تشير إلى العشيرة أو القبيلة أو النسل بكلمة «ربوة»، التي تشبه عدد النسل بتراكم الرمال ليصنع ربوةً كالجبل، وتتكرر هذه المعاني في التوراة، كما في القول: «وأجعل نسلك كتراب الأرض» (تكوين، ١٣: ١٦) «وباركوا رفقة وقالوا لها: أنت أختنا، صيري ألوف «ربوات»، وليرث نسلك باب مبغضيه» (تكوين، ٢٤: ٦٠)، ومن ثم فالمقصود بيعقوب هور هو جبل يعقوب أو ربوة يعقوب أي «قبيلة يعقوب» أو نسل يعقوب، المهم أن «سوسة» يستمر متابعًا فيقول: إن النتيجة الحتمية، لبقاء سبعين شخصًا مع نسلهم في مصر مدة خمسة قرون متصلة، أن ينصهروا بالكامل ثقافيًّا وعرقيًّا في الشعب المصري، وقول سوسة هذا مقبول تمامًا وبالفعل، ويستند قبوله لدينا إلى ما لاحظناه من إشاراتٍ عند «مانيتو» وفي «التوراة»، عن لفيفٍ مع الخارجين، ليسوا من الإسرائيليين، وهو ما وجدناه عند «مانيتو» في حديثه، عمن أثاروا الشغب في حواريس ووصفهم بـ «المصريين الفاسدين»، وهو لا شك مأثور قديم معلوم، ظل يتواتر حتى وصل «مانيتو»، وهو المأثور الذي كان يعلم أن هؤلاء كانوا مصريين، لكنهم

[٣٥] أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د.ت، ص٢٧.
[٣٦] اليوسف: سبق ذكره ... ص٣٨.

فاسدون، وهو الوصف الذي كان المصري القديم يطلقه على «المارقين بالمعنى الديني، أو على الخونة بالمعنى الوطني»، أما التوراة فقد وجدناها تقول لحظة الخروج من مصر:

> فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوتٍ نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال، عدا الأولاد، وصعد معهم «لفيف كثير» أيضًا. (خروج، ١٢: ٣٧، ٣٨)

وإذا كان النص هنا لم يوضح جنس هذا اللفيف، فإن البحث وراء الأمر في الكتاب المقدس، يكشف لنا عن جنس هذا اللفيف، في حديثٍ لموسى أمام شعبه في قادش، وهو ما لم يذكره سوسة، حيث وقف يخطب فيهم ويردد على مسامعهم وصايا الرب، ومن بين تلك الوصايا الوصية التي تقول:

> لا تكره مصريًّا لأنك كنت نزيلًا في أرضه، والأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث، يدخلون منهم في جماعة الرب. (تثنية، ٢٣: ٧)

وهو ما يعني وجود مصريين بين الخارجين. المهم يقول «سوسة»: إنه قد بقي بعد تحرير مصر من الهكسوس شراذم أسرى، لا يمكن تصنيفهم جنسيًّا، كما لا يمكن القول إن هؤلاء الباقين هم تحديدًا بنو إسرائيل فقط، ويرى «سوسة» أن هؤلاء قد أخذوا بديانة التوحيد الآتونية، التي تدعو إلى عبادة إلهٍ واحد باسم «آتون»، والتي دعا إليها الفرعون «آمنحتب الرابع/إخناتون»، وقد أدى سقوط «إخناتون» وانهيار ديانته إلى اضطهاد تلك الجماعة، فحاصرهم «تثموزيس» كما قال «مانيتو» في مدينتهم «حواريس»، وقد احتسب «سوسة» أن «تثموزيس» هو «تحتمس الثالث» (١٥٠١–١٤٤٧ق.م.) الفاتح المصري المظفر، وهنا أول سقطاته الشديدة، وخبطه، وسوء تقديره؛ لأنه بمقارنةٍ بسيطةٍ مدققة في قوائم الملوك المصرية، كان يمكنه أن يعلم أن «تحتمس الثالث» سابق لإخناتون بحوالي ثمانين عامًا، وليس بعده، وأن هناك ثلاثة فراعنة تقع مدة حكمهم في المرحلة الفاصلة بين تحتمس الثالث وبين إخناتون على الترتيب: «آمنحتب الثاني» (١٤٣٦–١٤١٣)، و«تحتمس الرابع» (١٤١٣–١٤٠٥)، و«آمنحتب الثالث» (١٤٠٥–١٣٦٧).

ويستمر «سوسة» في عرض نظريته، فيقول: إنه لما فشل «تحتمس الثالث» في التغلب على هؤلاء المتحصنين في حواريس، هذا رغم ما نعلمه عن «تحتمس الثالث» كصاحب أعظم وأنجح حملات عسكرية في الشرق القديم، على وجه الإطلاق، ووصلت حملاته إلى سبع عشرة حملة (١٤ حملة [المؤلف])، وصل بها إلى عمق شمال سوريا («رتنو العليا»

أعلى نهر الفرات [المؤلف])، المهم أن «تحتمس الثالث» لما فشل في ذلك الحصار — فيما يرى سوسة — لجأ إلى مصالحتهم، على أن يخرجوا مع ممتلكاتهم وأنعامهم من مصر.

ثم يؤكد لنا الدكتور «سوسة» أن هذا الخروج كان حملة مصرية بحت على فلسطين، والقول بمصريتهم يدعمه اقتباسه مما ذهب إليه «غوستاف لوبون»، حول وجود عدد كبير من العبيد المصريين الفارين من سادتهم، إضافة إلى بقايا الهكسوس الذين أخذوا بعقيدة التوحيد الآتونية مع هؤلاء المصريين، والجميع عند «سوسة» كانوا يتكلمون المصرية القديمة، ويرى أن «موسى» نفسه — كما ذهب كثيرون — مصري مائة بالمائة، وهو ما سبق وأكده «مانيتو» عن «أوزرسيف»، وبدليل قول بنات كاهن مديان لأبيهن، بعد أن سقى لهن موسى الغنم: «فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وأنه استقى لنا أيضًا وسقى الغنم» (خروج، ٢: ١٩).

ثم يستند «سوسة» إلى أكثر التآريخ عمومية وفضفاضة، فيعمد لتأكيد مصرية موسى، من تاريخ الحضارة لول ديورانت، حيث يقول: إن «موسى» كان اسمًا مصريًّا، وإنه اختصار للاسم «أحموس»، وإن «موسى» المصري هذا ذهب إلى العبيد المصريين وبقايا الهكسوس الموجودين بمدينة «حواريس»، وقام بتعليمهم قواعد النظافة المتبعة عند الكهنة المصريين، باعتباره كان كاهنًا مصريًّا كما أفاد «مانيتو»، وذلك لاتقاء شر وباء البرص الذي تفشى بينهم، وكان «موسى» من أتباع «إخناتون» ومن المخالفين للوثنية المصرية، وقد قال «مانيتو»: إن «أوزرسيف» كان كاهنًا مصريًّا خالف ديانة المصريين، وفي المأثور الديني أن ابنة فرعون أقامت عليه أساتذة من الكهنة المصريين، ليُفقِّهوه في علوم المصريين، هذا إضافة إلى ما جاء عند العلامة «ويج»،[٣٧] لينتهي إلى أن «موسى» لا علاقة له بإله اليهود «يهوه»، إنما كان موسى من أتباع «إخناتون» وإلهه «آتون»، وأن نسبة «يهوه» لموسى لون من التزوير التوراتي، كذلك استند «سوسة» إلى آراء «سيجموند فرويد» بهذا الشأن، والتي سنفصِّلها بعد قليل تفصيلًا وافيًا، وأهم ما فيها أن تلك الفرقة الفارَّة من مصر، قد أخذت بعادة الختان، وهي عادةٌ مصريةٌ قح، أخذتها عنهم الشعوب الأخرى، ولم يكن تقرير التوراة لتلك العادة على بني إسرائيل من بعدُ، إلا «لأن الخارجين كانوا مصريين» بالأساس، كما أخذ بملاحظة فرويد للقب الإلهي التوراتي «آدون»، ومطابقته لاسم إله التوحيد الإخناتوني «آتون».

[٣٧] Weech, Civilization of Near East, pp. 84–88.

وإعمالًا لكل تلك المقدمات، ينتهي «سوسة» «إلى أن الخروج كان مصريًّا خالصًا»، وأنه كان حملة كأي حملةٍ مصريةٍ معتادة على فلسطين، وكل الفارق بين تلك الحملات جميعًا، وتلك الحملة بالذات، هو أن حملة «موسى» كانت منشقَّة عن الدولة المركزية الأم، ولا تتمتع بالتنظيم العسكري المألوف، ولا بإسناد الدولة، كما لم تكن ضمن أهدافها مصلحة الدولة المصرية، إنما كانت فرارًا من اضطهاد المجتمع المصري الوثني.

وعليه، «فإن جماعة الخارجين كانت غريبة على أرض كنعان؛ مصرية، لا صلة لها ببني إسرائيل الذين اختلطوا بالهكسوس عند دخولهم مصر، وذابت بذرتهم وضاعت تمامًا مع طرد الهكسوس من مصر، فقامت التوراة مع هذا الضياع بتنسيب الجماعة المختلطة الخارجة من مصر، إلى جماعة بني إسرائيل ويعقوب».

ومن هنا يستمر «سوسة» في سرد تصوره للأحداث، فيقول: إن الخارجين بقوا في سيناء أربعين سنة، هي المعروفة تقليديًّا بسنوات التيه، لكنه عند «سوسة» لم يكن تيهًا، بل انتظارًا وترقبًا مقصودًا داخل سيناء، وهو كلامٌ معقول، لكنه يحدد لذلك أسبابًا كان أهمها أنه لم تكن لديهم آنذاك القوة الكافية لطرد سكان فلسطين والحلول محلهم، ثم يزيد في إيراد الأسباب فيقع في مجموعة أخطاء، من قبيل أنهم بسيناء أمنوا شر الآشوريين، ولو أجرى مراجعةً تاريخيةً بسيطة، لعلم أن الآشوريين كانوا واقعين آنذاك تحت الاحتلال الكاسي، والسبب الآخر عنده أنهم بسيناء، كانوا بمأمنٍ من الآراميين، رغم أن الآراميين آنذاك لم يبلغوا بعدُ قوة تمكنهم من المغامرة، إضافة إلى حكمةٍ أخرى هي أن أرض كنعان، كانت حينذاك ساحة لمعارك بين رمسيس الثاني والحيثيين، والخطأ هنا فادح حقًّا؛ فهناك فارقٌ عظيم بين زمن «تحتمس الثالث» (١٤٩٠–١٤٣٦ق.م.) وبين زمن «رمسيس الثاني» (١٢٩٠–١٢٢٤ق.م.) يتجاوز تلك الأربعين عامًا المفترضة للتيه، بمائتي عام إضافية، أي إن الفارق بين الزمنين كان ٢٤٠ عامًا كاملة، هكذا؟! …

المهم أنه يقول بتجنُّب «موسى» التوغل في فلسطين، تلك السنين الأربعين (لم يحاول بالطبع إجراء أي حسابات، ليعلم أن ما ذهب إليه قد جعل سنوات التيه ٢٤٠ سنة)، وبعدها تمكن الخارجون من الدخول إليها بقيادة «يشوع» بعد موت موسى، بالعبور من شرقي الأردن إلى غربه في عمق فلسطين، وقد تم ذلك دون مشاكل؛ لأن مصر كانت عاجزة عن التدخل في شئون فلسطين، ومدِّ يد العون لملوك كنعان، وهو بدوره خطأٌ هائل وتناقضٌ عظيم، فلو أخذنا أخطاءه بحسبانها صادقة، واحتسبنا الخروج قد حدث زمن

«تحتمس الثالث»، وأن التيه قد حدث زمن «رمسيس الثاني»، فإنه في كلا العهدين كانت مصر في أوج اقتدارها وعزتها.[٣٨]

(٣) نظرية الخروج زمن خلوِّ العرش بعد سقوط إخناتون

ويمثل هذه النظرية العالم النفسي الأشهر «سيجموند فرويد»، وهي تأخذ ثقلها العلمي، ليس من وثائق التاريخ، بقدر ما تأخذه من تطبيق «فرويد» للتحليل النفسي على القبيلة الإسرائيلية الخارجة من مصر، ومحاولته حل بعض الغوامض في تاريخهم بمنهجه الفريد والممتع، وهو يسلم برواية التوراة عن الدخول إلى مصر والخروج منها، ولا يناقش التفاصيل إلا فيما لا يبدو متَّسقًا مع المنطق؛ لذلك فإن نظريته هي محاولة للتفسير أكثر منها محاولة لبحثٍ علميٍّ تاريخيٍّ جغرافيٍّ مقارن، لكنه توصل أثناءها إلى بعض الفروض لتحديد زمن الخروج، وما حدث في شبه جزيرة سيناء في سنوات التيه، وأثر ذلك على تطور المفاهيم الدينية لبني إسرائيل.

وقد لاحظ «فرويد» أن قصة إلقاء «موسى» في اليمِّ، قصةٌ متواترة في مأثورات الحضارات القديمة بالمنطقة، وفي أساطير الرافدين وبلاد اليونان القديمة وغيرها، حول أبطال الأساطير، ومن هنا رصد لنا أهم العلامات البارزة التي تشكل العناصر الأساسية، لقصة إلقاء البطل الأسطوري في اليم، أو استبعاده عن بيت أبيه وأهله بأي أسلوبٍ آخر، ليربَّى بين قومٍ غرباء، ليلفت نظرنا إلى أن الأسطورة التقليدية تقول بعدة عناصر، أولها استبعاد البطل وهو طفل عن أسرته أو وطنه، وثانيها إنقاذ البطل الطفل المستبعد، بواسطة الرعاة أو أناسٍ بسطاء عمومًا أو حتى حيوانات، فترضعه أنثى الحيوان المنقذ أو المرأة البسيطة، وحين يشبُّ عن الطوق يعثر على أهله بعد مغامرات عديدة، وعادة ما تقول الأسطورة النمطية بانتقام الشاب اليافع من أبيه الذي فرط فيه، وبعدها يحظى بالشهرة والمجد.

لكن المشكلة في قصة النبي «موسى»، هو أنها تختلف عن الأسطورة النمطية، إلى حد السير بعكس الاتجاه التقليدي للأسطورة النمطية المعلومة، «فالأسرة التي تتخلص منه وضيعة جدًّا وليست أسرةً نبيلة»، فموسى سليل لاويين ضمن بني إسرائيل المستعبَدين

[٣٨] أحمد سوسة: العرب واليهود ... سبق ذكره، ص٢٣٤، ٢٩٨.

بمصر، «وتنقذه أسرة من البيت الملكي» المصري، وتقوم الأميرة على رعايته، وهو عكس للأسطورة التقليدية، التي تقول بإنقاذ الطفل المستبعد، من بيتٍ نبيل على أيدي أسرةٍ وضيعة، ليشبَّ في البراري أو الغابات، وقد كان اختلاف أسطورة موسى عن الأسطورة النمطية التقليدية، مثيرًا دائمًا لدهشة الباحثين في الميثولوجيا، والمفترض في تفسير الأسطورة النمطية، أن تكون الأسرة النبيلة التي ولد بها الطفل هي الواقعية، والأسرة الوضيعة هي الوهمية، التي اصطنعتها الأسطورة، لتجعل نجاة البطل ميلادًا غير عادي أو مألوف، ليكتسب البطولة أو الملوكية أو القدسية، أي إن الأسطورة النمطية تحوي أسرتين: الحقيقية فيها هي الأسرة النبيلة أو الملكية، أما الأسرة الوضيعة فهي الأسرة الخيالية المتوهَّمة. لكن حتى هنا نجد قصة «موسى» تقلب الوضع، فتقول إنه ولد بأسرةٍ وضيعة، ونما ونشأ في أسرةٍ نبيلة؛ لذلك وحسب قواعد الأسطورة النمطية، لم يجد «فرويد» مفرًّا من احتساب «الأسرة التي تخلَّصت من الطفل «الأسرة الإسرائيلية»، هي الأسرة الوهمية، بينما كانت الأسرة الحقيقية هي التي ربَّته في البيت الملكي، ومن ثم لا بد أن يكون «موسى» مصريًّا بالفعل، جنسًا ونشأةً وتربية وثقافة»، من أصلٍ مصريٍّ نبيل، لكن حتى تحقق الأسطورة التوراتية أغراضها التي صيغت من أجلها، تجعل هذا المصري يهوديًّا.[٣٩]

وقد لاحظ «فرويد» أدلةً هامة على صدق نظريته في مصرية «موسى»، حيث قال: إن هذا المصري الذي وهب اليهود دينهم الجديد، قد أرسى بينهم عادة الختان، والمعلوم أنها عادةٌ مصريةٌ صميمة، كان أول من ابتدعها في الشرق هم المصريون،[٤٠] وكان الشعب المصري فريدًا بين الشعوب. أما الأكثر فهو أن الديانة اليهودية، كانت تجهل العالم الآخر والحياة بعد الموت، بالرغم من التلازم بين عقيدة التوحيد وعقيدة العالم الآخر الخالد، وهو الأمر الذي قاد «فرويد» إلى أن ذلك النفي للبعث في ديانةٍ توحيدية، يجب أن تأخذ بالعقيدة الأخروية، يعطينا إشارات لكشف الأمر، فالمصريون يؤمنون طوال تاريخهم تمامًا بالعقيدة الأخروية، ولكن يوجد زمنٌ قصيرٌ جدًّا ومحدد في مصر، نفى الآخرة ورفض الاعتقاد بالعالم الآخر، ويجب أن يكون هو زمن الخروج حيث ترك تأثيره بنفي الآخرة عند الإسرائيليين الخارجين، وهو ما يحدد لنا زمن الخروج، ونحن نعلم

[٣٩] سيجموند فرويد: موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الكشاف، بيروت، ط٤، ١٩٨٢م، ص١٢–١٧.

[٤٠] نفسه: ص٣٥.

«أن الفرعون الذي نفى الآخرة من عقيدته، ولا يوجد غيره فعل ذلك، هو «آمنحتب الرابع/إخناتون» (١٣٦٧–١٣٥٠ق.م.)» الذي دعا لعبادة إلهٍ واحد هو «آتون»، وألغى كل العبادات الأخرى، وأغلق بالقهر معابد الآلهة المتعددة، وفي نضاله ضد الخرافات الوثنية، كان لا بد أن يصطدم بأعمق العقائد في نفوس المصريين، التي يمثلها الإله «أوزيريس/أوزير»، إله الموتى والعالم الآخر وقاضي الحساب أمام الموازين، وفي سبيل التوحيد «ضحَّى «إخناتون» بأوزير وبعالمه الآخر»، ورفض فكرة البعث من بعد الموت برمَّتها، حتى لا تستدعي إلهًا يشارك «آتون» وحدانيته، وهي أعز الفكر للمصري القديم، والتي كانت وراء الغليان بالثورة ضد الفرعون فيما بعدُ، تحت قيادة كهنة آمون رع.

ويبقى لغز المفارقة بين أسطورة استبعاد موسى طفلًا، وبين استبعاد الطفل البطل في الأسطورة النمطية، وهو الأمر الذي وجد «فرويد» حلَّه في وضع «موسى» زمن «إخناتون»، وأنه كان بينهما صلة من نوعٍ ما، حيث «ربما كان موسى أحد أعضاء الأسرة الملكية الحاكمة في تل العمارنة» مدينة إخناتون، وربما كان عظيم الطموح قوي التصميم، وبحكم مركزه السيادي كفرد في العائلة المالكة، فقد كان يحلم بقيادة تلك الإمبراطورية المصرية الواسعة، التي تسيطر على معظم الشرق الأوسط القديم ذات يومٍ آتٍ، ومن ثم قام يؤيد الديانة التي دعا إليها سيده الملك بشدة، واعتنقها بتفانٍ، لكن بموت إخناتون وارتداد مصر إلى آلهتها التقليدية، كان على ذلك النبيل الملكي «موسى»، أن يتنازل عن أحد أمرَين عزيزَين عليه: فإما أن يتنازل عن عقيدته، ليأمن شر كهنة آمون ويعيش أميرًا في القصر بعد الارتداد، وبذلك لن يحقق شيئًا بسبب تاريخه وعلاقته بالفرعون إخناتون، والتي لا شك ستكون لعنةً دائمة تجعله يعيش في القصر — إن عاش فيه — مراقبًا منبوذًا، وإما أن يرفض مصر المرتدة عن عقيدة التوحيد، ويتمسَّك هو بهذه العقيدة وبحلمه القيادي معها، ومن ثم يرى فرويد أن الأمير المصري موسى ذا الأصل الملكي اتخذ قراره التاريخي، فأضاع وطنه وتمسك بآماله وطموحاته، بالتخطيط لتأسيس إمبراطوريةٍ جديدة، يعطيها ديانة آتون التي رفضتها مصر، كان يريد أن يقف ببطولةٍ نادرة في وجه القدر، باحثًا عن تعويض عما أصابه بانهيار ديانة التوحيد الإخناتونية في مصر.

وربما كان «موسى» آنذاك حاكمًا أميريًّا للإقليم الحدودي، الذي ذكرته التوراة باسم «جاسان»، كمسكن لبني إسرائيل وقت سقوط إخناتون، حيث استقرت بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، وهناك قرَّر موسى اختيار شعبه الذي سيعطيه عقيدته وطموحاته، لقد اختار أولئك العبيد.

وهكذا قاد الأمير المصري «موسى»، عبيد جاسان الساميين خارجًا بهم من مصر، في فترة خلو العرش بعد موت «إخناتون»، حيث لم تكن هناك سلطةٌ مركزية لتضع العصا بين عجلاته، وهو ما يعني رفض «فرويد» لقصة مطاردة المصريين للخارجين، التي ذكرتها التوراة؛ لذلك لا بد أن يكون الخروج قد حدث بين عامَي ١٣٥٨ و١٣٥٠ق.م. في الفترة الواقعة بين نهاية «إخناتون» وبين اعتلاء «حور محب» العرش وتوطيده سلطان الدولة، وهو زمن حكم الملك الصبي سمنكارع، ثم الصبي توت عنخ آمون، ثم آي بقية أسرة العمارنة الضعيفة، ولم يكن أمام هؤلاء الخارجين هدفٌ ممكن سوى فلسطين، حيث العشائر السامية، التي تمت بصلات قرابةٍ جنسية للبدو الخارجين من مصر.[٤١]

أما أبلغ دليل على مصرية «موسى»، فهو إشارة التوراة لثقل لسانه؛ مما اضطره للاستعانة بهارون، «الذي تزعم الأسطورة التوراتية أنه كان أخاه»، وهو ما يعني أن «موسى» كان يتكلم لغة غير أولئك البدو الساميين، الذين كانوا يقطنون «جاسان» تحت إمرته كحاكمٍ إقليمي، ومن ثم كان اتصاله بهم بحاجةٍ إلى مترجم، وهو ما يعني «أن «موسى» كان مصريًّا، لا يعرف لغة هؤلاء العبيد، الذين كانوا يتكلَّمون العبرية».

وكان «فرويد» يعلم الخلاف الخطر في أطروحته، بين «موسى» الذي يقدمه لنا كمصريٍّ مهيب، يهب بدو «جاسان» ديانةً صارمةً قوية، تحرم تمامًا جميع طقوس السحر والشعوذة، وبين «موسى» التوراتي، الذي يجعل من تمثال الثعبان إلهًا للشفاء، لكنه ذاته هو التفسير للتناقض بين الإله «آتون» السمح الراقي الرءوف، وبين «يهوه» إله التوراة الذي يسكن جبلًا كالشياطين، قاسيًا، ناريًّا، لا يرحم،[٤٢] ومن ثم يجب علينا أن «نفترض مرحلةً كان فيها المصري «موسى» بكل جلاله، مستمرًّا حتى اختفى بالموت في سيناء، ثم تستأنف التوراة قصتها بموسى آخرَ وهمي، يمدُّ حياة «موسى» المصري الأصلي، وتنسب إليه كل الخرافات التوراتية، وقسوة البدو وربهم الشيطاني».

وقد استند «فرويد» في ذلك إلى استنتاجات «سيلين» في كتابه «موسى وأهميته في تاريخ بني إسرائيل اليهودي»، وأهمها أن سفر «يشوع» يُنبئ عن نهايةٍ مفجعة لموسى، أثناء تمرد قام به الشعب البدوي العنيد المشاكس، وأن الدين الذي أسسه تم هجره والنكوص عنه فورًا،[٤٣] (وهو الأمر الذي حدث لإخناتون من قبلُ)، ومن ثم يتمسك

---

[٤١] نفسه: ص٣٥، ٣٩.

[٤٢] نفسه: ص٤٨.

[٤٣] نفسه: ص٤٩.

«فرويد» بكشف «سيلين»: «أن ديانة «موسى» المصري الهادئ الدافئة، قد تم هجرها بعد اغتياله»، ثم انضم الخارجون من مصر، إلى قبائلَ أخرى نسيبة في قادش بسيناء، «حيث اعتنق الخارجون ديانة أقاربهم القوادش؛ ديانة يهوه»، وهناك تم الانصهار والامتزاج بين الشعبين، الذي أنتج شعب إسرائيل، ويرى أن ذلك قد تم بتأثير أنسباء «موسى»، المديانيين القاطنين في تلك المنطقة، وبعد فترة امتدت أربعين عامًا، عندما استشعروا بأنفسهم قوةً كافية، شرعوا في غزو فلسطين.

وهذا إنما يعني «أن «موسى» الحقيقي الخارج من مصر، سليل الملوكية والنبالة، لم يسمع قط باسم «يهوه» ولم يصل قادش، بل قتل قبل ذلك التحول»، أما «موسى» الثاني الخيالي الذي يعبد «يهوه»، ويجهل كل شيء عن «آتون»، فهو الاختراع التوراتي الذي التبس بعقائد «مديان»، ونسب لشخص «موسى»، الذي تمت نسبته لبني إسرائيل، «وهنا تظهر الأسرة الوهمية الخيالية في الأسطورة لأول مرة، أما في الأصل فلم تكن هناك أبدًا أسرةٌ إسرائيلية، نبت فيها موسى» كما تقول الأسطورة.

لكن ذلك الخلاف الأصلي بين عنصرَين متحدَين، أحدهما عاش في مصر، وتأثر بها، والثاني كان في بداوةٍ واضحة، أدى إلى انفصال العنصرين، عندما انقسمت مملكة سليمان بموته إلى مملكتَين: إسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب. ولأن الجنوب هو الملاصق لمصر، فإن فرويد يقول: «نؤكد أن من بقي مقيمًا في البلاد (الفلسطينية) كان موجودًا في الشمال، وأن من رجع من مصر استقرَّ في الجنوب.»[٤٤]

أي إن هناك أسباطًا لم يدخلوا مصر إطلاقًا، كانوا يسكنون شمالي فلسطين، وظلوا هناك طوال تلك الأحداث، وأسباطًا دخلوا مصر وخرجوا منها، وهم الذين عاشوا جنوبي فلسطين، وزمن الملك سليمان تم توحيد أسباط الجنوب وأسباط الشمال في مملكةٍ واحدة، أطلقت عليها التوراة «كل إسرائيل»، لكنهم ما لبثوا بموت سليمان أن انقسموا مرةً أخرى، عندما عاد الشمال لينشق عن الجنوب، في مملكةٍ عرفت باسم مملكة إسرائيل، بينما حمل الجنوب اسم مملكة يهوذا.

ولأن شخصًا مثل ذلك النبيل المصري، كان لا بد أن ترافقه حاشية، فقد رأى «فرويد» أن تلك الحاشية كانت مصرية، والتي لا شك كان أفرادها أشد المخلصين لديانة «آتون»، وهي من شكلَّت بعد ذلك من عرَّفتهم التوراة باسم «اللاويين»، الذين جعلهم «موسى»

[٤٤] نفسه: ص٥٠.

المصري الحقيقي كهنة ديانته، واستمروا في عملهم بعد مقتله؛ لذلك «فإن اللاويين لم يكونوا من بني إسرائيل، بل كانوا حاشيةً مصرية لمصريٍّ عظيم»، وبمرور الزمن لن نجد أسماءً مصرية في التوراة، إلا بين اللاويين، وقد ظل هؤلاء على وفائهم لذكرى قائدهم، وحافظوا على ميراثه، ولكنهم مع الاندماج في البدو الآخرين بالتمازج الذي حدث، كانوا أقلية، لكنها أقلية فاعلة؛ لأنهم كانوا الأكثر علمًا وتحضُّرًا، «وقد صمم هؤلاء المصريون على التمسك بمصر، فظلوا يركزون على قصة الخروج من مصر، للتذكير بالأصل المصري، كما ظلوا يتمسكون بشخص «موسى» المصري الحقيقي، وبعادة الختان المصرية»، بينما على الجانب الآخر، كان الباقون يخترعون «موسى»، الوهمي السيناوي المديانى القادشي، لكنهم لم يتمكنوا من التخلي عن عادة الختان، لكن حتى ينزعوا عنها أصلها المصري، قاموا ينسبونها للآباء الأوائل من زمن البطرك إبراهيم، فجعلوه يختتن في التسعين من عمره! في علامةٍ ميلودراميةٍ رمزية، على تأخر دخول الختان إلى بني إسرائيل.

وهناك علامات يسوقها «فرويد»، تشير إلى تلك الأحداث الافتراضية، «فالكتاب المقدس يميل باستمرار لنفي أن «يهوه» كان إلهًا أجنبيًّا»، وهو أمرٌ غريب، فهل كان ثمة شك في ذلك؟ إن «يهوه» يدوِّن بيد أنبيائه مزاعمه بالتوراة، ويؤكد أنه كان إله البطاركة القدامى «إبراهيم» و«إسحاق» و«يعقوب»، رغم المعلوم أنهم كانوا يعبدون إلهًا ساميًّا كنعانيًّا باسم «إيل».

ثم علامةٌ أخرى تتمثل في أمرٍ عجيب إلى حدٍّ بعيد، فالشعوب جميعًا تختار آلهتها، «لكن إله التوراة هو الوحيد الذي يختار شعبًا بعينه ليتألَّه عليه». إن تلك الواقعة الفريدة في التاريخ الديني، تشير إلى ما حدث، فموسى قد اختار هؤلاء ومنحهم ديانته، وجعلهم بذلك شعبه، وهو ما يفسر الاصطلاح المتواتر «الشعب المختار»؟

مع علاماتٍ أخرى تشير إلى ما حدث، «فقصة ردة الشعب وعبادته العجل الذهبي، توضح خلافًا حادًّا، أدى إلى قتل «موسى»، وارتداد الشعب عن ديانة «آتون»، كما نجد في حادثة تحطيم «موسى» لألواح الشريعة، رمزًا آخر لنهاية ديانته»، وليس كما فسرتها التوراة بسذاجةٍ شديدة، فقالت: إن «موسى» كسر الألواح نتيجة لغضبه، وهي المكتوبة بيد الله نفسه، ظل يكتب فيها أربعين يومًا على الحجرَين! (خروج، ٣٢).[٤٥]

[٤٥] نفسه: ص٥٠، ٦٥.

وجاء وقت ندم فيه أولئك الهمج على قتل قائدهم، وسعوا إلى نسيان جريمتهم، ولا شك أن ذلك تم أثناء اجتماع «قادش»، الذي عقد بين كافة الأطراف، ولا جدال أنه تم حوالي عام ١٢١٥ق.م. حسبما يرى فرويد،[٤٦] وفي تسوية «قادش» تحزب اللاويون لسيدهم القتيل، وفي العصور التالية انصهر اللاويون المصريون في الشعب؛ ولأنهم الكهنة، فقد حافظوا على المدوَّن القديم المقدس، ونقَّحوه في الاتجاه المناسب بمرور الزمن، على أيدي مجموعة أنبياء، عادوا للتبشير بالموسوية المصرية التوحيدية القديمة.[٤٧]

ويفترض «فرويد» أن «موسى» الأمير المصري زمن «إخناتون»، كان يحمل اسمًا من الأسماء المركبة، وتحمل في شقها الثاني اللفظ «موسى»، وليكن افتراضًا «تحوت موسى = تحتمس»، لكنه كان بعكس قريبة الملك إخناتون — العكوف الخيال — رجلًا ذا عزم، ولعل عزمه هذا هو الذي جعله يفرض شرائع أشد صرامة من إخناتون، وهو الأمر الذي لم يتحمله البدو الهمج؛ مما أدى إلى ثورتهم عليه بعد ذلك وقتلوه في سيناء،[٤٨] ثم انصهروا بعد ذلك في قبائلَ أخرى نسيبة، كانت تقطن سيناء، وفي قادش اعتنقوا — بتأثير المديانيين — ديانة إله البراكين السينائي «يهوه»،[٤٩] وإن كان «فرويد» يبدي شكًّا شديدًا في أن يكون اسم «إسرائيل» خاصًّا بأيٍّ من تلك القبائل، بقدر ما كان اسمًا لشعبٍ من الشعوب، التي اندمجوا فيها بعد دخولهم إلى فلسطين، حيث كان يعبد هناك كبير الأرباب السامي «إيل»، الذي ينسب إليه اسم إسرائيل.[٥٠]

والمسألة السيكولوجية في كل تلك الأحداث الافتراضية، التي قدمها «فرويد»، دون أن تستند إلى وقائعَ تاريخيةٍ مدروسة دراسةً ضافية، هي تلك التي يلخصها في عقدة «أوديب»، التي يقتل الابن فيها أباه، وهنا يقول: «نظرًا لأنه لم يعد هناك مجال ليحتل الحقد المميت على الأب، مكانه في إطار الدين الموسوي، فقد كان رد الفعل الجامح الوحيد، الذي يمكن أن يعلن عن نفسه، هو الشعور بالذنب، الذي ما وني الأنبياء يغذونه ويؤججون جذوته، والذي سرعان ما أمسى جزءًا لا يتجزأ من النظام الديني، كان له أيضًا

[٤٦] نفسه: ص٦٦، ٦٧.

[٤٧] نفسه: ص٧٠.

[٤٨] نفسه: ص٨٥–٨٦.

[٤٩] نفسه: ص٨٦–٨٧.

[٥٠] نفسه: ص٨٧.

دافعٌ سطحي؛ فقد مر الشعب بأوقاتٍ عصيبة، ولم تأخذ الآمال التي كان قد علقها على الله طريقها السريع إلى التنفيذ، وبات من الصعب على الشعب، أن يثابر على إيمانه بأنه الشعب المختار، وحتى لا يتخلى عن هذه السعادة، كان لا بد أن يأتي شعور بالذنب، ووعي بالخطيئة التي اقترفت، لتبرئة ساحة الإله في الوقت المناسب، وبالفعل إن الرب لم يعاقب الشعب، إلا لأنه انتهك حرمة شريعته.»[٥١] إن الشعب قد عوقب لأنه قتل أباه موسى وهجر ديانته؛ لذلك كانت العودة إلى المأثور المصري — مع الشعور بالذنب — بعد ذلك بقرون، هي مما صنع من عقيدة هذا الشعب فيما بعدُ نموذجًا للتوحيد.

والمشكلة الكبرى في نظرية «فرويد» هنا، أنها بالكامل مجرد فروض وتصورات، لم يحاول أن يعثر لها على أي سندٍ وثائقيٍّ حقيقي، أو يجمع لها من القرائن الموضوعية ما يدعمها، رغم أنها تتسم بروح القبول والاتساق، بحيث لا يصح استبعادها كلية، بل إننا نرى أنه لو أنهك «فرويد» نفسه، بالبحث في الجانب التاريخي، لقدَّم لنا دعمًا فريدًا لنظريته، لكنه كان لا بد سيقوم ببعض التعديلات فيها، وهو ما سنقوم به، وسيشغل جزءًا كبيرًا من بحثنا هذا.

(٤) نظريات الخروج زمن مرنبتاح بن رمسيس الثاني

تُعدُّ نظرية الخروج، التي تقول: إن اضطهاد الإسرائيليين في مصر، قد حدث زمن الفرعون عاشق المعمار «رعمسيس الثاني»، وإنه هو من استعبدهم في أعماله الإنشائية الواسعة، وإن الخروج قد حدث زمن ولده «مرنبتاح»؛ من أشهر النظريات القائمة اليوم، وأحوزها للثقة بين المصرولوجيين، كذلك بين علماء التوراتيات، وقد اتفقت معظم الآراء اليوم حولها، وسلم بها كبراؤهم أمثال: «ألبرايت» و«نافيل» و«بتري» و«سايس» و«بروجش» و«بيير مونتييه» إلخ، وهم الكبار الأعلام في علوم المصريات.

وفي تسليم «نافيل» يقول: «إني لا أزال مسلِّمًا بوجهة النظر التي أدلى بها ليبسيوس، عن موضوع خروج بني إسرائيل، وهي التي يقتفيها معظم الأثريين: أن مضطهد اليهود هو رعمسيس الثاني، الذي كان حكمه الطويل، بداية انحلال الإمبراطورية المصرية، وأن الفرعون الذي ينسب إليه خروج بني إسرائيل، هو مرنبتاح».[٥٢]

---

[٥١] نفسه: ص١٨٥.

[٥٢] Navil, Archelolgy of the old Testament, 1913, p. 93.

أما «سايس» فيقول: «إن الآثار المصرية تحصر هذه الحادثة، في حكم الفرعون مرنبتاح، بورقة أنستاسي السادسة، وتشمل خطابًا من كاتب الملك مرنبتاح جاء فيه:

> إن بعض بدو إيتام، قد سمح لهم على حسب التعليمات التي لديه، أن يجتازوا حصن إقليم سكوت، ليتاح لهم رعي ماشيتهم بالقرب من بلدة بتوم، في ضياع الفرعون العظيم.»[٥٣]

(يجدر هنا التنويه — بعد مراجعة ما قال سايس — أن الكلمة «إيتام» في تلك الترجمة، هي في الأصل النصي آدوم، وأن الكلمة «بدو» هي في النص الأصلي شاسو، فهي في الأصل: «إن بعض شاسو آدوم».)

ولما كان هذا الخطاب مؤرَّخًا بالسنة الثامنة من حكم «مرنبتاح»، فإن الأمر يعني أن هؤلاء البدو كانوا خارج حدود مصر حينذاك، و«سايس» يراهم هم عين الإسرائيليين، ومن ثم يفترض أنهم خرجوا من مصر قبل التاريخ، وعادوا يتطفَّلون القوت مرة أخرى،[٥٤] أما «أولبرايت» فيجزم بحدوث الخروج زمن «رعمسيس الثاني» نفسه، فيقول: إن لوح «مرنبتاح» المسمى بلوح إسرائيل، مؤرَّخ بعام ١٢٢٩ق.م. ويقول فيه مرنبتاح إنه ضرب إسرائيل، فيعني ذلك أنهم خرجوا قبل تدوين اللوح، ومن ثم يحدد لخروج الإسرائيليين من مصر عام ١٢٩٠ق.م. وأنهم احتلوا فلسطين عام ١٢٦٠ق.م.

وهكذا، يظل لوح «مرنبتاح» فيصلًا وقاسمًا مشتركًا بين المصرولوجيين، في تحديد زمن خروج الإسرائيليين من مصر، ويميل أغلبهم إلى أن الحدث قد وقع في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولما كان «رعمسيس الثاني» فرعونًا قويًّا مقتدرًا، بلغت مصر في زمنه شأوًا بعيدًا في قوَّتها، فإن مسألة الخروج في زمانه لا بد سيشوبها شكٌّ كبير، خاصةً مع إفادة الكتاب المقدس التي ربطت بمصر، والتي تقول:

«وحدث في تلك الأيام أن ملك مصر مات» (خروج، ٣)، ومن ثم كان الاستنتاج أن «موسى» عاد إلى مصر من مهربه المديانى، بعد موت «رعمسيس الثاني»، الذي يجب أن يكون في تلك الحال هو فرعون الاضطهاد، ولما كانت مصر قد تعرَّضت في عهد ولده «مرنبتاح»، لعدة هجماتٍ متتابعة، جاءت متزامنة، فهاجمها الليبيون (التحنو) من

---

[٥٣] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٧، ص١٠٩.

[٥٤] الموضع نفسه.

الغرب، وهاجمتها شعوب البحر من الشمال والشرق، فإن انتصارات مرنبتاح استنزفت قوى مصر، لم تستطع معه استعادة عافيتها، إلا بعد ذلك بزمان، وأثناء فترة الضعف تلك تحديدًا، استغل بنو إسرائيل الفرصة، وانتزعوا حريتهم من العبودية، وهربوا خارج البلاد.

الفصل الثالث

جغرافية الخروج

(١) رأي «دي بوا-إيميه»

حتى الزمن الذي أخرج فيه «دي بوا إيميه» نظريته، ضمن كتاب «وصف مصر»، كانت نظرية «يوسفيوس» ومعاصريه، هي النظرية السائدة في الأوساط العلمية والكهنوتية، وهي النظرية التي تقول: إن الإسرائيليين هم ذات عين الهكسوس، ومن ثم قام «دي بوا إيميه» بتفسير بعض الغوامض، وإضافة بعض المسائل الجوهرية، حيث اعتبر «الهكسوس والإسرائيليين فصيلَين مختلفَين، وإن كانا من أصلٍ عرقيٍّ واحد، وربما تجمعهما ثقافةٌ مشتركة، لكن الإسرائيليين وصلوا مصر متأخرين عن الهكسوس، حيث لحقوا بهم، وعاشوا في كنفهم.»

وبدايةً وقف «دي بوا إيميه» مع الإشارات المذكورة لدى المؤرخين، عن إصابة الإسرائيليين — في مصر — بوباء مرضٍ جلدي تفشى بينهم، وأن ذلك المرض كان سبب طردهم من مصر، منعًا لانتشاره بين المصريين، ليقول إن انتشار وباء البرص أو الجذام، كان عادةً ما ينتشر بين البدو، لجهلهم بمبادئ النظافة والتطهر مع ندرة الماء، وطول عشرتهم للحيوان، مع جهلهم بفروض النظافة، التي جعلتها الديانة المصرية، واحدة من طقوس الإيمان الملزم للعبادة، ومن ثم أطلق المصريون على مرض البرص «مرض الرعاة»، كما أطلقوا على الرعاة أنفسهم لقب «الأنجاس»، وكانوا يشيرون لغزاة بلادهم من الهكسوس بلقب المجذومين والأنجاس.

وقد «لحظنا من جانبنا» في روايات التوراة، نصوصًا وحكايات تشير لانتشار مرضٍ جلدي بالفعل بين الإسرائيليين، والمدقق في تلك الروايات سيجد مبررًا قويًّا لانتشار تلك

الفكرة في كتب المؤرخين القدامى، وأول تلك الإشارات توضح لنا مدى تقزُّز المصريين من ذلك الجنس ونفورهم الشديد منه، وهو ما نجده في قصة «يوسف» عندما جاءه إخوته إلى مصر، يمتارون الحنطة زمن المجاعة، فقام بإعداد وليمة ضيافة لهم، ويشرح النص ذلك الموقف بقوله:

> وقال: قدِّموا طعامًا، فقدَّموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين «لأنه رجس عند المصريين». (تكوين، ٤٣: ٣١-٣٢)

وعندما عاد إخوة يوسف إلى مصر مع أبيهم، ليستقروا فيها مع يوسف، نبههم يوسف إلى أمرٍ هام، يجب أن يضعوه باعتبارهم، وذلك في قوله لهم:

> فيكون إذا دعاكم فرعون وقال: ما صناعتكم؟ أن تقولوا: عبيدك «أهل مواشٍ»، منذ صبانا وإلى الآن، نحن وآباؤنا جميعًا، لكي تسكنوا في أرض «جاسان»؛ لأن كل راعي غنم «رجس» للمصريين. (تكوين، ٤٦: ٣٣- ٣٤)

ومع المزيد من التدقيق، يمكنك أن تجد إشاراتٍ واضحة، في مناطقَ متقطعة من التوراة، تشير إلى وباء المرض الجلدي، البرص المصحوب بالقرح وبياض الجلد، ولمعانه وظهور نتوءات فيه وبثور، وهو ما تظهره التوراة بداية، كما لو كان معجزةً خاصة بموسى في النص.

> ثم قال له الرب أيضًا: أدخل يدك في عبك، فأدخل يده في عبِّه ثم أخرجها، وإذا يده «برصاء» مثل الثلج. (خروج، ٤: ٦)

وأحيانًا كان يظهر الوباء، كما لو كان عقابًا من رب إسرائيل، على آثامٍ بعينها، وهو ما نجده في رواية تقول:

> وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها؛ لأنه كان قد اتخذ امرأةً كوشية ... فحمي غضب الرب عليها ومضى، فلما ارتفعت السحابة على الخيمة، «إذا مريم برصاء كالثلج» فالتفت هارون إلى مريم، وإذا هي برصاء. (عدد، ١٢: ١، ٩، ١٠)

بينما هناك نصوصٌ أخرى، تحدثنا عن الأمر كوباء، متفشٍّ بين الإسرائيليين، فبعد ابتلاع الأرض لقورح (قارون إسلاميًّا) وجماعته، تقول التوراة:

> فتذمر كل جماعة بني إسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين: أنتما قتلتما شعب الرب ... فكلم الرب موسى قائلًا: اطلعا من وسط هذه الجماعة، فإني أفنيهم بلحظة، فخرَّا على وجهيهما، ثم قال موسى لهارون: خذ المجمرة واجعل فيها نارًا على المذبح، وضع بخورًا، واذهب بها مسرعًا إلى الجماعة، وكفر بها عنهم؛ لأن السخط قد خرج من قبل الرب، «قد ابتدأ الوباء»؛ فأخذ هارون كما قال موسى، وركض إلى وسط الجماعة، «وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب»، فوضع البخور وكفر عن الشعب، ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء، «فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفًا وسبعمائة». (عدد، ١٦: ٤١–٤٩)

وهناك نصٌّ آخر يحدثنا عن حرب بين الإسرائيليين، وبين أنسبائهم المديانيين، وخالف فيها الإسرائيليون تعاليم الحرب، التي تأمر بالإبادة التامة والشاملة للعدو، حتى الحيوان والنبات والأطفال والنساء، باصطلاح «حرم» أي «إبادة تامة»، ولما خالف بنو إسرائيل ذلك، واهتموا بسبي الغنائم بدلًا من حرمها، غضب عليهم الرب وضربهم بالوباء مرةً أخرى، وهو ما يقول نصه:

> وكلم الرب موسى قائلًا: «انتقم نقمةً لبني إسرائيل من المديانيين ... فتجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر ... وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم، وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار؛ فسخط موسى على وكلاء الجيش، وقال موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية؟ ... خيانة للرب ... فكان الوباء في جماعة الرب، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة». (عدد، ٣١: ١، ٧، ٩، ١٠، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧)

أما تهديدات الرب لشعبه باستمرار، لردعه عن العصيان، فكانت:

- يلصق بك الرب «الوباء» حتى يبيدك (تثنية، ٢٨: ٢١).
- يضربك الرب «بقرحة مصر، وبالبواسير، والجرب والحكة، حتى لا تستطيع الشفاء» (تثنية، ٢٨: ٣٧).

- يضربك الرب «بقرحٍ خبيث» على الركبتين وعلى الساقين، حتى لا تستطيع الشفاء، من أسفل قدميك إلى قمة رأسك. (تثنية، ٢٨: ٣٥)

وفي مواضعَ أخرى نجد الوباء الجلدي إصابةً جماعية، لا علاقة لها بغضب يهوه أو رضاه، فيغصُّ سفر اللاويين بدءًا من الإصحاح الثالث عشر، بالتعليمات التي يجب اتباعها مع المصابين بأمراض الجلد، والتي تصنف ضمن الجذام أو البرص، ومن أمثلتها فقط وليس حصرًا:

> إذا كان إنسان في جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة، تصير في جلد جسده ضربة «برص» ... في الضربة شعر قد ابيضَّ، ومنظر الضربة أعمق من جلد جسده، فهي ضربة برص، فمتى رآه الكاهن يحكم بنجاسته ... إنها برص. (لاويين، ١٣: ٢، ٨، ٣)

ويظل السفر يحدد الأعراض وأساليب عزل المرضى، ومعاملة البيوت والخيام المنكوبة، بعرضٍ وافٍ تفصيلي يثير التقزز، حتى نهاية الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين، بطول ثلاثة إصحاحات كاملة، رغم وعد الرب لشعبه إن آمن به وخرج مع موسى من مصر وأطاعه، وعدًا يظهر في قول الرب: «وأزيل «المرض» من بينكم» (خروج، ٢٣: ٢٥).

ومثل هذا السرد الطويل، يبرر قول «آبيون» النحوي السكندري، إنهم «طردوا من مصر طردًا، ولم يهربوا، ولم تطاردهم جيوش مصر، وذلك خشية تفشي الوباء» في البلاد، وهو ما وجدناه في التوراة، يصادق على قول آبيون تصديقًا، واضحًا لا الْتباس فيه، إذ يقول: «فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون، فإنه بيدٍ قوية يطلقهم، وبيدٍ قوية يطردهم من أرضه» (خروج، ٦: ١).

ونعود إلى «دي بوا إيميه»

يستند «دي بوا إيميه» إلى الروايات المنقولة عن «مانيتو» فيقول: إنه بعد غزو الهكسوس لمصر، واحتلالهم لمنف، لاذ ملوك مصر الشرعيون بصعيد مصر، وكوَّنوا هناك دولةً مستقلة، ثم قام أحدهم وهو ما ينقل اسمه عن القدماء في صيغة «أليسفرا جموتوفيس»، بتجريد جيوشه على منف بمساعدة الإثيوبيين والمصريين الثائرين، وأحرز انتصاراتٍ هائلة على الهكسوس العرب؟! واضطرهم إلى التقهقر شمالًا حتى تحصنوا في مدينة حواريس.

ونظن من جانبنا أن «أليسفرا جمو توفيس»، هذا ليس سوى «كامس»، من «جامس» أو «جوميس»، وهو المعروف في المدوَّنات كأول ملك مظفر حارب الهكسوس، وسجل عليهم انتصارات، ويؤيد ذلك أن الرواية التي بين أيدينا هنا، تقول إن أخاه هو الفرعون الذي ذكره يوسفيوس باسم تثموزيس، والذي ذكره يوسابيوس ويوليوس الأفريقي باسم «أحمس»، حيث كشفت علوم المصريات بعد ذلك، أن أحمس كان ابنًا لكامس هذا مع الإشارة إلى كونه الفرعون الذي حاصر حواريس، ولما طال الحصار وافق على خروجهم مع أملاكهم إلى بلاد الشام، ولما خرج هؤلاء من مصر، تحاشوا عبور بادية الشام خشية بأس الآشوريين، فدخلوا فلسطين من جنوبها، واستقرُّوا في جبال اليهودية «يهوذا»، حيث أسسوا هناك مدينة أورشليم، وهو خط سير يخالف بالمرة خط السير الذي رصدته التوراة للخروج الإسرائيلي من مصر إلى سيناء إلى شرقي الأردن، ثم العبور إلى أريحا من الشرق إلى الغرب، عبر نهر الأردن.

«ويتابع دي بوا إيميه رسم السيناريو الذي ارتآه، فيتابع القول إن الإسرائيليين قد واصلوا البقاء في مصر، وجرت عليهم أقدار المهزومين»، وانسحبت عليهم كراهية المصريين للرعاة المحتلين، وأخذ المصريون يشيرون إليهم بالأنجاس والمجذومين، لكنهم عاشوا في مصر، يتمتعون على تخومها الشرقية بقدرٍ من الحرية، حتى عصر الملك «آمنحتب»، دون تحديد ترتيبه بين الملوك المناتحة، وهو والد الملك الشهير «سيزوستريس»، ودفع كهان مصر ملكهم «آمنحتب» إلى التقرب للآلهة باضطهاد الرعاة، فجمعهم ودفع بهم إلى الأعمال المعمارية الشاقَّة.

وبعد فترة دفعت بعض المخاوف الأسطورية والمتطيرة الملك «آمنحتب»، ليسمح لهؤلاء المستعبدين بالانسحاب إلى أرض جاسان، وهناك اختاروا لهم رئيسًا مصريًّا «كان من كهنة هليوبوليس يدعى «أوزرسيف»، وكان قد نُفي معهم مع عددٍ من الكهنة المصريين ومصريين آخرين، بسبب معتقداتهم الدينية، المخالفة لعقائد البلاد، كما تبعهم عددٌ آخر من المصريين الفارين من الاضطهاد» أو يخشون وقوع اضطهاداتٍ جديدة، لاعتناقهم ذات العقائد المخالفة، وقد أعطى «أوزرسيف» لهذه الألوف من المصريين المنشقِّين، وللرعاة الإسرائيليين «ديانةً خاصة، كانت بالضرورة خليطًا من ديانتَي الشعبين»، ثم أمرهم «أوزرسيف» بألا يتزوجوا إلا من داخل جماعتهم الجديدة، لكي يحول دون أي انحراف أو تصالح مع المصريين، كما أباح لأتباعه أكل الحيوانات التي كانت مقدسة عند المصريين، كما أمرهم بتدمير ما يستطيعون من آلهة مصر.

وكانت النتيجة حنقًا شديدًا من المصريين، والرد بقهرٍ أشد، كان لا بد معه أن يبحث هؤلاء لأنفسهم عن موطنٍ جديد، ويذهب «دي بوا إيميه» إلى أنه «في تلك الفترة» نشأت مستعمراتٌ جديدة في بلاد اليونان، وأن مؤسسيها كانوا فريقًا من هؤلاء الهاربين من مصر، وأن «موسى» قد ولد في عهد «آمنحتب» هذا، وأن أول الاضطهادات تمت في عهد هذا الفرعون.

وكان للخوف من فرعون، والرغبة في الانتقام «دافعًا لأوزرسيف ليطلب من هكسوس أورشليم العودة، ليزخفوا معًا لفتح مصر»، فاستجابوا له وحملوا على مصر، «ولم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبوه، كما يقول مانيتون، ولم يكتفوا بإحراق المدن والكفور وتحطيم صور الآلهة، إنما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهنة المصريين والعرافين أن يكونوا هم ذابحيها، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراةً كما ولدتهم أمهاتهم.»

وانسحب «آمنحتب» إلى ما وراء الشلالات جنوبًا، وثبت هناك مدعومًا من الإثيوبيين، لمدة ثلاثة عشر عامًا يناوئ الرعاة، وفي النهاية تمكن من الهجوم وهزيمة «أوزرسيف»، ومطاردته مع رجاله حتى سوريا.

ولا جدال عند «دي بوا إيميه» أن «أوزرسيف» هذا هو ذاته «موسى»، لكنه يفترض أن جبال اليهودية بفلسطين، كان قد تم احتلالها من قبائلَ أخرى، أثناء تواجد الجميع في حملتهم على مصر، وذلك لتفسير الحروب التي خاضها الإسرائيليون الخارجون من مصر، ضد هذه القبائل لدخول فلسطين.

لكن مرةً أخرى يقع عددٌ كبير من الرعاة في الأسر المصري، بعد أن هزمهم «آمنحتب»، لتفرض عليهم أقسى درجات العبودية، وكان أكثرهم من القبائل الإسرائيلية، وقد ظلوا كذلك حتى عهد الفرعون الشهير «سيزوستريس»، ومن جانبنا (المؤلف) نوضح أن اسم «سيزوستريس» كعلم على فرعونٍ مصريٍّ مشهور، نجهل أول من أطلقه من اليونانيين على فرعونٍ مصري، إعجابًا بشخصه وبأعماله وبزمانه، لكن اليونانيين من بعده، أكدوا أن المقصود بهذا الاسم فرعونٌ قويٌّ حاز شهرةً عظيمة، لجئوا إلى بلاده، وعملوا مرتزقة في جيشه؛ لثراء مصر في زمانه. ويميل الباحثون اليوم إلى احتسابه الفرعون «رعمسيس الثاني»، أعظم فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، وصاحب أعظم وأكثف الأعمال الإنشائية، وصاحب بطولاتٍ عسكريةٍ كبرى، حدثت إبان صراعه مع دول الشرق القديم، ويذهب الباحثون إلى أن لقب «سيزوستريس» ربما كان ناتجًا عن أحد الألقاب الكثيرة

لرعمسيس الثاني، ومنها «مرى آمن أوسر ماعة رع»، و«سنب أن رع» و«ميامو رع ميسو»، الذي ميزه عن بقية الرعامسة، فقيل عنه «رعمسيس ميامون»، و«سيزو أزيس»، ثم هناك لقبٌ آخر هو «سماره تبن رع»، ومعناه القوي الذي اختاره «رع»،[1] ومن هذا اللقب أطلق على مدينته المشهورة بشمال الدلتا اسم مدينة «سمارة»، إضافة إلى الاسم «بي رعمسه» أو «رعمسيس»، ومن ألقابه الأخرى «سيسي رع»؛ لذلك أطلق على ذات المدينة اسم «سمارة سيسي»، أي القوية التي لرعمسيس.

وقد اهتم «هيرودوت» في تاريخه بالفرعون سيزوستريس المظنون عند المؤرخين المحدثين أنه رعمسيس الثاني، وركز على الأعمدة التي كان يقيمها تسجيلًا لانتصاراته في البلاد المفتوحة، وكان ينقش عليها اسمه ووطنه وكيف أخضع ذلك المكان لسطوته، وهي الأعمدة التي يسميها المصرولوجيون: أنصاب النصر، وأحجار الحدود، لتبين إلى أي مدًى وصلت حدود الملك.

ويشير «هيرودوت» إلى أن فتوحاته وصلت أقصى جنوب البحر الإريتري (الأحمر) جنوبًا، ثم يعقب بالقول: «ومع أن أغلب الأعمدة التي أقامها ملك مصر سيزوستريس في الأقطار اختفت، ولم يبقَ منها شيء بعدُ، إلا أني لحظت بنفسي أن بعضها ما زال موجودًا بفلسطين السورية، وعليها النقوش التي تحدثت عنها.»[2] وتلك الأعمدة لا بد أن تذكرنا بوصف القرآن الكريم لفرعون موسى بأنه ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾.

ولأن «سيزوستريس» عرفه اليونان بشدة البأس، فقد رأى «دي بوا إيميه»[3] أنه من الصعب أن ننسب إلى عهده الكوارث التي لحقت بمصر في حديث التوراة، ومن هنا يرى أن تلك الأحداث التي انتهت بالخروج، يجب نسبتها لعهد ولده الذي أسماه «هيرودت» باسم «فيرون»، وأطلق عليه «ديودور» اسم «سيزوستريس الثاني»، ولا شك عند «دي بوا إيميه» أن «فيرون» لم يرث فضائل أبيه ومواهبه، حيث يصوره التاريخ أميرًا ضعيفًا متطيِّرًا يؤمن بالخرافات، مع ما حدث في عهده من فيضان النيل إلى حد التدمير، مع ما صحب ذلك من عواصفَ وأعاصير وسيول؛ مما أقنعه بأن ذلك غضبٌ إلهي؛ وهو ما أدى به إلى إطلاق الأسرى من مصر.

---

[1] سامي سعيد: الرعامسة ... سبق ذكره، ص٢٤، ٢٥.

[2] هيرودت يتحدث عن مصر: ترجمة د. محمد صقر خفاجي، تهميشات د. أحمد بدوي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢١٧–٢٢٢.

[3] دي بوا إيميه: كتاب الحملة الفرنسية وصف مصر، دراسات دي بوا إيميه حول البحر الأحمر والخروج.

وبالمراجعة وراء «دي بوا إيميه» رجعنا إلى «هيرودت»، فوجدنا «فيرون» عنده مذكورًا باسم «فيروس» ولا بأس فهمًا واحدًا بحذف الـ «ن»، وإضافة التصريف الإسمي اليوناني المعتاد، لكن المثير في المسألة أن «فيرون» هنا، ستنطق أيضًا نطقًا مصريًّا وعبرانيًّا صحيحًا باللفظ «فرعون»، ويبدو أنه يعود بدوره إلى أحد الألقاب المصرية الخاصة بهذا الفرعون، وأنه اسمٌ خاص تمامًا بفردٍ بعينه، وهو ما يبدو لنا الأصل في انسحاب اللقب على بقية حكام مصر «الفراعنة»، لكن إذا كان هذا الفرض صحيحًا، فإنه كان هناك فرعونٌ واحد باسم «فرعون»، وأنه يبدأ من لحظةٍ تاريخيةٍ أولى، كانت مع بني إسرائيل زمن الخروج، ويعاضد ذلك تمامًا الفهم الديني المتواتر عن الفرعون زمن موسى، كما لو كان لمصر طوال تاريخها فرعونٌ واحد، هو ذاك الذي غرق في بحر سوف، والأمر بهذا الشكل يستدعي إعادة النظر في التخريج القائل إن كلمة «فرعون» مأخوذة من كلمة «برعو» المصرية القديمة، والتي تعني السور العظيم، أو ربما تعود التسمية للسببين معًا.

ومن ثم، فقد احتسب «دي بوا إيميه» أن «سيزوستريس» المظنون الآن أنه «رعمسيس الثاني» ابن للفرعون «آمنحتب»، سيرًا مع «مانيتو» بإسقاط أسرة العمارنة، لكن المهم أنه رتب الأمر حتى إنه كشف عن نظرية الخروج زمن «مرنبتاح»، الذي هو عنده «فيرون»، قبل فك رموز الهيروغليفية، ومعرفة كشوف أركيولوجية أدت إليها، وأهم تلك الكشوف ذلك اللوح الذي تركه لنا «مرنبتاح ابن رعمسيس الثاني»، وذكر فيه للمرة الأولى والوحيدة واليتيمة اسم إسرائيل، في تاريخ مصر طولًا وعرضًا، وقد جاء الاسم في ذلك اللوح ضمن انتصاراته على عددٍ من الشعوب، واللوح لون من اللوحات التذكارية، مصنوع من الجرانيت الأسود، ويعرف الآن في المتحف المصري بلوح إسرائيل، وكان قد أقيم أصلًا في معبده الجنائزي، ثم نقل إلى المتحف المصري حيث يحفظ الآن، كما أقيم له مثيل في الكرنك، وجدت منه قطعة هناك، أما الفقرة التي تعني موضوعًا هنا في ذلك اللوح، فهي تلك التي تقول:

يقول الرؤساء وهم منطرحون أرضًا:

السلام

ولم يعد واحد من بين قبائل البدو «التسعة أقواس»
يرفع رأسه،
والتحنو قد خربت،

وبلاد خاتي أصبحت مسالمة،
وكنعان أُسرت مع كل خبيث،
وأُزيلت عسقلان،
وجازر قبض عليها،
وينو عام أصبحت لا شيء،
«وإسرائيل» خربت وليس لها بذر،
وخارو أصبحت أرملة لمصر.[٤]

وتبعًا لهذا اللوح، بعد الكشف عنه، أعاد الباحثون النظر في كل ما انتهوا إليه قبلًا، وتم رفض فكرة أن بني إسرائيل هم الهكسوس، حيث تم طرد الهكسوس من مصر زمن أحمس حوالي ١٥٧٥–١٥٥٠ق.م. وهو آخر زمن الأسرة السابعة عشرة وبداية الأسرة الثامنة عشرة، وهو تاريخ يسبق زمن «مرنبتاح» ١٢٢٥–١٢١٥ق.م. بما يزيد على ثلاثة قرونٍ كاملة، ومن ثم ذهب بعض الباحثين إلى القول: إن بني إسرائيل هم بقايا أسرى هكسوس، تخلفوا في مصر طوال تلك السنين، حتى خرجوا زمن «مرنبتاح»، وبعضهم ذهب بحدث الدخول مذاهبَ شتى، لكن الأغلبية اتجهوا إلى القول: إن «رعمسيس الثاني» كان هو فرعون الاضطهاد، وأن ابنه «مرنبتاح» هو فرعون الخروج.

ويبدو أن «مانيتو» هو الواضع الحقيقي لأصول تلك النظرية، حيث قال: إن ثورة أسرى مدينة حواريس بقيادة الكاهن المصري «أوزرسيف»، قد حدثت زمن الملك «آمنحتب»، الذي طاردهم مع ولده الذي حمل عند «مانيتو» أسماءً ثلاثة متضاربة هي: «هورامبيس/سيتوس/رمسيس»، في قولٍ غامض وملتبس يقول: إن ابن «آمنحتب» كان اسمه: «سيتوس»، وكان يسمى أيضًا «رمسيس» من أبيه «هورامبيس».

وقد اتضح لنا أن «مانيتو» كان معذورًا تمامًا في ذلك اللبس، فالرجل قد اعتمد على المدونات المصرية القديمة، التي كانت موجودة حتى زمانه، وقد علمنا مما بقي من قوائمَ ملكية، إسقاطها جميعًا لفترة أسرة العمارنة، وهي فترة حكم الملك «آمنحتب الرابع/إخناتون» وأتباعه الثلاثة المباشرين، وعدم ذكرهم أو الإشارة إليهم، وعندما تم

[٤] سليم حسن: الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة: مطبوعات كتاب اليوم، القاهرة، ١٥ ديسمبر ١٩٩٠م، ج٢، ص٢٢٩.

الكشف عنهم بعد ذلك، سواء في حفائر تل العمارنة، أو في مقبرة توت عنخ آمون، كان الأمر كشفًا مدويًا، أعيد بموجبه إعادة ترتيب قوائم الملوك، وإدخال أسرة العمارنة في دائرة الضوء لأول مرة، ليتم إدراجها مباشرة بعد حكم الملك «آمنحتب الثالث»، في الفراغ بينه وبين حور محب أو «هورامبيس».

ومعلوم أن الباحثين قد برَّروا إسقاط المدونات المصرية لأسرة العمارنة، بالهرطقة الدينية التي قادها «إخناتون»، وهاجم بموجبها كل آلهة البلاد، وطاردها لصالح عقيدته في إلهه الأوحد «آتون»، مع تعصُّبه الشديد ومطاردته للآلهة الأخرى، مع فرض عقيدته بالقهر، ومن ثم اعتبره المصريون مارقًا دنسًا، هو وأسرته لا يصح ذكرهم، ووصمة عار يجب تناسيها ومحوها تمامًا من ذاكرة التاريخ، بالضبط كما فعلوا مع فترة الاحتلال الهكسوسي، التي أسقطت تمامًا ولم تدخل في المدون التاريخي المصري القديم، وظلت دومًا فجوة نحاول ملأها بالنُّتف التي يمكن العثور عليها، من آثار الهكسوس أنفسهم، أو من أصحاب التواريخ القديمة مثل «مانيتو»، أو من بردية تشكل حالةً خاصة مثل بردية تورين، ومن ثم أسقطت من قوائم مصر أسرة العمارنة كاملة، «فكانت القوائم الملكية تقفز مباشرة من زمن «آمنحتب الثالث»، منهية به الأسرة الثامنة عشرة، إلى «حور محب» مؤسس الأسرة التاسعة عشر، الذي قضى تمامًا على بقايا عبادة «آتون» الهرطقية».

ولما كان اسم «حور محب» باللسان اليوناني هو «هورامبيس»، فقد سجلها «مانيتو» كذلك، معتبرًا إياه ابنًا لآمنحتب، وأبًا لمشاهير الأسرة التاسعة عشرة «رعمسيس الأول، ستي الأول، رعمسيس الثاني، مرنبتاح ... إلخ».

وعليه فلا جدال أن «آمنحتب» المقصود عند «مانيتو» هو «آمنحتب الثالث» قطعًا وتحديدًا، ولم يكن أمام «مانيتو» سوى احتساب «هوارمبيس/حور محب» و«رمسيس الأول» و«سيتوس/ستي الأول» و«رمسيس، رعمسيس الثاني» أبناء مباشرين للملك «آمنحتب الثالث»، أو أسماء متعددة لابنٍ واحد لذلك الفرعون، لكنه أبدى حيرته لنا في قوله إن «سيتوس» هو «رمسيس» من أبيه «هورامبيس»، بحيث بدا متشككًا ما بين وجوب نسبة «رعمسيس» إلى «آمنحتب الثالث» آخر الأسرة الثامنة عشرة، وبين وجوب نسبته إلى «حور محب» مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

ومن بعدُ، وبمرور الوقت، تدعمت نظرية «مانيتو» لكن المؤرخين استبعدوا معركة «آمنحتب الثالث» مع ثورة عبيد حواريس التي قادها «أوزرسيف»، ووقفوا مع من بقي

منهم أسرى زمن «رعمسيس»، المفترض عند «مانيتو» ولدًا لآمنحتب الثالث، ليعتبروه فرعون الاضطهاد، ويحددوا ولده «مرنبتاح» فرعونًا للخروج، ومن المفيد هنا بشأن اللبس الحادث عند «مانيتو»، أن نذكر باللوحة التي شاهدناها بالكرنك للفرعون «آمنحتب الثالث»، وإلى جواره ابنه طفلًا، مع تدوين اسم هذا الطفل «حور محب»!

فقد لاحظنا إبان زيارتنا للكرنك، أنه قد صورت على الواجهة الخارجية الجنوبية بقاعة الأعمدة بالصرح البحري، رحلة لمركب الإله «آمون» ومعه الملك «آمنحتب الثالث»، واقفًا داخل المركب مرتين، وبصحبته شخص تمت إزالة صورته لكن عملية الإزالة تركت الأثر السابق واضحًا، ولا شك أن الصورة كانت تمثل ابن «آمنحتب الثالث»، ومحل الصورة تم تدوين اسم «حور محب»، ولما كنا نعلم أن ابن «آمنحتب الثالث» هو «آمنحتب الرابع/إخناتون»، بالقطع واليقين، فلا جدال أن لوحة مثل تلك، كانت كفيلة بإقناع «مانيتو» أن «هرمبيس، حور محب»، ابن مباشر لآمنحتب الثالث، دون أن يضع بحسبانه — بالطبع — الخدعة المتمثلة في إهدار المصريين لأسرة العمارنة بكاملها، والتي تشمل الفراعنة: «إخناتون» وخلفائه على الحكم «سمنخ كارع» و«توت عنخ آمون» و«آي».

ولأن رواية مانيتو تقول بفتنة شخص اسمه أوزرسيف زمن فرعون باسم أمنوفيس/آمنحتب، فقد قام «دي بوا إيميه» بمزج ما وصله من تآريخ الكلاسيك القدماء برواية التوراة، ليضع سيناريو للأحداث مصدقًا بالتوراة، وأن موسى قد ولد بين الإسرائيليين المستعبدين في مصر، وألقت به أمُّه في اليم زمن الفرعون آمنحتب، ليجرفه التيار إلى قصر الفرعون، فتنقذه ابنة الفرعون وتحسن إليه، وتتبنَّاه وتأمر بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم، فنشأ موسى نشأةً مصريةً كاملة، لكن يبدو أن تلك التي تبنَّته قد ماتت ففقد الحماية، ثم في لحظة غضب قتل مصريًّا، فطارده القصاص القانوني المصري، فهرب إلى عرب مديان بسيناء، الذين تناثروا في شبه الجزيرة، وتمركز معظمهم عند خليج العقبة، وهناك عند جبل حوريب المقدس، جبل الإله حسب نص التوراة، واصل التأمل ليضع خطةً كبرى لمشروعٍ عظيم، وعندما علم بموت الفرعون آمنحتب، قرَّر العودة إلى مصر، وذهب يدعو بني جلدته الإسرائيليين المستعبَدين هناك، للهروب من تلك العبودية إلى آفاق الحرية، وبسبيل ذلك ابتدع للفرعون قصةً مختلَقة، وهي أنه مع شعبه لديهم مناسبةٌ دينيةٌ سنوية، يذبحون فيها حيوانًا مقدسًا لدى المصريين؛ لذلك وحتى لا يستفزوا إيمان المصريين، فإنهم يحتاجون إلى مغادرة المدينة إلى الصحراء، لمدة ثلاثة أيام، يقيمون فيها

احتفاليتهم ثم يعودون. بينما كان موسى يضمر الهروب بشعبه، كان يريد مجرد الخروج الآمن من المطاردة بتلك الحجة، وأن الأيام الثلاثة كفيلة، بقطع مسافة تجعل اللحاق بهم صعبًا، عندما يكتشف المصريون الخدعة، لكن الفرعون «فيرون ابن سيزوستريس» رفض ذلك، في الوقت الذي تصادف فيه حدوث بعض الكوارث الطبيعية في مصر، فتطيَّر الفرعون شرًّا، وتصوَّره غضبًا إلهيًّا، بسبب عدم إطلاقه الإسرائيليين، وليس كما ذهب آخرون إلى أنه رمسيس الثاني؛ فدعا موسى وهارون وأعطاهما تصريحًا بالخروج،[٥] أو بحسب النص التوراتي:

> فدعا (أي فيرون ابن سيزوستريس، ولاحظ أن دي بوا إيميه يرى آمنحتب هو سيزوستريس) «فدعا موسى وهارون ليلًا وقال: قوموا «اخرجوا» من بين شعبي، أنتما وبنو إسرائيل جميعًا، اذهبوا واعبدوا الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضًا وبقركم كما تكلمتم واذهبوا». (خروج، ١٢: ٣١، ٣٢)

ومن «رعمسيس» مدينة الاستعباد، قادهم موسى في رحلةٍ طويلة نحو فلسطين، عبر البوادي السينائية الكبرى، وكانت أول محطة استراحة بعد الخروج من رعمسيس باتجاه فلسطين، تلك تذكرها التوراة باسم «سكوت»، أو بنص التوراة:

> فارتحل بنو إسرائيل من «رعمسيس إلى سكوت»، نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيفٌ كثير أيضًا، «مع غنمٍ وبقر ومواشي وافرةٍ جدًّا». (خروج، ١٢: ٣٧–٣٨)

وبعد ذلك ارتحلوا عبر عدة محطات، حتى لحظة العبور الإعجازي من البحر، فيما ترويه التوراة قائلة:

> وارتحلوا من «سكوت» ... ونزلوا في طرف البرية ... وكلم الرب موسى قائلًا: كلم بني إسرائيل «أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث، بين مجدل والبحر أمام بعل صفون» ... ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريحٍ شرقيةٍ

[٥] دي بوا إيميه: الدراسة السادسة والسابعة من كتاب وصف مصر ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٣، ص٣٢٧، ٣٦٧.

شديدة كل الليل، وجعل الرب البحر يابسة، وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل وسط البحر، وتبعهم المصريون ... فقال الرب لموسى: مدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين، فدفع الرب المصريين في وسط البحر، «ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور». (خروج، ١٣: ٢ و١٤: ٢١، ١، ٢٢، ٢٦، ٢٧ و١٥: ٢٢)

ويرى دي بوا إيميه أن أرض جاسان بمدينتَيها فيثوم ورعمسيس، تقع في النهاية الشرقية لوادي طميلات، ويسمى أيضًا وادي السدير، الممتد من الدلتا نحو الشرق، حتى بحيرة التمساح ثم البحيرات المرة، وأن المدينة التي خرجوا منها تقع قرب السبع أبيار على رأس بحيرة التمساح في موقع تل المسخوطة الحالي، واسمها أيضًا «الخشبي» و«أبو خشيب» و«أبو كيشيد»، وأنهم ساروا من هناك عدة محطات، حتى عبروا البحر من عند منطقة تقع إلى الجنوب من المسخوطة، بجوار مدينة السويس الآن على رأس «خليج السويس، الذي كان يعرف بالخليج العربي» حتى زمن دي بوا إيميه. ويرسم لنا سيناريو الأحداث، فيقول إن الركب كان متجهًا في البداية نحو الطريق المباشر إلى فلسطين، وهو الطريق الذي نعلم اليوم أنه كان باسم طريق حورس الحربي، والذي يسير بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط، لكنه خشي المرور بهذا الطريق، فيقترب من فلسطين، ويتعرض لهجومٍ مباشر من سكانها؛ لذلك سار برجاله جنوبًا ليخفي — أيضًا — عن المصريين نيتهم في الهرب، وليوهمهم أنه يبحث في الصحاري عن مكانٍ بعيد للاحتفال الديني، فقام يقودهم بالْتفافةٍ طويلة نحو بلاد أنسبائه سكان مديان في سيناء.

يقع الطرف الشمالي للبحر الأحمر (يقصد خليج السويس) على بُعد ستة أو سبعة آلاف متر إلى الشمال من مدينة السويس، وفيما وراء ذلك ثمة حوض ينتهي بعد حوالي ستين ألف متر إلى الشمال من هذه المدينة، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٥:١٢ ألف متر، ويضيق كثيرًا عند الجنوب، «هذا الحوض يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى»، فهناك يعثر المرء على طبقات الملح البحري، تتخذ في بعض المناطق شكل القباب. وعلى عمق أربعة أو خمسة أمتار، مياهًا نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر، وفي مناطقَ أخرى نجد الأرض موحلة، ونعثر هنا وهناك على مستنقعاتٍ من مياهٍ مالحة. والأرض في هذا الحوض تغطيها القواقع، وتنخفض عن سطح البحر إلى حدٍّ كبير (بالحاشية: يبلغ الفرق في أماكنَ عديدة من ١٥:١٢ مترًا)، وعلى الرغم من ذلك لا يفصلها عن البحر، سوى

كتلة من الرمال، يبلغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر. ونلمح فوق التلال المحيطة به (أي بالحوض)، خطًّا يتكون من مخلفات نباتاتٍ بحرية، تشبه تمام الشبه ذلك الأثر، الذي تتركه البحار فوق الشواطئ، لكن ما يلفت النظر بشكلٍ كبير، هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المد العالي للخليج العربي[٦] (أي خليج السويس [المؤلف]) ... بوضوح نحن هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر، وأن ترعة القدماء تلك التي يتحدث عنها هيرودت وبليني واسترابون ... إلخ (يقصد القناة المعروفة باسم قناة سيزوستريس التي كانت تصل النيل بخليج السويس [المؤلف])، كانت تنتهي عند الطرف الشمالي للحوض، الذي انتهيت لتوي من تحديده[٧] (أي إن ترعة سيزوستريس كانت لا تصل لقمة خليج السويس الحالي عند مدينة السويس/القلزم قديمًا [المؤلف])، إنما كانت تأتي بماء النيل من شرقي الدلتا، لتصل حتى تل المسخوطة قرب الإسماعيلية الآن، حيث كانت نهاية رأس خليج السويس/الخليج العربي في ذلك الزمان، قبل أن ينسحب بالتدريج جنوبًا عبر السنوات، ليتوقَّف عند السويس الآن.

وكي يزيد دي بوا إيميه في تدعيم نظريته العبقرية، يعمد إلى ما جاء عند بليني بالفصل ٢٧ من الكتاب السادس، إذ يقول عن القناة التي نهض بإتمامها سيزوستريس، لتربط النيل بالخليج العربي على البحر الأحمر، كانت تبلغ حوالي ٦٢ ميلًا (٩٣كم)، وفي تاريخ هيرودت الكتاب الثاني الفصل ٥٨، أن هذه القناة كانت تتفرع من الفرع البوباسطي للنيل جنوب بوباسطة بقليل (بوباسطة من أحياء الزقازيق الآن)، وذلك في المنطقة التي يصنع فيها ذلك الفرع كوعًا يتجه نحو الشرق متفرِّعًا من فرع دمياط الحالي، لكنا لو قسنا الآن المسافة من هذه النقطة، حتى رأس خليج السويس الحالي، سنجدها ١٣٥كم وليس ٩٣، بينما المسافة ما بين بوبسطة عبر وادي طميلات، حتى مدينة السبع أبيار على بحيرة التمساح، تساوي ٩٠كم كما ذكر بليني.[٨]

وحتى يحدد لنا موضع الخروج بدقة، يضع دي بوا إيميه تصورًا لجغرافية المنطقة زمن الخروج، فيرى أن الخليج العربي/السويس الآن، كان يمتد زمن الخروج ليلتحم

---

[٦] لاحظ أن خليج السويس ظل يحمل اسم الخليج العربي حتى زمن الحملة الفرنسية.

[٧] دي بوا إيميه: الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدراسة الأولى من وصف مصر، ص١٣٧، ١٣٨.

[٨] نفسه: ص١٤٠.

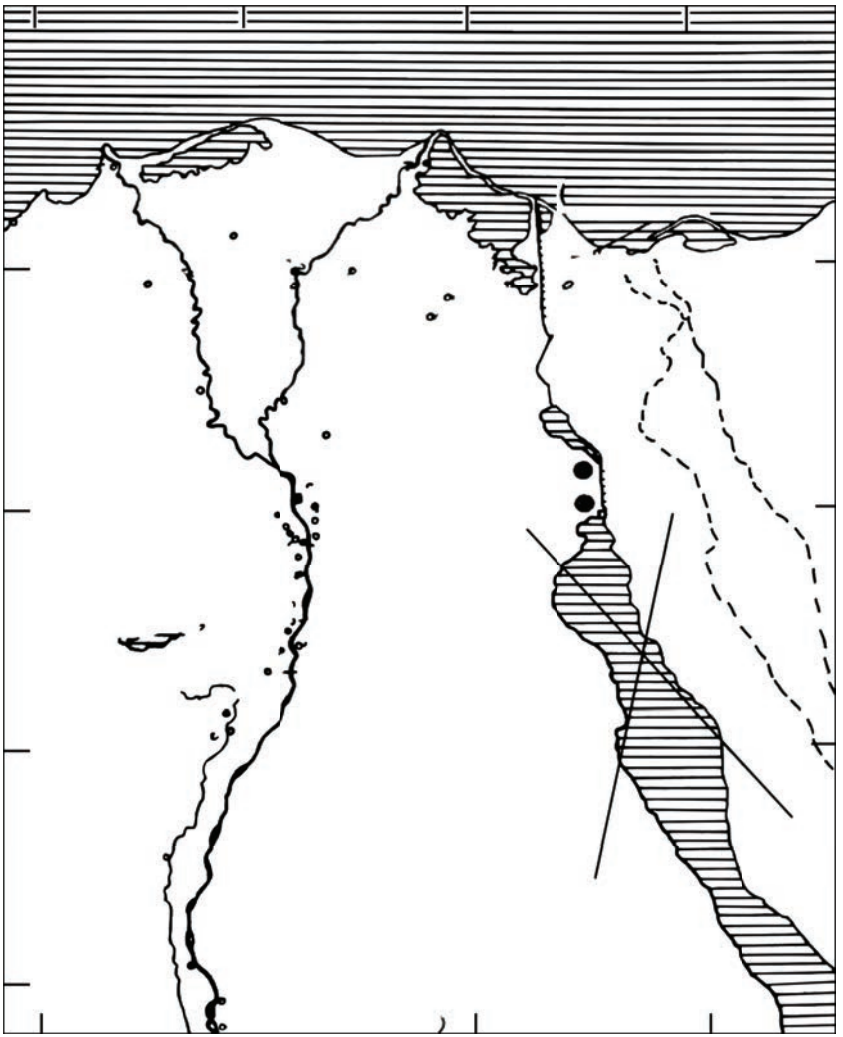

شكل ٣-١: تصور لما ذهب إليه دي بوا إيميه في امتداد خليج السويس ليضم البحيرات المرة.

بالبحيرات المرة، وبحيرة التمساح حيث السبع أبيار، مدلِّلًا على ذلك بعددٍ وافر من القرائن المفترضة، وأهمها ما جاء في عرضه التالي:

وفي الجزء الشرقي من وادي طميلات، نجد أنقاضًا عظيمة تخلَّفت عن الأزمان الفرعونية، عند موقع «بلدة أبو كيشيد» (وهي الآن أبو خشب أو الخشبي أو تل المسخوطة إلى الشرق من أبي صوير بثلاثة كيلومترات [المؤلف]). ويعتقد دي بوا إيميه أن رعمسيس أوبيتوم التي ذكرتها التوراة المازورية، هي «ذات هيروبوليس» التي ذكرتها التوراة السبعينية، هي ذاتها مدينة المسخوطة الحالية، التي لا شك عنده كانت تقع عند رأس الخليج العربي (السويس)، عندما يملأ حوض البحيرات الحالي، ويتصل بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح في خليجٍ واحد، وأن تلك القمة هي بحيرة التمساح الآن، وأن اليونان كانوا يطلقون على البحر الأحمر اسم البحر الإريتري، وعلى خليج السويس الخليج العربي مرة، «والخليج الهيروبوليتي مرة، نسبة إلي هيروبوليس التي هي رعمسيس أوبيتوم، وهو ما يدعم وجودها على قمة الخليج».[٩]

ويتأرجح دي بوا إيميه حول كون هيروبوليس كانت هي رعمسيس أو بيتوم، ويذكرنا أن المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين ذكروا مدينة باسم Patumos وهي لا شك عند دي بوا إيميه هي بيتوم، هي هيروبوليس، هي المسخوطة أو الخشبي حاليًّا، حيث ذكر هيرودت أن «القناة التي كانت تحمل مياه النيل للخليج العربي، كانت تقع عليها مدينة باسم باتوموس».

ولمزيدٍ من التدقيق يقول دي بوا إيميه «ولقد قمنا بتنقيباتٍ عديدة في حوض القلزم (يقصد المساحة الممتدة من خليج السويس الآن حتى بحيرة التمساح شمالًا)، دون أن نعثر على أقل شقفة طمي، في حين وجدنا هذا الطمي في شكل طبقاتٍ أفقية في وادي السبع أبيار.»[١٠] وإذا كان حوض القلزم الممتد من السويس حتى البحيرات المرة ليس به سوى آثار مياه البحر المالح، وأن وادي السبع أبيار (طميلات) يمتلئ بطمي النيل، فمعنى ذلك أن خليج السويس كان يمتد حتى بحيرة التمساح، وأن قناة سيزوستريس كانت لا تصل إلى السويس الحالية، إنما إلى المسخوطة هيروبوليس التي قد تكون هي بيثوم أو رعمسيس التوراتيتين عند بحيرة التمساح الحالية.

---

[٩] نفسه: ص١٤٢.

[١٠] نفسه الدراسة الثانية، ص١٦١.

ويؤكد ذلك رفيقه من علماء الحملة الفرنسية المسيو دي فيليه Divilliers، الذي أكدت دراساته أن الماء كان يصل حتى زمن الحملة، منحدرًا من النيل بشكلٍ طبيعي زمن الفيضان، حتى يصل إلى ألسنة كراش عند بحيرة التمساح، وعند البلاح إلى الشمال منها.[١١]

ولاحظ دي بوا إيميه أن مد البحر الأحمر في الخليج العربي، يعلو في منسوبه عن منسوب مياه النيل، التي كانت تصل هناك كما جمع من معلومات؛[١٢] لهذا رجع إلى بليني يستعيد نصه الذي يشرح الجغرافيا، قادمًا من عند خليج العقبة، متجهًا نحو مصر قائلًا:

> بعد خليج إيلانتيتك Aelantique (أي خليج إيلات/العقبة الآن [المؤلف]) نجد خليجًا آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت Eaant، هناك توجد مدينة الأبطال (يقصد هيروبوليس بحسبان الاسم هيرو يعني البطل، وبوليس تعني مدينة [المؤلف])، كما توجد هناك ... مدينة قمبيز (كبريت حاليًّا) التي كان ينقل إليها مرضى الجيش، تأتي بعد ذلك أمة العمالقة Tyres ثم ميناء دانيون Daneon، التي أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعةٌ ملاحية، يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم، هي المسافة بين النيل والبحر الأحمر، وكان «أول من فكر في هذا المشروع سيزوستريس ملك مصر، ثم داريوس ملك الفرس، وبعد ذلك بطلميوس الثاني»، الذي أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة، يبلغ عرضها ١٠٠ قدم وعمقها ٣٠ قدمًا، في حين يبلغ طولها ٣٧٥٠٠ قدم، لكن بطلميوس لم يتم مشروعه، خشية غرق المنطقة؛ «إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر يعلو بمقدار ثلاثة أذرع عن مستوى سطح أرض مصر».
>
> وإن كان ثمة تفسيراتٌ مخالفة عند الآخرين، حيث يرى هؤلاء أن بطلميوس قد خشي أن يتلف البحر مياه النهر، إذا صب الأول مياهه في النيل، وهي المياه الوحيدة القابلة للشرب ... وتؤدي هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينوية

[١١] نفسه: ص١٦١–١٦٣.

[١٢] نفسه: ص١٦٩.

(أرسينوية هي السويس الحالية [المؤلف])، والتي أطلق عليها اسم أخته، وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodiytiques أي «سكان الكهوف»[١٣] (سيأتي حديثٌ طويل يفسر لنا حكاية سكان الكهوف في موضعه من هذا الكتاب).

ويلخص دي بوا إيميه تلك النتائج التأسيسة في قوله:

أما عن مدينة هيروبوليس ولعلها هي نفسها مدينة أفاريس (حواريس عاصمة الهكسوس بمصر [المؤلف])، فإنني مصرٌّ على أن أضعها في نفس المكان الذي تشغله اليوم أبو كيشيد (المسخوطة).

ثم يعقب في الحاشية قائلًا:

أوضحت في مذكراتي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر، رأي البعض ممن يرجحون أن تكون هيروبوليس هي التي تشير إليها التوراة باسم بيثوم Pithom، والراجح أن المدينة التي أسماها العبرانيون باسم بيتوم، كانت هي تلك التي أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patoumos، وأطلق عليها الرومان اسم توم Thoum ... وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقةٍ بالغة اليسر، لماذا كانت تلتمس هيروبوليس في روايات الأقدمين على الدوام، في المنطقة التي كان ينتهي إليها الخليج العربي باتجاه مصر.[١٤]

ويسير دي بوا إيميه مع الخارجين، حيث يتجهون شمالًا بعد تجاوز رأس الخليج العربي القديم عند بحيرة التمساح، حيث أول محطة ذكرتها التوراة باسم (سكوت)، وسكوت عنده هي من الكلمة العبرية سيخوت، أي المخيمات أو العشش، ومن هناك يعود موسى خشية الحرب مع الفلسطينيين، فيتَّجه برجاله جنوبًا بحذاء الشاطئ الغربي للخليج العربي، حيث يستريحون في محطة إيتام، ويرى أنها حاليًّا بير السويس، ومن بير السويس يرتدون غربًا، حيث كانت تمتد مياه الخليج نحو المنطقة، التي أسمتها التوراة فم الحيروث، ويرى أنها تبعد عن بير السويس غربًا بثلاثة فراسخ، وأنها حصن عجرود

[١٣] نفسه: ص١٧٣–١٧٤.

[١٤] نفسه: ص١٧٩–١٨٢.

الحالي بجبل عجرود، ويطابق فونيطيقيا بين فم الحيروث أو بالعبرية «هـ حيروث» وبين «ع-جروت» أو «عجرود» ليراهما موضعًا واحدًا.

ويرسم لنا دي بوا إيميه جغرافية منطقة العجرود بدقة العالم الحصيف، فيرى هناك كتلة رمال جنوب شرقي العجرود، يسعى وراءها فيجدها تتصل بشكلٍ متقطع بخليج السويس، مع وجود خواصَّ عند تلك التقطعات، يشير إلى وجود ماءٍ قديمٍ كثيف، ثم إنها منخفضة عن مستوى الماء بالخليج، وهنا يرى أنها كانت بحيرة تقع في طرف لسان الخليج من شماله الغربي.

ولما كان موسى قد تربَّى بحكمة المصريين وعلومهم، فلا شك أنه كان يعرف ممكنات العبور من هذه النقطة، سيرًا على الأقدام إلى الضفة الأخرى، «وكان المد يأتي فيغطي البحيرة فيصلها بالخليج، ثم ينحسر فتصبح بحيرةً منفصلة عن الخليج». ووقت وصول الفرعون وجيشه كان المد يغطي البحيرة؛ مما جعل الجيش المصري ينشد الراحة بعد المطاردة المجهِدة، وهو يجد الخارجين أمامه مرتعبين محاصرَين وراءهم البحر وأمامهم الجيش، ولم يخطر ببالهم أي خشية لافتلات الخارجين، بينما كان موسى يستفيد من دوامات الرمال والغبار والضباب، ليبدأ التحرك مستغلًا أول ساعات الجزر، فيتبعه خائضًا برجاله في البحيرة الجافة، وعندما لاحظ المصريون متأخرين، مؤخرة الإسرائيليين وهي تنسحب نحو الشرق، كان المد التالي قد بدأ في العودة، ووسط حماس المطاردة ومسابقة للمد الآتي، دخل المصريون في المد بسرعة، يريدون تجاوز ارتفاعه بالوصول إلى الشاطئ وراء الإسرائيليين، مما قلل من إمكانية بلوغ الشاطئ في الوقت المناسب، وأدى لتراجع الجيش وغرق بعضه وانفلات الخارجين، ويطابق دي بوا إيميه نظريته المتماسكة بقول التوراة: «فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (خروج، ١٤: ٢٢)، «ويراها مجازًا تمت صياغته في روايةٍ إعجازية، تعبر عن حالةٍ جغرافيةٍ طبيعية، لا علاقة لها بالمعجزات، فقد عبروا عند مخاضة جانبها بحيرة وجانبها الآخر خليج السويس/العربي وقت الجزر، فكانوا يبدون محصورين في مساحةٍ ضيقة، كما لو كانوا بين بحرَين أو داخل بحرٍ مفلوق».

لكن علينا أن نلاحظ أن نيبور Niebuhr الرحالة، ولوكليرك Leclerc قد سبقا دي بوا إيميه إلى تحديد رأس خليج السويس بالتحديد موقعًا للعبور، ولكن عن طريقٍ آخر وبمنهجٍ مختلف.

المهم يستكمل دي بوا إيميه مشهديه الخروج، ويعرج على بعض الظواهر الإعجازية، ليجد لها تفسيرًا عقليًّا مقبولًا، ومنها ما جاء في رواية التوراة يقول:

> وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهارًا وليلًا. (خروج ١٣: ٢١)

وقدم تفسيره بأنه لا بد كان هناك بركان يقع في جبل الله حوريب المقدس بسيناء (كاترين وموسى الآن)، وقرأ هذا التفسير على المجمع العلمي الفرنسي الذي انعقد بالقاهرة في ١٦ من برمير من العام التاسع للحملة الفرنسية، ودلَّل على وجهة نظره بما يستخدمه البحارة الآن في مدينة الطور بالخليج العربي من أحجار لحفظ التوازن، وأن هذه الأحجار هي خفاف بركاني، ولا شك مجلوبة من الجبل المقدس، لكن الرجل تراجع عن هذا الرأي بعد التقرير الذي قدَّمه عالمان آخران بالحملة، قاما بدراسة جبلي كاترين وموسى، هما السيد كوتل Coutelle وروزيير Roziere، وأكدا أنه لا وجود هناك لأي أحجارٍ بركنية، وأن الجبال هناك جميعًا جرانيتية تمامًا.

وأُسقط في يد عالمنا الجليل، لكنه كان يصرُّ على العقلنة، فقام يقدم للآية التوراتية تفسيرًا جديدًا بعد سقوط نظرية البركان، فقال: إن هذا الإله السحابي الناري، ليس سوى الشعلة النارية الضخمة، التي يحملها البدو إبان سيرهم جماعاتٍ في الصحاري ليلًا ونهارًا، حتى لا يفقد المرتحلون بعضهم، بدليل أن التوراة تؤكد أن دليلهم في الصحراء، كان شخصًا يعرف دروب المنطقة ومن أهلها، هو حوباب المدياني شقيق صفورة زوجة موسى، نظير جُعْل من المال جعله له موسى، والآية تقول: «وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المدياني حمو موسى: إننا راحلون إلى المكان الذي قال الرب أعطيكم إياه، اذهب معنا فنحن نحسن إليك ... بنفس الإحسان الذي يحسن الرب إلينا نحسن نحن إليك» (عدد ١٠: ٢٩–٣٢)، ولو كان الرب هو الذي يسير أمامهم، فما حاجته لاستئجار نسيبه ليدلَّه على الطريق في دروب البوادي السينائية؟

ويعرج دي بوا إيميه على قصة المن والسلوى، ويفسر قوله: إن السلوى هو طائر السمان، الذي يتساقط بكثرةٍ في سيناء، نتيجة الإنهاك في رحلته الفصلية، وقد حدثنا ديودور الصقلي عن مصريين منفيين في عهد أكتيزانيس في صحراء برزخ السويس، كانوا يغتذون من الطيور المهاجرة، التي يسهل اصطيادها بعد سقوطها مجهَدة، أما المن فما برح يجمع من شحرٍ وفير في شكل كرات من الصمغ العسلي في المناطق المحيطة بجبل

سيناء، أما النار التي كانت تزحف على خيام الإسرائيليين في ذلك الجبل وتحرقهم، فكان ممكنًا تفسيرها بالبركان الذي نفاه السيدان كوتل وروزيير، لكن نتيجة بحثهما دفعت دي بوا إيميه لتفسيرٍ آخر، قال فيه إن تلك النار كانت نارًا انفجارية مصنَّعة، هي التي عرفها اليونان بعد ذلك باسم النار اليونانية، وبالتأكيد عرفها المصريون قبلهم، كأسلوبٍ حربيٍّ متطور، ولا شك أن موسى تعلمها من وجوده بالقصر، حين كان يتعلم كل حكمة المصريين.

وتبقَّى من تلك الخوارق الأصوات الهائلة، التي كانت تصدر من الجبل المقدس، التي لن تكون بركانًا بل أصوات رعد، ملأت الإسرائيليين البدائيين رعبًا، وهم يعيشون طفولةً عقلية اسمها الإيمان.[١٥]

رأي هنري بروجش

يُعدُّ هنري بروجش Henirich Brugsch من أبرز المصرولوجيين، الذين أَوْلوا اهتمامًا خاصًّا لمسألة علاقة الإسرائيليين بمصر، وهو من أنصار المدرسة التي تُوقِّت الاستعباد بزمن رمسيس الثاني، والخروج بزمن ولده مرنبتاح، وقد قدَّم بروجش ما وصل إليه من محاولات تدقيق، لموضع مدينة الاستعباد رعمسيس، ونقطة عبور البحر، وما هو هذا البحر؟ في شكل محاضرة ألقاها بحفل المدارس المجانية بالقاهرة عام ١٨٧٩م، قدَّم فيها نتائج بحوثه في نقوش وبرديات مصر القديمة وفي التوراة، ورسم فيها تصوره لخريطة الخروج.

يشرح بروجش أن مدينة رعمسيس كانت في المصرية القديمة «بي رعمسيس»، و«فيثوم» هي «بي آتوم» أي بيت آتوم ومدينته، ثم يعمد إلى إيراد موجزٍ سريع لقصيدة ألقاها شاعرٌ مصريٌّ قديم، أمام جلالة الفرعون في حفل افتتاح مدينة رعمسيس. ومن جانبنا قمنا بمقارنة ذلك الموجز مع الأصول النصِّية، فاكتشفنا أن بروجش في محاضرته هذه قدم مزيجًا مختصرًا من بردياتٍ ثلاث، ورأينا من جانبنا العودة للنصوص الثلاثة الأصلية، بادئين القصيدة الأولى المعروفة بالقصيدة الصغرى في مديح رعمسيس:

يا ابن رع محبوب آمون،
أنت السفينة الرئيسية،

[١٥] نفسه: الدراسة ٦، ٧، بالجزء الثالث، ص٣٢٧–٣٦٧.

والعصا التي تهشم،
والسيف الذي يذبح الشعوب الأجنبية،
وحربة اليد.
إنه نزل من السماء وولد في عين شمس،
وكتب له النصر في كل أرض،
ما كان أجمل يوم حضورك!
وما كان أجمل صوتك عندما تكلمت!
«حينما بنيت مدينة رعمسيس محبوب آمون،
فهي بداية كل أرضٍ أجنبية ونهاية مصر»،
هي المدينة ذات الشرفات الجميلة،
والقاعات التي تخطف الأبصار
باللازورد والزمرد،
والمكان الذي تستعرض فيه فرسانك،
وتجنِّد رجالك،
«وحيث ترسو سفينتك حينما يحضرون لك الجزية،
الثناء عليك حينما يأتي عبيدك المختارون من بدو آسيا»،
وهم رجال وجوههم كاسرة
وأصابعهم محرقة،
يتقدمون حينما يرون الأمير واقفًا ومقاتلًا،
لا قدرة للجبال على الوقوف أمامه،
وهي تخاف بطشه.
يا ابن رع محبوب آمون،
ستبقى ما بقيت الأبدية،
وستبقى الأبدية ما بقيت،
وستمكث على عرش والدك رع حور أختي.[١٦]

[١٦] سليم حسن: الأدب المصري القديم، كتاب أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ج٢، ص٢١٧–٢١٨.

والبردية الثانية ليست قصيدة، إنما تقرير في شكل رسالةٍ مرسلة من كاتب من كتَّاب البلاط، هو «بينبس» إلى رئيس قلم كتاب القصر «آمنموبي» يقول له فيها:

إن الكاتب بينبس
يرحب بسيده الكاتب آمنموبي
في حياة وفلاح وصحة،
وقد حُرِّر هذا ليكون سيدي على علمٍ به.
ترحيبٌ ثانٍ بسيدي
لقد وصلت إلى «مدينة بيت رعمسيس» محبوب آمون،
ووجدتها في غاية الازدهار!
هي عرشٌ جميلٌ منقطع النظير، على طراز طيبة،
وإن رع هو الذي أسسها بنفسه،
فهي مقام تلذُّ فيه الحياة،
حقولها مملوءة بكل ما طاب
ولديها مؤن وذخيرة كل يوم،
بِركها تزخر بالسمك،
وبحيراتها بالطيور،
حقولها يانعة بالبقل،
وشواطئها محمَّلة بالبلح،
«ومخازنها» مفعمة بالشعير والقمح،
فيها الثوم والكرات للطعام،
وخس الـ (ثقب في النص) جنينة،
وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين من البساتين،
وخمر كنكمة اللذيذ الذي يفوق الشهد حلاوة،
وفيها «سمك وز الأحمر من قناة» (ثقب)
وسمك بتن «من بحيرة» (ثقب)
«وسيهور» تنتج الملح،
ويستخرج من «بحيرة هر» النطرون،

«وسفنها تروح وتجيء إلى الميناء»،
وفيها المؤن والذخيرة كل يوم،
وينشرح الإنسان بالمقام فيها،
ولا أحد يقول: ليت كذا،
والصغير فيها مثل العظيم
تعالَ، وتعالى نحتفل بأعيادها السماوية،
وأوائل فصولها السنوية،
«إن مستنقعات زوف تنتج لها البردي»،
«وسيهور» تمدُّها باليراع،
وغرائس العنب تأتي إليها من البساتين،
وتيجان الأزهار من الكروم،
وتجلب إليها الطيور من الماء البارد،
«والبحر» فيه سمك بج وسمك أد،
«والمستنقعات» تهدي إليها (ثقب)
وشباب عظيمة الانتصارات (لقب مدينة رعمسيس [المؤلف]) يلبسون حُلل العيد كل يوم،
ورءوسهم مضمَّخة بزيتٍ زكي الرائحة،
في الشَّعر المرجَّل حديثًا،
ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور،
وبالنبات الأخضر من بيت «حتحور»،
وبالكتان من «بحيرة حر»،
في اليوم الذي يدخل فيه رعمسيس
هو منتو (منتو إلهٌ مصري [المؤلف]) في كلتا الأرضين صبيحة عيد كيهك (شهر مصري [المؤلف])
عندئذٍ يُدلي كل إنسان بملتَمسه،
ونسيم عظيمة الانتصارات حلو،
وشرابها تبى مثل الفاكهة شاو،

وشرابها خيو طعمه كطعم الفاكهة إنو،
فهو يفوق الشهد حلاوة،
وجعة كدى ترد «من الميناء» (بلاد كدى «بالشام» [المؤلف])
والنبيذ والكروم والروائح العطرة
يؤتى بها من مياه سيجبين،
وتيجان الأزهار من (ثقب) جنينة،
أما مغنيات عظيمة الانتصارات ذوات الصوت العذب
فقد تعلمن الغناء في منف.
اسكن هناك سعيدًا وامشِ مرحًا ولا تغادرها،
يا وسر مارع المختار من آمون،
يا منتو في الأرض،
يا رعمسيس محبوب آمون
أنت أيها الإله.[١٧]

ثم نأتي إلى النص الثالث، وهو «قصيدة في مدح مدينة رعمسيس، تعرف بالقصيدة الكبرى»، لنستمع إلى الشاعر يقول:

لقد بنى جلالته لنفسه «قلعة» تسمى:
عظيمة الانتصارات.
وهي «واقعة بين فلسطين ومصر»،
وهي ملأى بالذخيرة والأرزاق،
وهي مثل أرمنت (مدينة بصعيد مصر [المؤلف]) وخلودها كخلود منف.
فالشمس تشرق في أفقها وتغرب فيها،
وجميع الناس يهجرون مدنهم ويسكنون في ربوعها،
حيُّها الغربي معبد آمون،
والجنوبي معبد الإله «سوتخ»،

[١٧] نفسه: ج١، ص٣٨٤، ٣٨٥.

والإلهة عشتار في شرقها،
والإله «بوتو» في الجهة الشمالية منها،
والحصن الذي في وسطها مثل أفق السماء.
ورعمسيس محبوب آمون إله،
ومنتو في الأرضين رسول،
وشمس الأمراء وزير له وفرح لمصر،
ومحبوب آتوم محافظ تذهب الدنيا إلى سكنه.

ورئيس «بلاد الخيتا» (تركيا الآن [المؤلف]) الأعظم يكتب إلى ملك بلاد كدى:

تجهز لنسرع إلى مصر حتى يمكننا القول: إرادة الإله تنفذ،
وحتى يمكننا أن نتكلم كلامًا جميلًا أمام رعمسيس؛
«إنه يعطي نفس الحياة من يريد»،
وكل بلد يحيا حسب رغبته،
وبلاد الخيتا تعيش حسب إرادته فقط.
وإذا لم يتسلَّم الإله (يقصد رمسيس [المؤلف]) قربانه منها
فإنها لا ترى مطر السماء.
وذلك في استطاعة وسر مارع (أي رمسيس)
الثور الذي يحب الشجاعة؛
الإله الطيب مثل منتو المظفر
الذي ولد من رع،
طفل ثور هليوبوليس
الذي يقف في ساحة القتال ويحارب بشجاعة،
مثل الواحد القوي في سفينة السماء حاكم الأبدية.
وهو الذي كان ملكًا وهو في البيضة (أي وهو في رحم أمه)
مثل جلالة الإله حور،
وقد استولى على الأرض بانتصاره،
وأخضع الأرض بخططه.

والشعوب التسعة وطئها بأقدامه.
وكل الشعوب الأجنبية تساق بهداياها،
«وجميع الممالك تسعى إليه على الطريق الوحيد»،
ليس له خصم،
وأمراء البلاد الأجنبية لا قوة لهم،
يصيحون كالماعز الوحشية ذعرًا منه.
إنه يدخل بينهم كابن نوت؛
فيسقطون أمامه خوفًا من نفَسه الناري.
اللوبيون يتساقطون لذبحه إياهم،
والناس يسقطون بنصل سيفه.
وقد مُنح قوته إلى الأبد،
وإرادته تحيط بالجبال.
آه يا رعمسيس محبوب آمون رب القوة،
يا من يحمي جنوده،
أنت يا ابن آمون أيها الجسور،
أيها الثور القوي الذي يثني المتحالفين ضده،
ويقف ثابتًا على عربته الحربية مثل رب طيبة؛
قوته تقهر كل الممالك الأجنبية،
ويخترق الأراضي باحثًا عن مهاجميه،
ونداؤه الحربي للموقعة يؤثر في قلوب من يخافون وجهه.
هو الحاكم الطيب اليقظ الممتاز النصيحة،
هو الذي «يضع اسمه في كل الأراضي»
بوصفه الفرد الشجاع.
نعم يا ملك الأرضَين وربهما مثل جلالة الإله حور،
إن أمراء الأرض قد أصبحوا في وجلٍ منك،
...
...
وجنوده الشردانا (من جزيرة سردينيا بالمتوسط) الذين حملتهم إلى بلادك بقوتك؛

يأسرون لك رجال الصحاري.
ما أجمل ذهابك إلى طيبة،
وعربتك الحربية مثقلة بالأيدي،
ورؤساء القبائل يمشون أمامك مكبلين،
وستقودهم إلى والدك المبجل آمون ثور أمه!
يا قصر سيسي الذي تُكرَّر فيه الأعياد،
يا عرش تنن إنك تضيء مثل (ثقب)
كآتوم،
كمصباح والدك رع.[١٨]

هذه نصوص البرديات الثلاث التي دمجها بروجش موجزة، ليأخذ عناصرها الأساسية لبحثه، وأهمها أن مدينة رعمسيس «كانت ميناءً عظيمًا، تقع على بحر»، وكانت مقرَّ علية القوم، حيث قصور وضيافة الملوك الأجانب، ومليئة بالخيرات، «وتقع بين مصر وفلسطين، وإنها آخر كل أرض مصرية، وبداية كل أرض فلسطينية، وإنها الطريق الوحيد بينهما»، وهو ما يعني وقوعها على أطراف الدتا الشرقية، «وأنها تتصل بقناة تمدها بالمياه العذبة»، وفي محيطها مجموعة بحيرات ومستنقعات.

ويتطابق وصف التوراة للمدينة، بحسبانها ميناءً يقع على بحر سوف، مع النصوص المصرية التي أكدت من جانبها أنها كانت ميناءً دوليًّا، وهي النتائج التي وصل لها المؤرخون من دراسة النصوص المصرية، التي تتعلق برمسيس وتم إيجازها في القول: «من خلال وصف مدينة بر رمسيس يمكننا أن نستنتج «أن تلك العاصمة كانت تقع على أحد فروع النيل، وأن ثغرها كان يستقبل أسطول البلاد التجاري والحربي»، يرسو فيه ويبحر منه عند قيامه بالغزوات الحربية أو البعثات التجارية.»[١٩]

ويرى بروجش أن بناء مدينة بهذه المواصفات، لا شك قد احتاج إلى عمالةٍ ضخمة، وهو ما يراه بروجش شرحًا يوافق ما ذكرته التوراة، عن استعباد بني إسرائيل في بناء مدينتَي فيثوم ورعمسيس.

---

[١٨] نفسه: ج٢، ص٢١٥–٢١٧.
[١٩] كامل: ١٠١.

ثم ينتقل بروجش إلى نتائج حفائر المصرولوجيست ماريت في خرائب مدينة صان الحجر، في أقصى شمال شرقي الدلتا قرب بحيرة المنزلة، حيث عثر ماريت على تمثالَين للملك رعمسيس الثاني عليهما نقوش، تؤكد أنه قد بنى مدينة باسمه، ويرى أن تلك المدينة هي صان الحجر، وأنها هي المعروفة لدى اليونانيين باسم «تانيس».

وقد حظيت صان الحجر بعدة حفائر على يد المصرولوجيست الشهير بيير مونتييه، ومن بعده على يد البعثة الفرنسية برئاسة جان بويوت من معهد آثار جامعة باريس، وقد تمكَّن مونتييه من اكتشاف مجموعة مقابرَ مشيدة في صان الحجر من أحجار الجرانيت، كما تم التعرف على مقبرتَين ملكيتَين للملك بشنس الأول والملك شيشنق من الأسرة الليبية التي حكمت مصر، وهي الأسرة الثانية والعشرون.

ويرى بروجش أن «صان الحجر هي ذات مدينة تانيس، هي ذات مدينة صوعن» المذكورة بالتوراة، ثم يلجأ إلى نقش على جدار هيكل الكرنك عن مدينة رعمسيس، يرجع إلى زمن ستي الأول أبو رعمسيس الثاني، حيث يمكن رؤية «جانبي المدينة مرفوعين على شاطئ ومتصلين بقنطرة»، مع رسومٍ توضيحية زيادة في الشرح، حيث نرى على جهة من القنطرة تمساحًا ونباتاتٍ نيليةً نهرية، ليعرفنا الفنان أن المدينة تقع على أحد فروع النيل، وعلى الجهة الأخرى رسم الفنان أسماكًا بحرية، ليعلمنا أنها تقع من الجانب الآخر على بحرٍ مالح، ويرى بروجش أن تلك المدينة، قد اكتسبت أهميتها الخاصة، لوقوعها على طرف بداية الطريق الكبير الموصل لفلسطين، ويقول إنه بجوار هذا الطريق كانت توجد بئر، ذكرها الرومان باسم مجدولان، ويراه بروجش هو مجدل المذكور بالتوراة عند موقع الخروج من البحر «أمام فم الحيروث بين «مجدل» والبحر أمام بعل صفون» (خروج، ١٤).

ويعتقد بروجش جازما أن مدينة رعمسيس هي صوعن، هي صان الحجر هي تانيس الشهيرة في التاريخ، وأنها كانت عاصمة مديرية من مديريات شرقي الدلتا أو عاصمتها جميعًا، «وأن اليونان أطلقوا عليها اسم «تراموس تانيسيس»». ويرى أن جغرافيتها تجعل جزءًا كبيرًا منها يقع على الشاطئ الشرقي لفرعٍ نيلي، وغربها يقع على بحيرة المنزلة، بينما تتماسُّ حدودها الجنوبية مع إقليمٍ آخر من مديريات شرقي الدلتا، هو المعروف باسم «توكو» أو «توكوت»، وهو الذي أشارت إليه التوراة باسم «سكوت»، وأن المؤرخين اليونان أسموا هذا الإقليم باسم «سيتوزيدس»، ويؤكد أن الآثار المكتشفة أسمت هذا الإقليم باسم بي توم، وهو المذكور في التوراة باسم فيثوم.

ثم يدعم نظريته في أن رعمسيس هي صان الحجر، برسالةٍ محررة على بردية بمتحف ليدن من كاتبٍ حكومي يدعى كويسرا/كويس رع إلى رئيسه بيكوبتاح زمن رمسيس الثاني يقول فيها محررها كويسرا:

> وقد أطعت الأمر الذي أصدره سيدي فأعطيت قمحًا للعسكر «والإسرائيليين»، الذين ينقلون الأحجار إلى حصن رمسيس العظيم، تحت ملاحظة إفمان رئيس الضباط، وأعطيتهم القمح كل شهر طبقًا للأمر الصادر إليَّ.

ومن ثم يستنتج بروجش أن «عاصمتَي الإقليمين: إقليم صان الحجر وعاصمته رعمسيس أو تانيس، وإقليم سكوت وعاصمته بي توم أو فيثوم، كانا يتصلان ببعضهما عند جنوبي بحيرة المنزلة»، وأن هناك أقيمت حصون ظل بعضها موجودًا حتى بعد مرور عشرة قرون إلى زمن اليونان بمصر، حيث نسب المؤرخون اليونان بناء حصن مجدولان للفرعون الشهير سيزوستريس، الذي يرى بروجش أنه رمسيس الثاني تحديدًا، وقد تأكد من وجود ذلك الحصن «مجدل»، من وثيقة تعود لزمن مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، وكان يحمل اسم حصن مرنبتاح، والرسالة محررة على بردية بالمتحف البريطاني، ويقول نصها:

> كن مسرور الخاطر يا سيدي، فإن «قبائل بدو آدوم» قد مروا بحريةٍ تامة من «حصن الفرعون مرنبتاح»، الذي في «إقليم سوكوت» بالقرب من برك «مدينة بيثوم»، التابعة للملك مرنبتاح الموجودة في أرض سوكوت، وقد صرف لهم ولدوابهم الزاد، الذي هو أرزاق فرعون شمس العالم.

ويعود بروجش إلى اسم المقاطعة التي سكنها الإسرائيليون بمصر، وجاءت باسم جاسان في التوراة، محاولًا العثور عليه على خريطة الدلتا الحالية، فيقول إنه الإقليم الذي أطلق عليه اليونان اسم الإقليم العربي، ويسمى اليوم الصهرجية (بحثنا من جانبنا فلم نجد أية صهرجية، لكن ربما كان بروجش يقصد صهرجت الكبرى وصهرجت الصغرى إلى الجنوب من الموضع الذي يتحدث عنه وليس عند صان، وصهرجت الكبرى قرية تابعة لمركز كفر شكر بالقليوبية، وصهرجت الصغرى قرية تابعة لمركز ميت غمر بالدقهلية، والاثنتان تقعان على الرياح التوفيقي، ولا تزيد المسافة بينهما على ١٥كم [المؤلف])،

وكانت عاصمة هذا الإقليم تلك المدينة التي أسماها اليونان «فاقوسة»، «وهي الآن صفط الحنة بجوار الزقازيق وبسطة»، وقد تم العثور على آثار في صفط الحنة، تشير إلى أنها كانت في إقليم مصري قديم اسمه «جوسيم»، ويرى أن المؤرخين قد خلطوا بين اسم «جوسيم» أو فاقوسة الموجودة في صهرجت، وبين اسم مدينة رعمسيس التي هي عنده صان الحجر، أما جوسيم فقد صارت فاقوسة بعد ذلك، بإضافة حرف «فا» أو «با» أو «بي» المصرية المعتادة لأسماء البلدان مثل «بي رعمسيس» ومثل «بي» التي أضيفت إلى توم فأصبحت «فيثوم»، وعليه أصبحت جوسيم «فاجوسيم» التي أصبحت «فاقوسه» التي هي جاسان التوراتية.

ويرى بروجش أن القوم الذين ذكرتهم المدونات المصرية باسم الخالو وكانوا يستقرون هناك، هم بعض الساميين الفينيقيين الذين سكنوا جاسان كجاليةٍ أجنبية، وأنهم وراء إطلاق التسميات السامية على مواضع تلك المناطق المصرية؛ لأن مجدل كلمة عبرية تعني حصنًا أو قلعة، وسكوت كلمة عبرية تعني المخيم أو العشش أو المظلات، وصان هي التي كتبتها التوراة صوعن.

ويسير بروجش مع الخارجين من مدينة رعمسيس، فيتبع الطريق الفرعوني الكبير (طريق حورس الحربي)، المحاذي للبحر الأبيض المتوسط، وأنه قد خرج معهم لفيفٌ كثير حسب التوراة، وهم عنده الفينيقيون/الخالوا، وأنهم استراحوا في أول محطة هي سكوت في إقليم بي توم، ومن هناك اتجهوا شرقًا نحو الصحراء أسمتها التوراة إيتام، لكنهم عادوا لتجنب الطريق الكبير المعروف، ليس لأنهم كانوا يخشون حربًا كما قالت التوراة؛ إنما لأن موسى كان يعلم بمعاهدة السلام التاريخية، التي ربطت مصر بمملكة الحيثيين زمن رمسيس الثاني، والتي تنص على إعادة الرعايا الهاربين من إحدى المملكتين إلى الأخرى.

ومن جانبنا رأينا إيراد ذلك البند من بنود الاتفاقية

المعروف أن حربًا طاحنة قد جرت بين مصر وتركيا، قادها رمسيس الثاني ضد حاتوشيليش الثالث ملك خيتا (بلاد الحيثيين)، لوقف اعتدائه على أملاك مصر في آسيا، وكان ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثاني، وانتهت المعارك بمعاهدة

سلام هي الأولى من نوعها، دُوِّنت بنودها على لوحٍ فضي، وضع عند قدمَي الإله رع، وتم العثور عليه بمصر، بينما حمل الوفد الحيثي النسخة المدوَّنة بالحيثية على لوحٍ فضي، وتم وضعها عند قدمَي إله العاصفة الحيثي تيشوب، وقد عُثر عليها بدورها.

«وتقول فقرة بالمعاهدة في نصها الحيثي»:

> هذه كلمات رعمسيس الثاني ملك أرض مصر العظيم قاهر جميع البلدان، ابن منمورا (اسم العرش لأبيه ستي الأول)، الملك العظيم، ملك مصر القاهر. قالها إلى حاتوشيليش الملك العظيم، ملك بلاد الحيثيين، الشجاع ابن مورشيليش الملك العظيم ملك بلاد حاتي، بالنسبة لنا فإننا إخوة والسلام بيننا قد عقد، وسيكون خيرًا من الأخوة.

«أما البند الذي يقصده «بروجش» فقد جاء مدونًا بالوثيقة المصرية يقول»:

> إذا هرب نبيل من بلاد الحيثيين، وجاء إلى رعمسيس العظيم إلى بلاد مصر، كي يدخل في خدماته، سواء كان رجلًا أم مدينة (المقصود شعب أو قبيلة كبيرة [المؤلف])، فإن ملك مصر سيلقي القبض عليهم، ويرجعهم إلى ملك الحيثيين، وإذا هرب نبيل من رعمسيس ملك أرض مصر وأتى إلى بلاد الحيثيين، فإن حاتوشيليش ملك بلاد الحيثيين سيلقي القبض عليه، ويرجعه إلى رعمسيس الملك العظيم ملك مصر، أخيه.[٢٠]

وعليه فإن بروجش يرى أن موسى كان على علمٍ ببنود تبادل المارقين الواردة بتلك المعاهدة الدولية؛ لذلك فضل سلوك السبل غير المطروقة في سيناء، فعاد برجاله إلى مجدولان، ويرى أنها كانت تقع بين «الفرما/بيلوز» وبين سيله قرب القنطرة، «أما بحر سوف الذي عبروه فلا بد أن يكون سهل الطينة» جنوبي خليج الطينة وشرقي بحيرة المنزلة، فتبعهم المصريون لكن ليغرقهم مد البحيرة العالي.

---

[٢٠] سامي سعيد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م، ص٥٦، ٥٩، وقد تساءل هنا صديقي سميح عيد لماذا لا يكون هذا البند من الوثيقة كان متأثرًا بما حدث في الماضي من أحداث الخروج؟

ويستشهد بروجش على صدق نظريته بخطورة المد في تلك المنطقة، ومفاجآته الكارثية لأكثر من مرةٍ معلومة بالتاريخ، منها المرة التي ذكرها سترابون عندما ساح في مصر خلال القرن الأول قبل الميلاد، وقال فيها:

> وقد حدث في مدة إقامتي بالإسكندرية مد وجزر عظيمان، في مدينة بي لوز قرب جبل كاسيوس، فأغرق الماء تلك الجبال، حتى صار الجبل كأنه جزيرة، وكانت السفن تجري على الطريق المجاور (يقصد الطريق الموازي للبحر المتوسط على اليابسة [المؤلف]) الذي كان يمتد إلى فلسطين حيث غطَّاه الماء.

ويستشهد بشهادةٍ أخرى من ديودور الصقلي في معرض حديثه عن حملة ارتكزكثيس ملك الفرس على مصر، عندما وقع في شراك تلك المنطقة الجهنمية مع رجاله، عندما وصل زحفه إلى البركة التي تجاور سهل الطينة حيث منطقة المهالك، وهناك فقد جانبًا كبيرًا من جيشه في هذا المكان بالتحديد.[٢١]

(٢) رأي بيير مونتييه

ومن بين النظريات الهامة التي اهتمت بحدث الخروج الإسرائيلي، وعلاقة التوراة بمصر القديمة، نظرية المصرولوجيست بيير مونتييه، التي طرحها في كتابه مصر والتوراة، وتعد بدورها من النظريات المشهورة، والمعتبرة بين الباحثين، ولم تزل صامدة حتى الآن، ونوجز لها هنا ملخصًا سريعًا، يبدأ مع دخول يعقوب وأبنائه إلى مصر زمن ولاية يوسف الخزانة المصرية، حسب رواية التوراة، وأنهم سكنوا أرض جاسان التي يجب أن تتموضع شرقي الدلتا، لاعتباراتٍ ساقها مونتييه، أبرزها «أن يوسف حسب التوراة، قد عاش في عاصمة البلاد قرب الفرعون»، وأن يوسف عندما علم بوصول أبيه حدود مصر، أسرع فركب عربته العسكرية، وتوجه للقاء أهله، ثم عاد ليخبر الفرعون، وأن ذلك «حسب التوراة السبعونية قد استغرق يومًا واحدًا»، ثم نعلم أن يوسف استسمح الفرعون لإسكان أهله بأرض جاسان، ومن المحال أن تكون جاسان في طيبة جنوبًا أو حتى في منف؛ لأن

[٢١] اقتبسها غطاس عبد الملك الخشبة في: رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٢٨–٢٤٨.

الراكب منها إلى حدود الدلتا الشرقية يحتاج أسبوعًا أو يزيد مع عدم التوقف للوصول، وليس يومًا واحدًا.

هذا بالإضافة إلى إفادات ماسبيرو عن المواصلات في مصر القديمة، التي كانت تعتمد على الإبحار في النيل وقنواته العديدة؛ لذلك كان لا بد أن تستخدم العجلات في مناطقٍ، تسمح بها على الأطراف بعيدًا عن الأنهار والقنوات، وهو شرقي الدلتا حيث الصحاري الممتدة المتصلة بسيناء، وعليه لا بد أن تقع جاسان هناك.

ويرى مونتييه أن جاسان كانت المقاطعة الهكسوسية، التي كانت تقع فيها عاصمتهم المصرية حواريس، ولا يشك مونتييه أنها هي مدينة صان الحجر الحالية، ويؤكد لمونتييه أن يعقوب وأولاده دخلوا مصر زمن الهكسوس، أنها كانت الفترة الزمنية الوحيدة التي تسمح بذلك، حيث كانت عاصمة الهكسوس تقع شمال البلاد المصرية قرب الحدود السينائية؛ ولأن عاصمة مصر قد عادت بعد التحرير إلى مقرها القديم العريق في طيبة (الأقصر) بأقصى الجنوب.

ثم يسير مونتييه مع الخارجين ليدقق موقع العبور البحري الإعجازي ويعقلنه، فيراهم ينطلقون من حواريس أو رعمسيس اللتين هما عنده مدينةٌ واحدة هي حاليًّا صان الحجر، ليسيروا بمحاذاة شاطئ بحيرة المنزلة، يريدون الطريق الحربي الكبير المعروف بطريق حورس الممتد على ساحل المتوسط نحو فلسطين، لكنهم يخشون الاصطدام بالتحصينات المصرية القوية على الحدود، وهو الذي أطلقت عليه التوراة خطأً «خشية حرب مع الفلسطينيين»؛ لأن فلسطين كانت بعيدة تمامًا، وهو ما اضطر موسى ورجاله إلى تغيير خط سيرهم من الاتجاه شرقًا إلى الاتجاه جنوبًا.

وللعثور على النقطة المفصلية وهي عبور البحر، يقف مع المحطة التي ذكرتها التوراة باسم بعل صافون، حيث عبروا عند إحداثيات حددتها التوراة بأنها «أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون»، فيرى أن «بعل صفون» كانت فيما يبدو معبدًا للإله الكنعاني، الذي يحمل ذلك الاسم، وتعني «رب الشمال»، ويعلمنا أن اليونان كانوا يدمجون «بين بعل صفون وبين الرب اليوناني زيوس كاسيوس»، وقد لاحظ أن اليونان قد أطلقوا اسم زيوس كاسيوس في زمنهم بأرض مصر على منطقة الكسارون الحالية بجوار الفرما/بي لوز على شاطئ البحر المتوسط بسيناء، وبذلك تكون هذه النقطة هي بعل صافون المذكورة بالتوراة، وأن المعبد لا شك كان يقوم هناك، على الشريط الساحلي الممتد أقصى شمال سيناء محاذيًا للمتوسط.

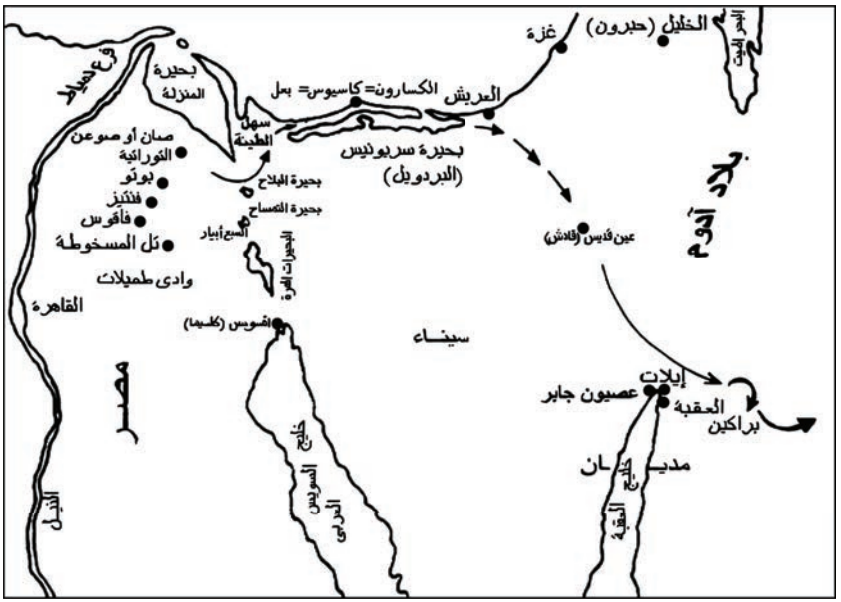

شكل ٣-٢: خريطة خط الخروج حسب مونتييه.

ويصرُّ مونتييه على متابعة التوراة، ويصدق قصة غرق أكبر جيش في العالم آنذاك إبان مطاردة الخارجين، ويجد لها تبريراتٍ جغرافية حيث تقع بحيرة «البردويل/سيربونيس» على الشاطئ السينائي، على البحر المتوسط في بقعةٍ منخفضة عن سطح البحر عدة أمتار، وعادة ما تجفُّ مياهها ويمكن عبورها دون خطر، لكن ذلك لم يمنع أحيانًا من مفاجآتٍ مهلكة للعابرين نتيجة للهبوب المفاجئ وغير المتوقَّع، لعواصفَ شماليةٍ قادمة من البحر المتوسط، وعادةً ما ذكر المؤرخون أحداثًا مأساوية حدثت للعابرين على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة، أو خلال البحيرة إبان جفافها.

ويرسم مونتييه صورةً تأملية للحدث الأكبر، فنشاهد معه الإسرائيليين يسيرون في طابورٍ طويل على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة، متَّجهين إلى الطرف الآخر نحو العريش، في الوقت الذي بدأت فيه مطاردة الجيش المصري للإسرائيليين، وفضل المصريون

عبور البحيرة إبان جفافها، ليقطعوا الطريق على الخارجين، لكنهم ما إن وصلوا وسط وعمق هذا الدن الهائل، حتى هبت الأعاصير العاتية قادمة من المتوسط، بأمواجٍ هائلة ملأت البحيرات الفارغة وأغرقت من فيها، وكان عرض البحيرة حوالي عشرين كيلومترًا وطولها سبعين كيلومترًا، مما لم يعطِ الفرصة لمن في وسطها بالوصول إلى أحد شواطئها، فلاقى المصريون جميعًا حتفهم.[٢٢]

ويذهب مونتييه مع النظرية التي تقول بالاستعباد زمن رمسيس الثاني والخروج زمن مرنبتاح، وإزاء إشكالية وجوب وجود بركان في طريق الخروج، يفسر أحداث سيناء، مع عدم وجود أثر لأية براكين بسيناء، حسب تقرير علماء الحملة الفرنسية كوتل وروزيير، ومع إصرار مونتييه على تفسير الأحداث التي روتها التوراة بضرورة وجود بركان، فقد ذهب بالخارجين بعد خروجهم من مضيق الشريط الساحلي شمال البردويل، نحو العقبة داخل الأراضي الشمالية للسعودية الآن، ليتمكن من العثور على بركان حيث كانت المنطقة هناك بركانية بالفعل حتى زمنٍ قريب.

[انظر أيضًا شكل رقم ٣-٣.]

(٣) رأي علي بك شافعي

وتُعدُّ هذه النظرية من النظريات المحترمة الجديرة بالاهتمام وبالاعتبار، في محاولة رسم سيناريو لخط سير الخروج من رعمسيس إلى سيناء، بعبور البحر الإعجازي، مع عقلنة ذلك العبور بعيدًا عن أسطورة العصا الثعبانية، ومبدئيًّا يأخذ شافعي بدوره بنظرية الخروج زمن مرنبتاح، ثم يسلم بكشوف محمود حمزة في حفائر مدينة قنتير الواقعة شمالي مدينة فاقوس، ويعتبر قنتير هي رعمسيس بشكلٍ قاطع.

ويستند إلى ما وصل إليه جوتييه حول مدينة رعمسيس، باعتبارها «كانت المقر الصيفي لملوك الأسرتَين التاسعة عشرة والعشرين»، تحاشيًا لرد نظريته بأن مقر الملك كان طيبة في الجنوب، ويروي لنا قصة عن راهبةٍ تدعى (إيثيريا)، تركت لنا حكاية أدائها

[٢٢] كاسيدوفسكي (زينون): الواقع والأسطورة في التوراة ترجمة حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠م، ص٨٠، ١١٥، ١١٦.

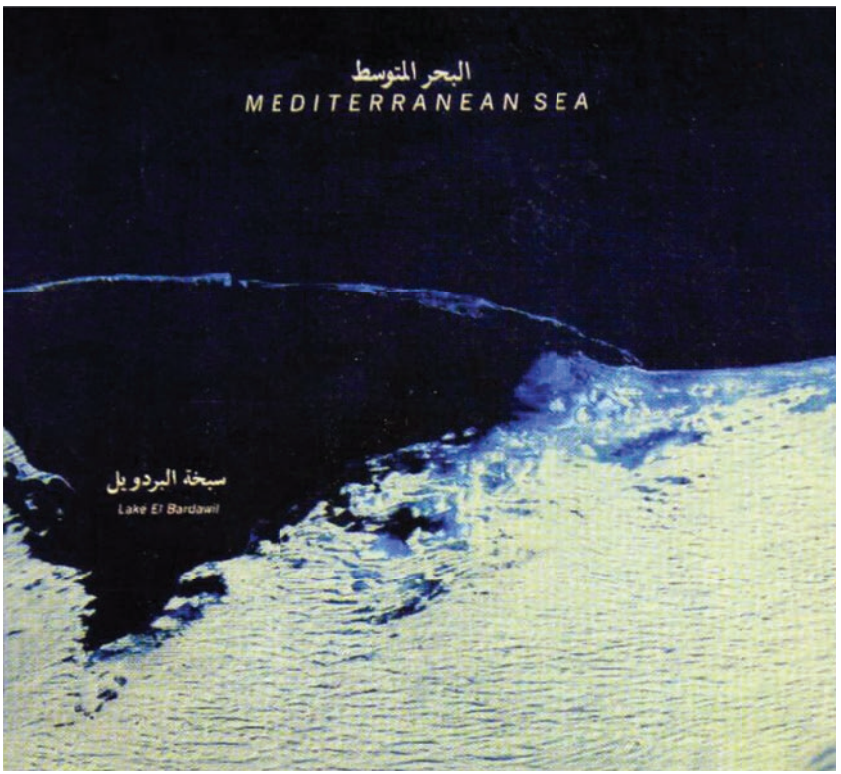

شكل ٣-٣: خط الخروج حسب بيير مونتييه من الشريط اليابس الضيق شمالي بحيرة البردويل/صورة بالأقمار الصناعية للشريط اليابس، يمتد من الغرب إلى الشرق، فاصلًا ما بين البحر المتوسط وبحيرة البردويل.

لفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين عبر مصر، وأن رحلتها بدأت من جاليا نربونيس Gallia Narbunis، ودوَّنت خط سيرها حوالي عام ٥٣٣–٥٤٠ ميلادية، وهي مودعة الآن في مكتبة أرزو، ومن خط سير تلك الرحلة يحاول شافعي أن يتعرف على مواقع الإسرائيليين بمصر ومن أين خرجوا؟

تقول الراهبة إيثيريا إن بلدة «رعمسيس، تقع على مبعدة أربعة أميال من مدينةٍ كانت تعرف في زمنها باسم أرابيا»، ويرجع شافعي إلى المصور الجغرافي الذي وضعه الأمير عمر طوسون، نقلًا عن وصف جورج القبرصي الذي عاش في القرن السابع الميلادي، فيكتشف أن «رعمسيس» كما جاءت في قائمة المقاطعات المحفوظة بأكسفورد «هي فاقوسة، لكنه لا يرى فاقوسة هي صفط الحنة»، كما هو متفَق عليه لدى المؤرخين الكلاسيك، «بل هي مدينة فاقوس الآن جنوبي قنتير بحوالي عشرة كيلومترات»، وهي إلى الشمال الغربي من سفط الحنة/فاقوسة، وعلى نفس البعد من فاقوس توجد آثار تل الضبعة ومعبد أمنمحات الأول على يمين ويسار ترعة الديدمون. ويرى علي بك الشافعي أن تلك الخرائب هي امتداد للخرائب الشاسعة، التي حدثتنا عنها الراهبة إيثيريا في قصة حجها.

تقول إيثيريا إنها عبرت «من بلدة أرابيا إلى مدينة رعمسيس لمسافة أربعة أميال» خلال حقول حتى وصلت رعمسيس، وكانت بدورها حقول دون أية مبانٍ، لكن المنطقة كانت مفروشة بأحجارٍ وآثار مبانٍ متهدمة، فقط شاهدت أثرًا كان باقيًا حتى زمانها لتمثالَين ضخمَين، ربما كان لأحد الفراعين، لكن الناس كانوا يزعمون زمن إيثريا من سكان المنطقة، أنهما للأخوين موسى وهارون؛ مما يعبر عن ذكرياتٍ قديمة لعلاقة موسى وهارون بهذا المكان، تواترت حتى وصلتهم، وتؤكد صلة الإسرائيليين بهذه المنطقة من مصر، وعليه فلا بد — عند شافعي — أن تكون رعمسيس هي قنتير، التي كشف آثارها محمود حمزة.

ومع رحلة الخروج يسير شافعي باحثًا عن موضعٍ، يمكن أن يكون هو استراحة المحطة الأولى للخارجين المذكور في التوراة باسم «سكوت»، فيبحث في المناطق المجاورة لقنتير، ويرى أن الموضع المناسب لمدينة سكوت هو الصالحية الحالية، التي تبعد حوالي عشرين كيلومترًا إلى الشرق من قنتير باتجاه سيناء، وهي مسافةٌ مناسبة للرحلة تستوجب الراحة بعدها، لكن معنى ذلك أن يعبر الخارجون عددًا من قنوات النيل بين قنتير والصالحية، وهو ما لم تذكره التوراة، ولتبرير ذلك يقول إن وقت خروجهم كان النيل في أدنى منسوب له، حيث تتحول كثير من القنوات إلى حياضٍ جافة، ومن ثم لم يكن هناك داعٍ لكي تذكر التوراة عبور مناطقَ جافة. ومن جانبٍ آخر عمد شافعي إلى الصالحية بحسبانها سكوت المذكورة بالتوراة، اعتمادًا على ورقة أنستاسي، التي تعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، وتصف سكوت بأنها متاخمة للحدود، ويسكنها أجانب، وبها قلعة باسم «ختم» سكوت، يحتمل أنها مجدل التوراة، بينما كان الرعامسة يسكنون على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا شمال غربي سكوت/الصالحية بمدينة قنتير (في مدينة رعمسيس).

ومع شافعي نسير على خط السير بحذاء الشاطئ الأيمن لفرع النيل الشرقي، لنجده يعتمد وثيقةً أخرى من أوراق أنستاسي، وهي وثيقة تتحدث عن مطاردة عبيدٍ هاربين تقول الوثيقة:

> وبعدُ، فقد أرسلت من بلاط القصر الملكي وراء هذين العبدَين، في اليوم التاسع عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف وقت المساء، ولما وصلت حصن سكوت في اليوم العشرين من الشهر الثالث، علمت أن أخبار الجنوب تقول: فرَّا ذاهبَين ... اليوم ... من الشهر الثالث من فصل الصيف، ولما وصلت القلعة أُخبرت أن السائس قد حضر من الصحراء، وأعلن أنهما تخطيا الحدود شمالي حصن مجدول سيتي.

ولما لم يكن هناك قصور ملكية — برأي شافعي — في هذه المنطقة سوى في قنتير، فإن «سكوت يجب ألا تبعد سوى مسيرة يومٍ واحد، حسب الوثيقة المذكورة (من اليوم التاسع عشر إلى اليوم العشرين من الشهر الثالث) عن قنتير باتجاه سيناء».

أما الطريق الذي سلكوه على وجه التدقيق، فهو الممتد وراء مدينة تحنفيس القديمة، المعروفة الآن باسم دفنة (تل دفنة) ثم الفرما (بي لوز) إلى الشمال الشرقي منها، وكان هناك فرعٌ نيلي يأخذ ماءه من عند دفنة ليصل إلى تل أبو سيفا، ويفترض شافعي أن هذا التل هو محل القلعة التي حدثتنا عنها النصوص المصرية كثيرًا، وحددت مكانها أقصى الحدود الشرقية للدلتا، وأسمتها سيلة أو ثارو أو زالوا أو شور. وفي هذه الحال يجب أن تقع مجدل شرقي سيلة على أول الطريق نحو فلسطين، وكان فرع النيل الذي ينتهي إلى سيلة/أبو سيفا هو ما ذكرته النصوص المصرية باسم ماء حور أو بالمصرية القديمة سي حور، أما الفرع الأصلي الذي يتفرع منه سي حور، فكان يسمى ماء رع أو سي رع.

ولتفسير العبور من عند «فم الحيروث» يقول علي شافعي: إن حور كان الإله المحلي لمدينة سيلة/ثارو/أبو سيفا الواقعة بين بحيرة البلاح وبحيرة المنزلة، وكان الملح يستخرج من جنوب شرقي بحيرة المنزلة، حيث كان يصبُّ الفرع النيلي دون منفذ على البحر، فازدادت ملوحة الماء في هذه المنطقة، وهذا هو الملح الذي يتحدث عنه الكاتب بينبس في تقريره لسيده آمنموبي؛ وهو الموضع الذي رسمه علي شافعي على خريطته مع التعقيب: «يمكن ملؤه بالماء إذا احتاج الأمر.» وهو المكان أو المصب لماء حور، وتترجمه اليونانية «فم حور»، وهو بالضبط يساوي فونيطيقيًّا فم الحيروث المذكور بالتوراة، كموضع لعبور البحر الإعجازي.

والبحر الذي عبروه ذكرته التوراة باسم بحر سوف، «وكلمة سوف كلمة عبرية تعني البوص»، وهو نبات ينمو في الماء الضحل ومصبَّات الترع والمصارف العذبة والمختلطة بالماء المالح. وقد ذكر الكاتب بينبس أن رعمسيس كانت تأخذ حاجتها من البوص من ماء حور، الذي لا بد أن يكون هو بحيرة ماء حور، وأن تلك المنطقة بالتحديد هي بحر سوف.

ويبحث عن موقع مجدل، ويستند إلى وثيقة مذكرات أنتونين التي وضعته في مكان ما بين سيرابيوم عند رأس البحيرات المرة وبين الفرما/بيلوز إلى الشمال منها، وإلى المصرولوجيست بتري الذي احتسب تل الحير الحالي جنوبي الفرما هو مجدل التوراة، كما أن العرب قد بنوا في تل الحير قلعة، لا شك أنها كانت تجديدًا لمجدل المذكورة بالتوراة.

ويبقى موضع بعل صافون المقابل لموقع العبور من فم الحيروث على شاطئ بحر سوف، فيستعين علي شافعي بما كتبه الأثري نويل جيرون عن ورقتَين اكتشفتا في سقارة عام ١٩٤٠م، واحدةٌ ديموطيقية والأخرى فينيقية، وأكدت إشارات الورقة الديموطيقية أنها معاصرة للفينيقية، وأنهما كتبتا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ومضمون الورقة الديموطيقية تضرعات من شخص للإله «بعل صافون وكل آلهة دافني» أي تل دفنة، مما يعني أن بعل صافون كان الإله الرئيسي في تل دفنه، وقد عقب جيرون بالقول: إذا قبلنا اعتبار مجدل هي تل الحير، فإن بعل صافون يجب أن يكون هو إله هذه المنطقة الرئيسي.

ويخلص علي بك شافعي إلى وضع خريطة لتفاصيل مواضع الخروج، فموسى يجد نفسه هو وأتباعه في مأزقٍ شديد الوعورة، فبحيرة البوص عن يمينه «بحر سوف»، وحصن مجدل أمامه بالحامية المصرية القوية، تسدُّ عليه الطريق إلى فلسطين، بينما تحصره من اليسار مستنقعات نهاية الفرع البيلوزي للنيل، وخلفه الفرعون على رأس الجيش المصري، وفي هذه اللحظة الحاسمة تقول التوراة، إن الله أرسل ريحًا شرقيةً قوية جففت بحر سوف. ويقول شافعي إن تلك الظاهرة تتكرر هناك حتى الآن، حيث لم يزل منسوب ماء بحيرتَي المنزلة والبرلس، وهما من البحيرات الكبرى يتأثر تمامًا بالرياح، حتى إن الماء يغطي الطريق من بلطيم حتى برج البرلس، عندما تهب الرياح الغربية، بينما يجف تمامًا عندما تهب الرياح الشرقية، لكن الذي لا ريب فيه عند شافعي، أنه لم

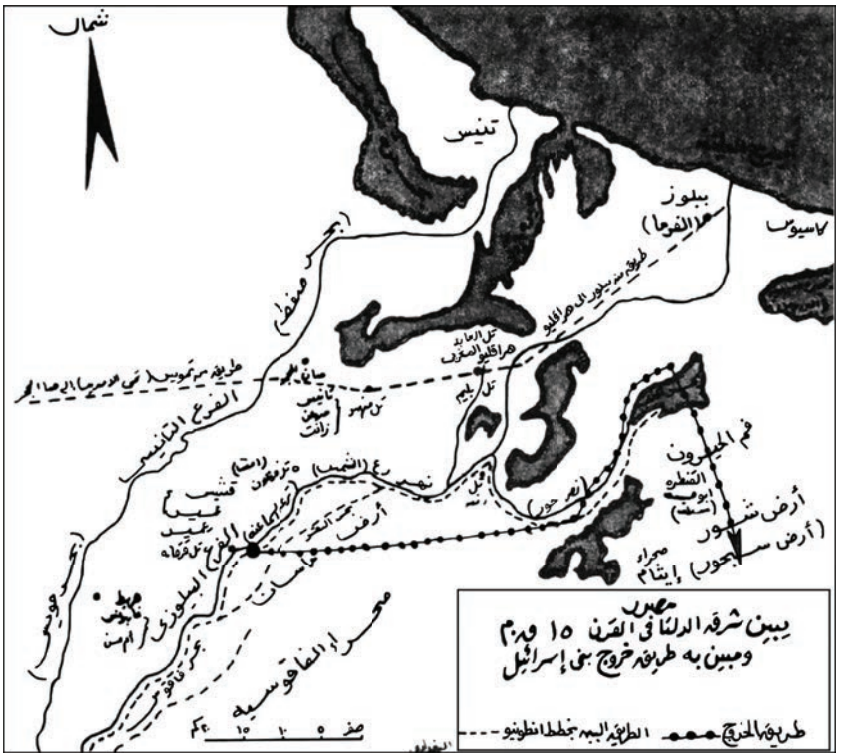

شكل ٣-٤: خريطة الخروج عند علي شافعي كما رسمها بيده.

يغرق أحد، لا الفرعون ولا جنوده؛ لأنه لا يمكن تصور الغرق في ماء ضحضاح، لا يزيد ارتفاعه مهما ارتفع عن قدمَين.[٢٣]

[٢٣] Historical Balltin, de la Societe royale de geographie d'Egypte, Tom xx1, 331, ff, notes on the pelusiac branch, The Red Sea Conal and the Reteeif The Exodus انظر أيضًا سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٧، ص١١٧.

شكل ٣-٥: خريطة للخروج توزعها الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.

شكل ٣-٦: خريطة كنسية أخرى للخروج.

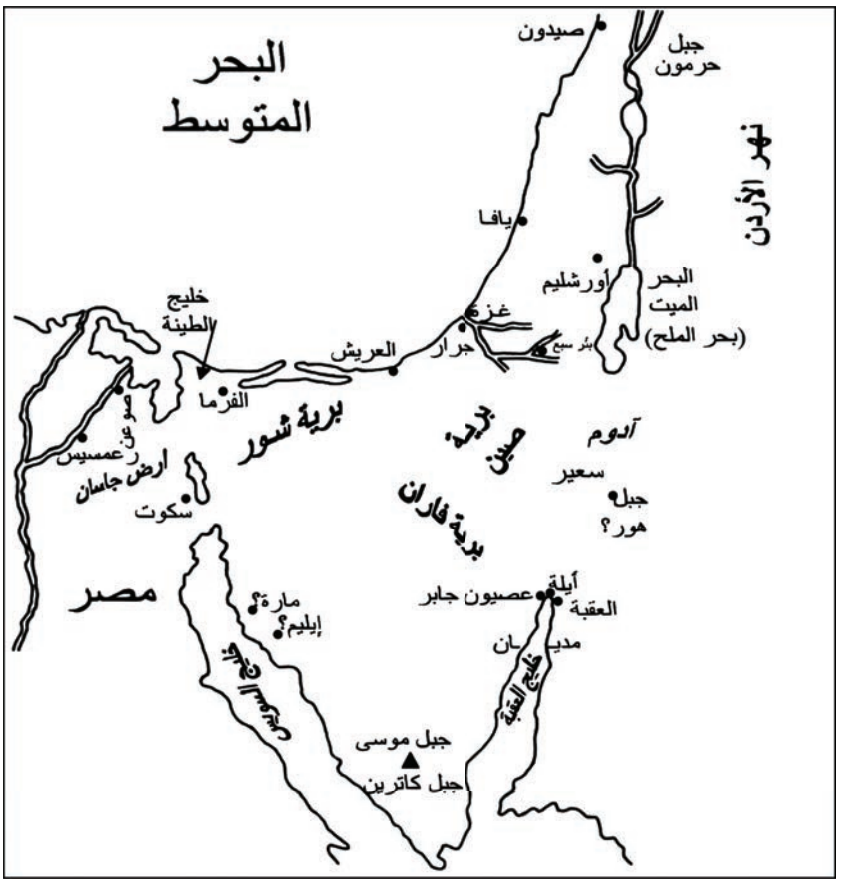

شكل ٣-٧: وتصورٌ آخر مرفق بالكتاب المقدس أعاد المؤلف رسمه بمزيدٍ من الوضوح، وعلامات الاستفهام بالخريطة دلالة شك وليست من عندنا وإنما وضعت بأصل الخريطة.

الفصل الرابع

الأخطاء الكبرى في النظريات المطروحة

أولًا: في عام ١٩٨٩م تم اكتشاف مجموعة مقابر تضم أربع عشرة مومياءَ مصرية، كان من بينها لحسن الحظ مومياء الملك مرنبتاح بن رمسيس الثاني، وكان العثور عليها شاهدًا ودليلًا على أن الرجل لم يختفِ في لجج البحر المفلوق غرقًا، وزيادةً في الاحتياط تم افتراض أنه غرق بالفعل، لكن البحر قذف بجثته إلى الشاطئ، أو أن أتباعه قد حملوه ميتًا إلى الشاطئ نظرًا لقدسيته، حيث حنطوه بعد ذلك ودفنوه؛ ولهذا الاحتمال تحديدًا تمت إحالة المومياء إلى الأطباء المتخصصين، وخضعت لبحوثٍ طبيةٍ دقيقة، إلا أن كل البحوث أسفرت عن نتيجةٍ واحدة، وهي «أن الفرعون مرنبتاح قد مات ميتةً طبيعية، بعد أن عُمِّر طويلًا، ولم يُعثَر إطلاقًا على أثرٍ لمياه البحر أو أملاحه أو أيٍّ من خواصه بالمومياء» كما لم يُعثَر على أي إشارة بالمومياء يمكن تأويلها لصالح فكرة الغرق بأي ماءٍ عذب أو مالح.

ثانيًا: بالنسبة لنظرية دي بوا إيميه ومطابقته لبحر سوف التوراتي بخليج السويس، وأن العبور تم من عند العجرود قرب السويس الآن، يعتورها بعض الخلل الواضح؛ لأن كلمة سوف تعني القصب، وهو ما يشير إلى ماءٍ تنمو فيه نباتات القصب (البوص وليس قصب السكر)، وهو أمرٌ لا يتحقق إلا إذا كان هذا الماء مالحًا، ويستقبل ماءً عذبًا من مصدرٍ نهريٍّ دائم أو متقطع بما فيه من طمي، أي أن يكون ماء مالحًا يصب فيه مصرف يحمل مياهًا عذبة، وحسب نظرية دي بوا إيميه فإن حوض القلزم الممتد من السويس إلى بحيرة التمساح، لم تظهر فيه أية آثار نيلية، مما لا يسمح بتسمية منطقة العبور عند العجرود والسويس ببحر سوف، «فهو إطلاقًا في هذه الحال لا يعرف القصب».

وعلى المستوى الجيولوجي فقد مد دي إيميه خليج السويس/العربي، ليتصل بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح، ليضع عند رأسه هيروبوليس التي رآها رعمسيس علمًا على مدينة المسخوطة، لكن جيولوجيا الأرض المصرية، رغم أنها تعترف بأن ذلك كان واقعًا حقيقيًّا، فإنها تردف أن الانفصال بين الخليج والبحيرات قد تم في أقرب التقديرات فيما قبل بدايات عصر البلايستوسين الأول، قبل زمن الخروج بأزمان، وقبل أن تعرف الأرض دولًا وحضارات وممالك.

ثم إنه إذا كانت هيروبوليس هي تل المسخوطة/أبوكيشيد الخشبي قرب الإسماعيلية الآن، مع شبه إجماعٍ الآن على أن تلك المسخوطة هي سيخوت التوراتية، التي تعني المخيم أو العشش أو الحظائر بالعبرية، والمدوَّنة بالنسخة العربية سكوت، فسيكون هناك تضاربٌ واضح يتم التعامي عنه بين هذا المعنى وبين النص التوراتي:

> «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت» نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد. (خروج، ١٢: ٣٧)

وهو ما يعني أن رعمسيس مدينة، وأن سكوت مدينةٌ أخرى، وسكوت تبدو طوال الوقت محطةٌ أولى على طريق الخروج؛ مما يعني أنها لا بد تقع في طريق الخارج من الدلتا إلى الصحراء السينائية، أي يجب أن تقع إلى الشرق أو إلى الشمال الشرقي من رعمسيس وبيتوم معًا، ناهيك عن كون الاسم: تل المسخوطة اسمًا حديثًا لا يشير إلى سكوت القديمة، وقد أطلقه الأهالي المسلمون على تل المسخوطة؛ لما بها من تماثيلَ يعتقد العامة أنها كانت لأشخاصٍ حقيقيين سخطهم الله أحجارًا، ويسقط بهذا التخريج القائل إن محطة الخارجين الأولى سكوت هي المسخوطة؛ لأن التطابق اللفظي وحده لا يكفي، بل ويتعارض مع حقائق الجغرافيا.

هذا إضافة إلى إشكاليةٍ أخرى تواجه نظرية دي بوا إيميه بشدة، فلو افترضنا أن هناك هبوطًا قد حدث بمرور الزمن في مستوى المياه منذ زمن الخروج، مع ارتفاعٍ في اليابس الموجود الآن بين بحيرة التمساح وبين البحيرات المرة وخليج السويس، وهو هبوطٌ شديد بدليل تلك المساحة الكبرى، التي تركها الخليج انسحابه جنوبًا، فلا بد أن يكون هناك هبوطٌ آخر قد حدث على التوازي في مناطقَ بحريةٍ مجاورة، حسب نظرية الأواني المستطرقة، لكن ما نعلمه يقينًا أن العكس هو ما قد حدث، والدليل يستمد من سواحل البحر الأبيض المتوسط القريبة، حيث ارتفع الماء وغطى مساحاتٍ كانت

يابسة، بل وعامرة بالمباني وبالبشر، وهو ما نقرؤه في جغرافية جمال حمدان، حيث كان يشرح جغرافية الساحل الشمالي لمصر، بعيدًا عن مشاغل موضوعنا، فيقول:

«تعرض النطاق الساحلي الشمالي من الدلتا خلال العصور التاريخية إلى حركة هبوط وانخفاض بالنسبة لسطح البحر المتوسط، أدَّت إلى غرق وضياع مناطقَ كثيرة منه، والحركة لا شك فيها علميًّا، والأدلة المادية والوثائقية والشهادات والشواهد وفيرة، مثلما هي يقينية ودامغة، لكن أسبابها وتفسيرها هي موضع الخلاف؛ فهل البحر هو الذي ارتفع؟ أم اليابس هو الذي انخفض؟ «المهم في الأمر أن البحر نفسه لم ينخفض إطلاقًا»، إنما احتمال ارتفاعه هو الوارد، والثبات في مستواه هو المقبول، حيث يُجمع الأكثرية على «هبوط الساحل الشمالي؛ مما أدى إلى غرقه تحت البحر، وتحت البحر ترقد الآن المقابر الرومانية الشهيرة بكوم الشقافة Catacombs، وكذلك المقابر البطلمية الغارقة بالشاطبي، وأيضًا أرصفة ميناء الإسكندرية القديم، وما تناثر بينها تحت الماء من تماثيلَ مهشمة، والطبقة الرومانية عمومًا تقع تحت سطح المدينة الحالي بنحو سبعة أمتار، هذا إضافة إلى غرق جزيرة أنتيرودس Antirhodes التي كانت تتوسط الميناء الشرقي القديم، إضافةً إلى ثلاث مدنٍ كلاسيكيةٍ غارقة تحت الخليج هي: هيرا كليوم ومنوتيس Menuthis وكانوب، وفي قاع بحيرة البرلس بقايا وآثارٌ متناثرة، تمثل أرضًا هابطة تشير لغزو البحر للبحيرة. وبحيرة المنزلة تعتبر أكبر متحف مائي لبقايا وأطلال القرى والمدن القديمة الغارقة» تحت البحر، والتي طغى عليها البحر وأغرقها بحسابات المؤرخ المقريزي سنة ٥٣٥م، وعلى أساس رواية المخزومي عن نشأة بحيرات الدلتا في ٩٦١ ميلادية، بواسطة طغيان مياه البحر، وينتهي بوتزر إلى أن هذه العملية كانت جزءًا من ارتفاع مستوى سطح البحر منذ القرن الثاني الميلادي.»[١]

ومثل هذه الشواهد تدحض للأسف الشديد إحدى النظريات العبقرية بشأن الخروج، ألا وهي نظرية دي بوا إيميه، كما أنها من جانبٍ آخر تدحض النظريات التي وضعت مدينة رعمسيس كميناءٍ عظيم تصله سفن العالم القديم عند موضع صان الحجر اليوم؛ لأن صان الآن تقع على مسافةٍ من بحيرة المنزلة، ومعنى أن المنزلة ازداد اتساعها ازديادًا عظيمًا خلال القرون الماضية، هو أن صان الحجر كانت على مسافةٍ أكثر بعدًا من بحيرة المنزلة، بحيث لا يمكن احتسابها ميناء على الإطلاق، ناهيك عن أمرٍ

[١] جمال حمدان: شخصية مصر، عالم الكتاب، دار نافع للطباعة، القاهرة، ج١، ص٢٠٧–٢١٧.

آخر يجب أن نعلمه، يستبعد أي إمكانية لوضع ميناء دولي على بحيرة المنزلة، ونستقيه مرةً أخرى من جغرافية جمال حمدان، فهو يحدثنا عن بحيرات مصر شمالي الدلتا وشرقها، فيقول: «إن الضحالة البالغة قاسمٌ مشتركٌ أعظم، فعمقها جميعًا يتراوح حول المتر أو أقل، وبها مساحاتٌ شاسعة يزيد عمقها عن عدة سنتيمترات، إلى درجة أن الرياح القوية كثيرًا ما تدفع مياهها وترفعها رفعًا، بل وأحيانًا ترفع مستوى المصارف التي تفرغ فيها، وأن الرياح القوية هذه إذا استمرت تجفف مئات الأفدنة فيها أحيانًا لبضعة أيام، وتهلك أثناءها بالطبع ملايين الأسماك.»[٢]

ثالثًا: لاحظنا عند بروجش أنه قد عمد لدعم نظريته إلى تلفيقاتٍ، لا تليق بعالمٍ جليل مثله، فإذا لم نعتبر إيجازه للنصوص المصرية الثلاثة بشأن رمسيس في نصٍّ واحدٍ موجز تلفيقًا، فإن التلفيق الأكيد كان في النص الذي ساقه في شكل رسالةٍ محررة، من الكاتب كويسرا إلى رئيسه بيكو بتاح حيث أوردها كالآتي: «وقد أطعت الأمر الذي أصدره سيدي فأعطيت قمحًا للعسكر «والإسرائيليين» الذين ينقلون الأحجار ... إلخ.» وقد تم هنا إبدال كلمة خطيرة عن النص الأصلي، حيث أبدل كلمة «والعابيرو» بكلمة «والإسرائيليين»، محتسبًا ببساطة أن هؤلاء هم أولئك (وهو الأمر الذي سنفصل الحديث بشأنه في موضعه من بحثنا هذا)، كما أن النص الذي أورده عن رسالة بردية المتحف البريطاني:

> كن مسرور الخاطر يا سيدي، فإن قبائل بدو آدوم قد مروا بحريةٍ تامة من حصن الفرعون مرنبتاح.

تم فيه إبدال الكلمة الأصلية «شاسو آدوم» بـ «بدو آدوم»، فالنص الأصلي حسب جاردنر هو:

> انتهينا من السماح لقبائل الشاسو الآدومية بتخطي قلعة مرنبتاح، التي في زيكو حتى بحيرات بيتوم مرنبتاح التي في زيكو، ليظلوا هم وقطعانهم أحياء بفضل إحسان فرعون.[٣]

---

[٢] نفسه: ج١، ص٨٢٠.

[٣] جاردنر: مصر الفراعنة، سبق ذكره، ص٣٠٢-٣٠٣.

(عقب هنا جاردنر بالقول إن بي توم هنا ربما كانت فيثوم التوراة، لكنه فضل وضعها في وادي طميلات.)

ومما يدحض نظرية بروجش أيضًا أنه اعتمد نصوصًا بالتوراة، وأغفل أخرى عامدًا؛ لأنها ضد نظريته، فحدد بحر سوف التوراتي بموضع خليج الطينة الآن بين الفرما وبين بحيرة المنزلة على شاطئ المتوسط، لكن ذلك يتضارب تضاربًا صارخًا مع بقية قصة التوراة؛ لأن التوراة تستمر فتقول إنه بعد عبور البحر من عند فم الحيروث، «خرجوا من بحر سوف» إلى بادية/برية باسم «شور»، ومن شور ساروا لمدة ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى موضع باسم مارة (الخروج، ١٥: ٢٢–٢٣) ثم ارتحلوا من محطة مارة إلى موضع باسم إيليم (خروج، ١٥: ٢٧)، ومن إيليم ارتحلوا «لينزلوا مرةً أخرى على بحر سوف» (عدد، ٣٣: ١٠)، وهنا تظهر المفارقة الكبرى، فلو كان المقصود ببحر سوف خليج الطينة عند المنزلة، فمعنى ذلك أن الخارجين من مصر، قد داروا بقسمٍ كبير في عمق سيناء عبر خمسة مواضع، استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر، ثم قفزوا فجأةً من إيليم دون المرور بأية مواقع، ليعودوا فجأة إلى خليج الطينة عند بحيرة المنزلة مرةً أخرى، باحتسابه بحر سوف، هذا إضافةً إلى موضع تكرر التوراة ذكره، يقع عند المواقع الأخيرة في رحلة الخروج ميناء باسم «عصيون جابر»، وذلك بعد رحيل استغرق من الزمن سنتين عبر سيناء، وتصف هذا الموضع بأنه ميناء يقع بجوار أيلة (إيلات الآن على العقبة)، ثم تصفه في مواضعَ أخرى بأنه يقع على بحر سوف، انظر مثلًا المراحل الأخيرة في رحلة الخروج تحكي:

> ثم ارتحلوا من عبرونة ونزلوا في عصيون جابر، ثم ارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا في برية صين وهي قادش. (عدد، ٣٣: ٣٥–٣٦)

> فعبرنا عن إخوتنا بني عيسو الساكنين في «سعير» على طريق «العربة» على «أيلة» وعلى «عصيون جابر»، ثم تحولنا ومررنا في طريق برية موآب. (تثنية، ٢: ٨)

وبعد قيام مملكة إسرائيل الموحدة وزمن حكم الملك سليمان يحكي الكتاب المقدس:

> وعمل الملك سليمان سفنًا في «عصيون جابر» التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض آدوم. (ملوك أول، ٩: ٢٦)

وهكذا تكشف لنا رواية التوراة في مجملها دون انتقاءات حسب رغبة الباحث، أن الخارجين كانوا طوال الرحلة لمدة سنتين بالقرب دومًا من ساحل بحر سوف؛ مما ينفي بالقطع أن يكون بحر سوف هو خليج الطينة أو بحيرة المنزلة؛ لذلك نجد تقليدًا إنجيليًّا قديمًا لا نعرف صاحبه أو كيف وصل إلينا يقول: إن بحر سوف هو البحر الأحمر بذراعيه خليج السويس وخليج العقبة، فكان البحر الأحمر بحسبانه بحر سوف موروثًا يتواتر في فلسطين زمن المسيح، وكان المحرر التوراتي لديه وثائقُ جغرافية، تؤكد أنهم داروا بحذاء سواحل البحر الأحمر السينائية من ضلعه الأيسر (خليج السويس أو الخليج العربي)، مع الاتجاه جنوبًا نحوب رأس المثلث السينائي، ثم صعودًا إلى الشمال مع ضلعه الأيمن (خليج العقبة)، حتى عصيون جابر بجوار إيلات. «إن ذلك المأثور التوراتي يتفق تمامًا وخط السير الوارد بأسفار الخروج والعدد بالتوراة، ويدحض تمامًا أية نظرية تبتعد ببحر سوف عن البحر الأحمر بذارعيه: السويس والعقبة».

وقد لاحظ «غطاس الخشبة» تلك المشكلة، لكنه تابع الرأي القائل بأن مدينة الاضطهاد رعمسيس، كانت هي صان الحجر مرة، ثم ناقض ذلك وقال إنها كانت الفرما الحالية، لكن ما يشغلنا في أمره، أنه اتفق مع بروجش وغيره، ممن قالوا إن بحر سوف ليس البحر الأحمر، إنما هو بحيرة المنزلة، وما لاحظه الخشبة هو أن خط سير الخروج كما هو بالتوراة، كان يعود بين كل عدة مواقع بالرحلة إلى شاطئ بحر سوف مرةً أخرى، ومن هنا قام الباحث بوضع عدد من الخرائط، تبين أن الخروج تم على مراحل، كان يقوم فيها كل مرة بالقفز بالخارجين فجأة، من أقصى جنوب سيناء إلى بحيرة المنزلة مرةً أخرى، بحسبانها بحر سوف، كلما مر الخارجون على هذا البحر، دون المرور بأية مواقع، كما لو كانوا قد طاروا ليعودوا إلى المنزلة، في كل مرة يعودون فيها إلى موضعٍ على شاطئ بحر سوف، ودون أية مبرراتٍ عقلية أو موضوعيةٍ واضحة لهذا الطيران غير المقبول أبدًا، ناهيك عن كونه كان يعود بالخارجين في كل دورة إلى قبضة الجيش المصري مرة إثر أخرى دون مبررات.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم أن الباحث الخشبة، قد اعتمد نظرية بروجش في كون بحر سوف هو بحيرة المنزلة، فقد استبعد رأيه في تزمين الخروج، ورفض القول بالخروج زمن مرنبتاح بن رعمسيس الثاني، وأخذ بدلًا منه برأيٍ آخر هو رأي (جارستانج)، رغم أنه لم يشر إلى هذا العالم كمصدرٍ لرأيه، ورأي جارستانج

هو أن الخروج قد حدث زمن الفرعونة حتشبسوت، والرد السهل والبسيط على ذلك، خاصة أن الخشبة يقر فكرة مطاردة الفرعونة للخارجين وغرقها في خليج الطينة عند المنزلة، هو أن خروج الإسرائيليين سواء من صان الحجر أو من الفرما، كان بأقصى الشمال الشرقي في زمن حتشبسوت، بينما كان مقر حكمها وإقامتها في طيبة بأقصى الجنوب على مبعدة حوالي ١٠٠٠كم، وهو ما يعني أن الفرعونة قد تحركت فورًا للحاق بالخارجين، لتلحق بهم بعد خروجهم من رعمسيس إلى خليج الطينة كالبرق، بينما كانت تحتاج للوصول من العاصمة طيبة حتى خليج الطينة إلى أسبوع على الأقل، بينما التوراة تؤكد لنا أنهم بعد الخروج كانوا داخل سيناء عند إيليم بعد ثلاثة أيام من خروجهم، حيث لحقت بهم جيوش الفرعونة عند فم الحيروث. الأمر هنا شديد الاضطراب ومفكك إلى حدٍّ بعيد، ولا يصمد للنقد وإعمال المنطق، لكنا لا ننكر على الرجل جهده لهذا كان محل اهتمامنا.

أما بيير مونتييه فقد أخطأ مرتين: الأولى باحتساب صان الحجر هي رعمسيس التوراتية، والثانية عندما أخذ من التوراة المقدمات حول مواضع سكنى الإسرائيليين بمصر ومواضع الخروج، ثم قرر بعد ذلك مخالفة التوراة تمامًا في بقية تفاصيل مواضع خط سير الخروج، فأسقطها جميعًا ليصل من المنفذ الشرقي لبحيرة البردويل، إلى أقرب موضعٍ بركاني شرقي خليج العقبة.

هذا ناهيك عن أن كل من ذهب ببحر سوف شمالًا إلى البحيرات المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، سواء بحيرة المنزلة كما عند بروجش، أو بحيرة البردويل كما عند مونتييه، قد أغفلوا أمرًا هامًّا، هو أن «المحرر التوراتي كان يعلم جيدًا، أن هناك فرقًا بين بحر سوف وبين البحر المتوسط وبحيراته»؛ لأنه كان دومًا يتحدث عن بحر سوف البعيد عن أرض فلسطين، وعن بحرٍ آخر يتكرر ذكره ملاصقًا لفلسطين، ويقع غربها تمامًا، يطلق عليه في أكثر من موضعٍ البحر الكبير، وهو البحر المتوسط الآن.

وقد تم تحديد حدود الأرض الموعودة بفلسطين، في عدة مواضع بالكتاب المقدس، كان حدها الغربي دومًا هو البحر الكبير، ولم يخلط المحررون ولا مرةً واحدة، بين البحر الكبير (المتوسط) وبين بحر سوف.

رابعًا: إن الاعتماد على الحفائر المصرية وحدها في البحث عن مدينة رعمسيس غالبًا ما أدى إلى نتائجَ مضللة، فكلما عثر أحدهم في الدلتا على آثار باسم رمسيس الثاني وقف ينادي: هنا رعمسيس مدينة الاضطهاد، وهو الأمر الذي من أجله حدث أول إجماع حول

صان الحجر بحسبانها رعمسيس، حيث عثر هناك على نقشٍ يقول: «آمون صاحب بر رعمسيس مرى آمون ذو الانتصارات العظيمة.» وقد احتسب ذلك دليلًا كافيًا على أن صان، كانت هي رعمسيس التوراتية، وذهب هذا المذهب مع الإجماع، رجل في ثقل جاردنر، الذي انتهى إلى أن صان هي التي ذكرتها النصوص باسم حواريس كعاصمة للهكسوس، وأن رعمسيس الثاني جاء بعد زمن، فجددها وأطلق عليها اسمه، ثم حملت بعد ذلك ولمدةٍ طويلة اسم تانيس، وأنها هي التي أطلقت عليها التوراة اسم صوعن، ثم عرفت مؤخرًا باسم صان الحجر، وقد وافقه على ذلك مصرولوجست آخر محترم هو يونكر، لكن ما لا يفوتنا هو أن ذلك النص الذي عثر عليه في صان الحجر «آمون صاحب بر رمسيس» و«مرى آمون ذو الانتصارات العظيمة»، قد أصبح الآن غير ذي موضوع، بعد اكتشاف أنه نصٌّ متكرر على آثار رمسيس الثاني في أكثر من موضع بمصر،[٤] وما يجب الانتباه إليه هنا وجود خطأٍ آخر شديد الوضوح، هو احتساب مدينة صان الحجر هي تانيس المذكورة في المصادر التاريخية؛ لأن تانيس هذه بدورها اختلف بشأن موضعها أشد الاختلاف، وليس من المقبول علميًّا إلقاء القول هكذا سهلًا: «تنيس هي صان الحجر»، مع إغفال احتمالاتٍ أخرى لموقع تنيس، لعل أشهرها ما جمعه محمد رمزي في معجمه الجغرافي للبلدان المصرية، عن تاريخ مدينة تنيس، حتى أمكنه القول:

> تنيس Tinnis من المدن المصرية القديمة التي اندثرت، تكلم عنها ياقوت في معجمه، فقال إن تنيس «جزيرة في بر مصر» قريبة من البر «ما بين الفرما ودمياط»، وبها تعمل الثياب الملونة والفرش الأبوقلمون، وبحيراتها التي هي عليها، مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم، ويكون ماؤها أكثر أيام السنة ملحًا، لدخول ماء بحر الروم (البحر المتوسط) إليه عند هبوب ريح الشمال، فإذا انصرف نيل مصر في دخول الشتاء، وكثر هبوب الريح الغربية، خلت البحيرة وخلا سيف البحر المالح مقدار بريدين، حتى يجاوز مدينة الفرما، فحينئذٍ يخزنون الماء في حباحب، أي صهاريج لهم، ويعدونه لشربهم مدة

[٤] إبراهيم محمد كامل: إقليم شرقي الدلتا في عصوره التاريخية القديمة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ج٢، ص٩١.

السنة، ولما فتحت مصر سنة ٢٠هـ، كانت تنيس حينئذٍ أخصاصًا من قصب، وكانت تعرف بذات الأخصاص إلى صدر بني أمية، ثم إن أهلها بنوا بها قصورًا، ولم تزل كذلك إلى أيام بني العباس، فبنى سورها ودخلها أحمد بن طولون في سنة ٢٦٩هـ، فبنى بها عدة صهاريج وحوانيت في السوق كثيرة، تعرف بصهاريج الأمير، وأما صفتها «فهي جزيرة في وسط بحيرة مفردة عن البحر الأعظم»، يحيط البحر بهذه البحيرة من كل جهة، فإذا تكاملت زيادة النيل غلبت حلاوته على ماء البحر فصارت البحيرة حلوة، فحينئذٍ يدخر أهل تنيس المياه في صهاريجهم ومصانعهم لسنتهم، وكان لأهل الفرما قنوات تحت الأرض تسوق إليهم الماء إذا خلت البحيرة، وبعضهم سمى تنيس باسم تونة، في حين أن تونة من أعمالها، وبالبحث تبين لي أن الجزيرة التي كانت بها مدينة تنيس، لا تزال موجودة إلى اليوم ببحيرة المنزلة، ومعروفة بجزيرة تنيس، وبها بقايا من الطوب الأحمر المتخلف من مبانيها القديمة.[٥]

ومن جانبنا قمنا بالبحث وسافرنا وراء تنيس، ووجدناها جزيرةً صغيرة عبارة عن تلال من مدينةٍ مدمَّرة، وتقع بين الفرما ودمياط شمالي البحيرة، ويعرفها الصيادون هناك باسم كوم تنيس، ثم وقعنا عند جمال حمدان على حديثٍ فاصل في مسألة تنيس يقول:

إن تنيس وحدها بحجمها الضخم وثرائها المعماري، وصناعاتها العظيمة من أفخر المنسوجات والأسلحة والصلب، وتجارتها الواسعة مع العراق بالذات، هي التي كانت تقارن بدمياط وشطا، ولقد كانت تنيس تقوم على «جزيرةٍ كبيرة المساحة»، ويتم الوصول إليها عن طريق قناة تسمى بحر الروم تنتهي إلى الصالحية، وربما كانت جزءًا من الفرع التانيسي، ولكن حتى وقتٍ متأخر كالقرن العاشر الميلادي، ظلت تنيس عامرة بالآثار العظيمة من المساجد والكنائس والحمامات بالمئات والعشرات، وحتى بعد قرنٍ آخر في القرن ١١م، ذهل الرحالة ناصري خسرو لضخامتها ورخائها، حيث وجد بها كما

[٥] محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلدان المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، القسم الأول، البلاد المندرسة، ص١٩٧.

ذكر ١٠٠٠٠ محل تجاري و١٠٠٠ سفينة في مينائها، بينما بلغ عدد سكانها الذكور وحدهم ٥٠٠٠٠ تقريبًا، وعلى الجملة كانت من أجمل مدائن مصر، والأكثر إثارة أن هذه الجزيرة لم تكن تزرع شيئًا، واعتمدت في كل غذائها وتموينها على التجارة، كانت تعيش على الصهاريج في مياه الشرب، فأثناء الفيضان كانت مياه النيل تكتسح المياه المالحة المحيطة بها، فتملأ الصهاريج الباطنية الشاسعة، حيث تخزن العام كله، ولقد ظلت جزيرة تنيس تقاوم غزو مياه البحر، لكنها عجزت عن أن تواجه منفردة غزاة البحر؛ إذ أصبحت معرضة لخطر غارات القراصنة والصليبيين من صقلية وفلسطين، فأمر صلاح الدين الأيوبي بإخلائها في نهاية القرن ١٢م، وفي أوائل القرن ١٣م هدم الكامل حصونها وسورها وسوَّاها بالأرض، وتركها مجرد كومة من الحطام، لتظل بعدها جزيرة مهجورة خربة، تعرف الآن بكوم تنيس أو تل تنيس.[٦]

وهو ذات ما قاله «إبراهيم محمد كامل»: «تل تنيس يقع حاليًّا في بحيرة المنزلة، «التي لم تكن قائمة خلال العصر الفرعوني»؛ إذ تكونت البحيرة تدريجيًّا على أثر عواملَ طبيعية، سببت هبوط الأرض في تلك الجهة، وبقايا التل تشكل جزيرة وسط المياه ذات معالم أثرية واضحة للعين المجردة. والتل هو بقايا مدينة تنيس المشهورة، التي لم يحاول الأثريون إزاحة الستار عن ماضيها المجيد. ولا شك أن المدينة القديمة تنيس كانت قائمة في العصور الفرعونية، وأنها كانت تقع على مصب الفرع التنيسي.»[٧]

«وهذا بحد ذاته ردٌّ كافٍ على من يزعمون أن بحيرة المنزلة كانت هي بحر سوف التوراتي؛ لأن البحيرة لم تكن قد وجدت بعدُ حينذاك».

ثم نجد عالم مصريات حجة هو نافيل، يرفض تمامًا أن تكون صان الحجر هي حواريس الهكسوسية، وقدم على ذلك برهانًا قاطعًا، بعد أن وجد كلًّا من البلدين مذكورًا بمفرده في قائمة آمنموبي، وهو ما لا يقبل معه احتسابهما مدينة واحدة.[٨]

---

[٦] جمال حمدان: شخصية ... سبق ذكره، ج١، ص٢١٧.

[٧] إبراهيم محمد كامل: إقليم شرقي ... سبق ذكره، ج٢، ص٣٨٦.

[٨] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٦، ص٣٨٤.

ثم اشتد نافيل في المخالفة، وذهب إلى أن رعمسيس التوراتية، هي التي كان يطلق عليها اليونان اسم فاقوسة، التي هي برأيه سفط الحنة الآن، والسبب أيضًا آثار لرمسيس، حيث تم العثور هناك على قطعتَين من الجرانيت الأسود باسم رمسيس الثاني، مع قطعتَين أخريَين من البازلت باسمه، ومن هنا «رأى نافيل أن سفط الحنة هي رعمسيس التوراة»، وأنها كانت عاصمة المقاطعة العشرين من مقاطعات الدلتا، التي عرفها اليونان باسم المقاطعة العربية «أرابيا».

هذا علمًا أن جاردنر قبل أن يذهب برعمسيس إلى صان الحجر، كان يؤكد أن رعمسيس هي بيلوز/الفرما.[٩]

أما بتري وهو حجة مصريات معلوم، فقد خالف هؤلاء وأولئك، معتمدًا أيضًا على آثار لرمسيس الثاني، تم العثور عليها في موضعٍ مخالف تمامًا، فقال إن رعمسيس هي «تل رطابة حاليًّا في النصف الشرقي من وادي طميلات غربي تل المسخوطة»، حيث عثر هناك على معبدٍ لرعمسيس الثاني، ثم على أثره يصوره وهو يضرب أسيرًا آسيويًّا أمام الإله آتوم، وأثر ثالث على هيئة تمثال جرانيتي أحمر لرمسيس الثاني والإله آتوم، عليه عبارة تقول: «عظيم الاحترام عظيم الروعة في البلدان، وعلى البلدان الأجنبية البعيدة، ملك مصر العليا والسفلى رعمسيس ابن الشمس مُعطي الحياة، الذي أوقع مذبحةً في أرض الشاسو، ونهب تلالهم وقتلهم، قد بنى مدينة باسمه للأبد.» وقد اعتبر فلندر بتري العبارة الأخيرة دليلًا قاطعًا على وقوع مدينة رعمسيس في موقع تل رطابة الحالية، خاصةً أنه قد عثر بها على غرفٍ عديدة استخدمت كمخازن، والتوراة تشير إلى أن الإسرائيليين قد استعبدوا في بناء مدينتَي مخازن هما فيثوم ورعمسيس.[١٠]

وكلما زادت مساحة الكشوف الأركيولوجية، زادت الخلافات وازداد الالتباس، فقد عثر المنقب محمود حمزة على دورٍ سكنية في حفائرَ قام بها في قنتير شمالي الزقازيق، وتبعد حوالي ١٧كم إلى الجنوب من صان، وتقع فوق تلٍّ أثري تآكل بمرور الزمن، وأصبح في مستوى الأرض الزراعية، ووجد في حفائره آثارًا من الأسرة الثانية عشرة والأسرة التاسعة والعشرين، كما عثر على أطلالٍ لقصر يخص الملك ستي الأول، أما الأهم فكان عثوره على لوحةٍ دُوِّن عليها «الإله الطيب الأسد ضد السوريين الإله الطيب حبيب سوتخ»،

---

[٩] Gardiner, J. E. A acl XIX p. 122 ff.

[١٠] سامي سعيد: الرعامسة ... سبق ذكره، ص٩٩.

وهي إشارةٌ واضحة للإله سيت، الذي كان يعبده الهكسوس في حواريس، وعبده رعمسيس الثاني في مدينته رعمسيس.

وبين الدور السكنية عثر محمود حمزة على آثارٍ كثيرة باسم رعمسيس الثاني وموظفي عهده، دُونت بكتاباتٍ هيراطيقية على كسرات فخارٍ كثير، تتضمن أيضًا اسم رعمسيس.[١١]

ونظرًا لأهمية هذا الكشف تحديدًا، نستمع إلى محمود حمزة نفسه، يعقب على حفرياته في قنتير فيقول:

«إن سيتي الأول كان أول من أقام فيها قصرًا، ليجعله مكانًا لراحته بعد عودته من حروبه في آسيا، ولما جاء عهد رعمسيس الثاني، رأى أنه تسهيلًا للقبض بيدٍ من حديد على ممتلكاته في آسيا، وتخليص البلاد من غارات الساميين المتتالية، أن يترك مقره في طيبة، ويجعله في الدلتا على مقربةٍ من فلسطين، ليقمع أي ثورة في مهدها؛ لذلك يعد من الأمور الهامة في حكم رعمسيس الثاني، انتخاب موضع قنتير ليكون مقره الملكي في الدلتا. والواقع أننا وجدنا في الحقول والبيوت، عوارض أبواب وعتب، نقش عليها اسمه، هذا بالإضافة إلى مئات القراميد والزهريات المصنوعة من الخزف، والأشكال التي كانت تؤلف جزءًا هامًّا في تزيين القصر وزخرفته، على أن وجود مئات القوالب من الفخار المطلي باسم سيتي الأول، ورعمسيس الثاني، ومرنبتاح الأول، وسيتي الثاني، ورعمسيس الثالث، ورعمسيس السابع، ورعمسيس العاشر، لبرهان على أن هؤلاء الفراعنة، كانوا يقطنون هذا القصر، الذي كان يحلى بمنتجات مصنع خاص به (مهمته تزويد القصر بالعناية المعمارية والفنية بشكلٍ دائم)، وذلك ليكونوا على اتصالٍ بأملاكهم الآسيوية. كذلك كان في قنتير معابد للآلهة آمون وبتاح وست ... وتحمل كثيرٌ من قوالب الفخار المطلي، الذي عثر عليه في قنتير باسم رعمسيس الثاني، مصحوبًا باللقب «با نتر» أي روح الإله، وأخرى تحمل طغراء[١٢] الملك مصحوبًا بالنعتَين: شمس الأمراء وحاكم الحكام. فإذا كانت قنتير هي رعمسيس، فإنه لا بد من البحث عن حواريس في مكانٍ آخر.»[١٣]

---

[١١] نفسه: ص٩٩، ١٠٠، ٢١٣.

[١٢] طغراء = خرطوشة يكتب فيها اسم الملك.

[١٣] سليم حسن: مصر القديمة، ج٦، ص٣٨٨.

ومن ثم اعتمد المهندس علي بك شافعي اكتشافات محمود حمزة، وسلم بأن قنتير هي رعمسيس، وأن فاقوس الحالية (وليس فاقوسة/سفط الحنة) هي فيثوم، ويرسم خريطة الخروج اعتمادًا على دليل سفر حج الراهبة إيثيريا، لكنه يتغافل تمامًا عن المسافة التي ذكرتها تلك الراهبة بين فيثوم ورعمسيس؛ «لأن المسافة بين فاقوس وقنتير تصل إلى حوالي ضعف المسافة، التي ذكرتها إيثيريا بين فيثوم ورعمسيس».

وحتى لا نغمط دي بوا إيميه حقه، فإن الكشوف الأركيولوجية الحديثة، يمكنها دعم وجهة نظره بعد رحيله بزمن، في أن موقع تل المسخوطة كان هو مدينة رعمسيس، فقد جاء من بعده فرديناند دليسبس، ليعثر أثناء حفر قناة السويس في موقع المسخوطة على عددٍ من التماثيل والنصب، وأشكال لأبي هول صغير تعود إلى عهد رمسيس الثاني، وهي محفوظة الآن في متحف الإسماعيلية، كذلك تم العثور على ثالوثٍ من الجرانيت الوردي لرعمسيس الثاني، جالسًا بين الإلهَين حورأختي وخبري، ولوحة أخرى من ذات المادة لرعمسيس الثاني، يقدم تمثال ماعت للإله حور أختي، ثم محراب من الجرانيت الأحمر لرعمسيس الثاني، وهو يحتفل بعيده الثلاثيني «حب سد»، وتمثالًا لابي الهول من الجرانيت الأسود، من الدولة الوسطى سبق واغتصبه لنفسه أحد ملوك الهكسوس، ثم جاء رعمسيس الثاني فاغتصبه لنفسه ثانيةً ودوَّن عليه اسمه، كما عثر على صقر يحمل طغراء الملك رعمسيس الثاني من الجرانيت الأسود.

والأهم أنه تم العثور على آثارٍ واضحة، لسورٍ ضخم من اللبن حول معبدٍ كبير، وقد جاء في رواية التوراة: «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنفٍ، ومرروا حياتهم بعبوديةٍ قاسية في الطين واللبن» (خروج، ١: ١٣-١٤)، وحديث «الطوب اللبن» متكرر في سفر الخروج، كما في الإصحاح خمسة مثلًا، وهو ما يرجح بدوره أن تكون المسخوطة هي رعمسيس التوراتية.

وهكذا كانت شخصية رعمسيس الثاني النرجسية المتضخمة، وعشقه للمعمار وانتشار هذا المعمار في مناطقَ واسعة، مدعاة لتعدد الاحتمالات حول موضع مدينة رعمسيس التوراتية، كلما وجد المنقبون اسم رعمسيس في موضعٍ من المواضع؛ ومن ثم «نؤكد مرةً أخرى أن الآثار وحدها، ليست بالقطع كافية وحدها، للفصل في مسألة أين تقع مدينة رعمسيس التوراتية؟!» وهو ما فعلته النظريات السوالف جميعًا، وكان نقطة ضعفها الأساسية، حيث اعتمدت على الآثار والحفائر وحدها.

ومن أجل وضع تصورٍ واضح أقرب إلى القبول، حول تلك المواضع التوراتية، والاتفاق مع ما لدينا من مصادرَ ومادةٍ علميةٍ هائلة، رغم تنافرها وتضاربها، علينا أن نعيد ترتيب ما بيدنا الآن من أوراق.

أولًا: أقام الهكسوس في مصر عاصمة لهم هناك، على الحدود الشرقية للدلتا، باسم يمكن نطقه متعددًا بين لسانٍ مصري وسامي ويوناني دون خلاف، هو «حوت وعرت، حوارة، هوارة، حواريس، أواريس — أفاريس، حويرة، حويلة»، وإن تلك المدينة كانت مقرًّا عسكريًّا ودينيًّا، وكان الإله المعتبر فيها هو إله الشر المصري سيت، أو كما نطقه الهكسوس «سوتخ» بتصريفه اسميًّا، وإنها بالتأكيد تقع إلى الشرق من الفرع البوباستي للنيل، حسبما جاءنا في مقبرة الضابط المصري أحمس بن أبانا، الذي حكى لنا قصة معارك التحرير، التي قادها الفرعون أحمس بن سقننرع.

- شيد الفرعون رعمسيس الثاني مدينة باسمه، أو أعاد بناءها حيث كانت قائمة قبله، ويحتمل أن تكون هي ذات مدينة الهكسوس حوايس أو لا تكون، وإلى القرب منها حسب خط سير رحلة الراهبة إيثيريا بحوالي ٤ أميال، أي حوالي ستة كيلومترات ونصف، تقع مدينة أخرى باسم فيثوم أو بي توم أو باتوموس.
- إلى الشرق من هاتين المدينتين تقع محطةٌ أولى على طريق الخروج باسم سكوت، المظنون أنها الآن الخشبي أو أبوكيشيد المعروفة باسم تل المسخوطة، وأن المسخوطة كانت تلك التي جاءنا ذكرها عند اليونان باسم هيروبوليس، أو بترجمة البعض لها «مدينة الأبطال» إلى القرب من الخليج العربي/القلزم/السويس الآن.

ثانيًا: اختلفت آراء الباحثين في تحديد موقع مدينة رعمسيس وجارتها فيثوم كالآتي:

- افترض دي بوا إيميه أن رمسيس أو ربما بيتوم، هي التي ذكرها اليونان باسم هيروبوليس، وأنها تل المسخوطة الآن، وأنها كانت ميناءً دوليًّا على قمة الخليج العربي، المعروف الآن بخليج السويس، وأن الخليج كان يمتد في ذلك الزمن ليملأ كل حوض القلزم، ويلتحم بالبحيرات المرة وببحيرة التمساح.
- افترض آخرون مثل بروجش وجاردنر أن مدينة رعمسيس هي ذات عين المدينة المذكورة بالوثائق التاريخية باسم تانيس، وأنها هي هي صان الحجر

حاليًّا، وذهب معهما ذات المذهب بيير مونتييه، إلا أن يونكر رفض توحيد حواريس — الهكسوسية — بتانيس، بعد أن وجد كلًّا منهما مذكورًا بمفرده في قائمة آمنموبي.

- رأى بتري أن رعمسيس هي تل رطابة الحالية بوادي طميلات، دون تقديم بحثٍ واضح وحقيقي.
- رأى محمود حمزة أن رعمسيس هي قنتير الحالية، مع رفضه أن تكون هي حواريس الهكسوسية، وقد تابعه على ذلك علي بك شافعي، الذي رسم وفقًا لاكتشاف حمزة خطًّا لسير الخروج الإسرائيلي من مصر.
- اعتمد نافيل على كشوفٍ أثرية بدوره، ليقول إن رعمسيس هي سفط الحنة الحالية، وكان اليونان يسمونها فقوسة، وكانت عاصمة المقاطعة التي عرفها اليونان بالمقاطعة العربية، لغلبة العنصر السامي بين سكانها، ورفض بدوره أن تكون هي حواريس الهكسوسية.

ثالثًا: إن لمدينة رعمسيس عدة مواصفات أمكن تحديدها من التوراة، من اللوحة المنقوشة على جدار الكرنك، ومن رسالة أحد الكتبة إلى سيده كاتب البلاط، ومن قصيدتَين في مديح مدينة رعمسيس، تعرفان باسم القصيدة الصغرى والقصيدة الكبرى، ومن هذه المصادر يمكن تجميع أهم الصفات والشروط للمدينة، التي نبحث عنها في موقع يجمع «مواصفات من الصعب أن تجتمع لمدينةٍ على خريطة مصر»، وهذه المواصفات كالتالي:

- نحن بحاجة إلى «موضع تتوافر فيه آثارٌ مصريةٌ قديمة، تشير إلى المدينة باسم رعمسيس بشكلٍ واضح»، وهذا شرطٌ أول، وقد أخذ به الباحثون المصرولوجيون كشرطٍ وحيد وليس أولًا؛ مما أدى إلى تضاربٍ شديد في تحديد موضعها مع تعدد المواضع، التي عثر فيها على اسم رعمسيس في آثاره الهائلة عددًا وتفرقًا.
- «يجب أن يقع هذا الموضع في أقصى شرقي الدلتا على الحدود مع البراري المتصلة بسيناء»، بحيث يكون حسب قصائد مديح رعمسيس، «آخر كل أرضٍ مصرية وبداية كل أرضٍ أجنبية» أو فلسطينية.
- إن تلك المدينة «عند طرف الطريق الوحيد المؤدي إلى خارج مصر شرقًا»، رغم تعدد الطرق إلى الشرق، وهو الأمر الذي يزيد في الالتباس؟!

- أن يسمح الموضع بقيام «ميناءٍ دولي» يستقبل سفنًا بحرية، تفد إليه بجزية بلدان العالم المعروف آنذاك، سواء تلك القادمة من آسيا، أو القادمة من أفريقيا، أي ميناء يقع على البحرين الأبيض والأحمر في ذات الوقت، وهو المستحيل عينه، فكانت تأتي إليه جزية بلاد كدى (تركيا)، وجزية السواحل الأفريقية مباشرة إلى مدينة الميناء رعمسيس!!
- أن يكون في الجوار موضع أو «قناة ماء بالتحديد، تحمل اسم شيحور» حسبما جاء في التوراة، أو باسم سيهور حسبما جاء بقصائد مديح رعمسيس المصرية.
- «أن تطل كميناء على الساحل الغربي لبحر يحمل اسم سوف»، وأن يتناسب هذا البحر في ظروفه مع اسم سوف أي «بحر البوص»، فيجب أن يكون ضحلًا، وأن يستقبل ماءً عذبًا من قناةٍ نيلية، وتلك الضحالة ستتضارب مع القول بميناء يستقبل سفنًا كبرى، وهي بذاتها مشكلةٌ مستعصية.
- «ربما كانت رعمسيس هي حواريس الهكسوسية»، وإذا لم تكن فيجب البحث عن موضعٍ مناسب لمدينة حواريس لقطع الشك باليقين.
- في جوار رعمسيس وعلى حوالي بُعد أربعة أميال، منها حسب الراهبة إيثيريا، يجب أن تقع «مدينةٌ أخرى باسم فيثوم» أو بيتوم، ويجب أن نعثر هناك على آثارٍ مصرية تؤكد ذلك، سواء بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.
- أن تقع رعمسيس وفيثوم في محيط إقليمٍ واحد، يعرف حسب المؤرخين اليونان باسم «الإقليم العربي»، وفي التوراة باسم «جاسان».
- أن نجد ما يشير إلى أن إحدى المدينتَين رعمسيس أو فيثوم، كانت «تحمل اسم صوعن» الوارد بالتوراة.
- أن يقع «إلى الشرق» من موقعنا هذا موضع يحمل اسم «سكوت يبعد بمسافة سفر يومٍ واحد، بالعربة التي تجرها الجياد»، حسبما علمنا من التوراة السبعونية، عن سفر يوسف من القصر الملكي إلى الحدود لاستقبال أهله، كما كانت سكوت محطة الراحة الأولى في طريق الخارجين، كذلك من خبر الموظف المطالب بمطاردة عبدَين هاربَين من القصر الملكي، واستغرق بدوره سفر يومٍ واحد، وهذه وثيقةٌ مصرية توافق ما قالته التوراة السبعونية، أي يجب وقوع سكوت قرب طرف الطريق للخارج من رعمسيس نحو الحدود، وأنها أول

ما يقابل الداخل من سيناء إلى مصر نحو رعمسيس، «مع وجوب وجود آثارٍ مصرية» تشهد بذلك.

- أن يقع موضعنا الذي نبحث عنه غربي بحر سوف، بينما «يقع شرق هذا البحر صحراء/برية باسم شور»، حيث إن الخارجين قد خرجوا من البحر المفلوق (سوف) إلى برية باسم شور، حسب الأسطورة التوراتية.
- إلى الشرق من موضعنا هذا بمسافة سفر يومٍ كامل، تقع مجموعة إحداثيات جغرافية على الساحل الغربي لبحر سوف، هي «مجدل وبعل صافون وفم الحيروث»، حيث تمَّ فلق البحر في الأسطورة التوراتية، بينما يقع إلى شرق هذا البحر الموضع شور.

... «وهكذا فنحن نبحث تقريبًا عن المستحيل».

الباب الثالث

نظرية المؤلف لضبط جغرافية الخروج وتاريخها

الفصل الأول

رعمسيس تلك المدينة اللغز!

نختصر الموقف من علاقة الهكسوس بالإسرائيليين، بكوننا نحتسب افتراضنا أن بني إسرائيل قد دخلوا مصر في زمن الهكسوس كفصيلٍ قبليٍّ نسيب، وهو الفرض الذي سنقيم الدليل عليه بطول هذا الكتاب.

كان آخر ملوك الهكسوس على مصر، هو الملك أسيس الملقب بلقب أبوفيس الثالث، وذلك حسبما ورد عند يوسفيوس نقلًا عن المصري مانيتو، وهو ما طابق قائمة الملوك المعروفة باسم بردية تورين، وهو الملك الأخير من الحكام الأجانب، وقلنا إنه قد بدأت الثورة ضده من طيبة، بقيادة الملك سقننرع وولدَيه كامس ثم أحمس، وحسب القصة التوراتية تمكن يوسف ببراعةٍ إسرائيلية من الوصول إلى الحظوة الملكية، فصار وزيرًا لخزانة الهكسوس في مصر، ثم تمكنت الثورة المصرية من الإطاحة بالاحتلال، ليقلب الزمان لبني إسرائيل وجهًا مخالفًا، تمثله بصدق — وتطابق على صدقنا أسفار — التوراة إذ تقول:

> «ثم قام ملكٌ جديد على مصر، لم يكن يعرف يوسف» ... فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلُّوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن: «فيثوم، ورعمسيس». (خروج، ١: ٨–١١)

النص يقول إن ملكًا جديدًا قد قام على حكم مصر، وهو أمرٌ طبيعي، وربما يعني موت الملك السابق أسيس الهكسوسي، ومجيء ملكٍ جديد، لكن النص هنا يحمل دلالاتٍ أخرى؛ لأنه لو كان الأمر قد سار على الوتيرة المنطقية للأحداث، لكان ضروريًّا أن يعرف الملك الجديد، الذي نشأ بالبلاط وعاينه وارتقى فيه المناصب، من هو يوسف ومن هم

أهله؟ خاصةً أن يوسف كان يشغل أحد أهم المناصب الكبرى في الدولة، لكن النص يقول إن هذا الملك الجديد، لم يكن صاحب علاقةٍ مباشرة بيوسف، أي إنه جاء من خارج البلاط الحاكم المعروف ليوسف حينذاك، ليس هذا فقط، بل جاء وهو يحمل ليوسف وأهله ضغينةً شديدة وكراهيةً عظيمة حتى إنه استعبدهم قصدًا نكاية وسخرهم في بناء مدينتين للمخازن: الأولى باسم فيثوم والثانية باسم رعمسيس.

لقد قالت التوراة ذلك قبل اكتشاف حجر رشيد، وفك رموز اللغة الهيروغليفية بقرونٍ بعيدة، لكنا قد أصبحنا نعرف الآن من علوم المصريات مصداقية تلك التسميات؛ لأن فيثوم هي «بر-آتوم» أو بالنطق الملتبس بالسامي «بي-توم» بإسقاط حرف الراء المعترض والثقيل، و«بر» أو «بي» أو «في» تعني المقر أو البيت أو المعبد أو المسكن أو الفم، أو المصب أو أول الطريق أو نهايته، فهي دلالة مكانية على الإطلاق، فهي بهذا المعنى تصبح «مقر آتوم»، وآتوم هو الإله المصري المعلوم الشأن، هكذا أخبرنا أصحاب علم المصريات عن مدينة «فيثوم» أو «بي توم»، أما «رعمسيس» فهي لا شك تلك التي كشف عنها علم المصريات الحديث، في المدونات المصرية التي تذكرها باسم «بر رعمسيس» أو «بي رعمسيس» أو «بي رعمسة»، حذف «ي س» وهو التصريف اليوناني المعلوم للأسماء، و«رع مس يس» هو اسم لسلسلةٍ من الفراعين حكموا مصر، بدءًا من الأسرة التاسعة عشرة باسم سلالة الرعامسة، وبإسقاط حرف «ع» بالتخفيف، يصبح الاسم هو «رمسيس» المتداول حتى الآن، كمسمى بين المصريين المسيحيين بالذات، وإن أكد لنا المصرولوجيون أن مدينة رعمسيس يجب أن تنتسب تحديدًا للفرعون العظيم المحارب وعاشق المعمار، الذي لم يترك مقاطعة في مصر، إلا وترك فيهما آثارًا باسمه والمعروف باسم «رمسيس الثاني»، وهو والد الفرعون مرنبتاح صاحب لوح إسرائيل المشهور، وبسبب ذلك اللوح تم استنتاج أن رمسيس الثاني، كان هو فرعون الاضطهاد الذي سخر الإسرائيليين الأسرى بمصر، في أعماله الإنشائية الكبرى، أما ولده مرنبتاح فكان هو فرعون الخروج الإسرائيلي من مصر زمن النبي موسى.

لكن إذا كان باني المدينة ومنشئها لأول مرة هو رعمسيس الثاني، فإن ذلك سيتضارب مع رواية التوراة حول استقرار يوسف وإخوته في مدينة رعمسيس، قبل زمن رعمسيس الثاني بزمان، منذ استقر فيها يوسف وإخوته قبل أربعة أجيال من زمن الخروج الموسوي، حسبما تقول التوراة أي قبل زمن رمسيس الثاني بـ ٤٣٠ سنة

حسب التوراة المازورية، أو ٢١٥ سنة حسب التوراة السبعونية، وهي المشكلة التي واجهت أحمد عثمان فحاول حلها بالقول: إن تسمية المدينة باسم رعمسيس، لا تعود إلى رعمسيس الثاني، إنما إلى رعمسيس آخر، خاصة أن عثمان يرفض النظرية، التي تربط بين الاستعباد الإسرائيلي وبين رمسيس الثاني؛ لذلك يلجأ إلى الضابط رعمسيس الذي أصبح فيما بعدُ رعمسيس الأول، وكان قد تولى مناصبه زمن العمارنة، ثم حكم بعد سقوط أسرة العمارنة، وبعد انتهاء حكم حور محب مؤسس الأسرة ١٩، لكنه في رأينا كان حلًّا شديد التعسف والتكلف؛ لأنه من الصعب تصور مدينةٍ مصريةٍ كبرى، تنسب في نشأتها واسمها إلى ضابطٍ صغير، لم يكن متوقعًا ماذا سيكون مستقبله حين نشأتها، ومن ثم نتصور من جانبنا، أن ما حدث هو أن المحرر التوراتي، قد ذكر المدينة بالاسم الذي كان قد استقر، وأصبح مشاعًا معلومًا زمن تدوينه ذلك النص، وهو ما ذهب إليه باحثٌ رصين مثل فراس السواح، إذ يقول: «في الحقيقة إن أرض رعمسيس ومدينة رعمسيس، مما ورد ذكره في سفر الخروج، مسألة لا يمكن الاعتماد عليها في تحديد زمن الخروج؛ لأن المحرر التوراتي قد استخدم اسم أرض رعمسيس، في الإشارة إلى منطقة الدلتا منذ أيام يوسف، أي قبل بناء مدينة رعمسيس بحوالي خمسمائة عام (أي قبل زمن رمسيس الثاني، بفرض أنه هو باني المدينة [المؤلف])، وهذا يعني أن المحرر التوراتي الذي كان يكتب سفر الخروج في فترةٍ متأخرة من الألف الأول قبل الميلاد، قد استخدم الاسم الذي يعرفه لمنطقة الدلتا، بصرف النظر عن ارتباط هذا الاسم بفترةٍ تاريخية معينة.»[١]

وبهذا المعنى أجرى «روبنسون» أبحاثه، وانتهى إلى القول: «لعل ذكر بيثوم Pithom ورعمسيس، «تفسير متأخر من كتاب القصة»، وأن القصة في صورتها الأصلية لم تسمِّ هذه المدن.»[٢]

وبالفعل فإنك تجد تسمية رعمسيس لموضع سُكنى الإسرائيليين بمصر، يبدأ مبكرًا جدًّا وليس متأخرًا مع الاضطهاد وظهور موسى، فقد كانت المدينة موجودة زمن يوسف، وزمن الدخول إلى مصر، وإذا كنا من جانبنا نؤكد أنه دخل زمن الهكسوس، فهو ما يعني أنه دخل عاصمة الهكسوس المصرية حواريس، قبل أن يحكم مصر أي فرعون باسم رمسيس، لكن المحرر المتأخر عندما كتب القصة، كتب اسم المدينة المتداول «رعمسيس»،

---

[١] السواح: آرام ... سبق ذكره، ص٧٥.

[٢] روبنسون: إسرائيل في ضوء ... سبق ذكره، ص١٠٧.

وهو الاسم الذي كان متداولًا حتى عهده، وهو ما يعني أن رعمسيس هي ذات عين حواريس الهكسوسية، والنص المقصود هو الذي يقول:

> فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكًا في أرض مصر، في أفضل أرض مصر، في أرض رعمسيس، كما أمر فرعون. (تكوين، ٤٧: ١١)

هذا عن الترجمة العربية عن النص العبري المازوري، أما النص السبعوني اليوناني، فيورد ذات الكلام مطابقًا مع اختلافٍ وحيد لكنه تأسيسي، في كلمةٍ واحدة هي اسم المدينة، التي سكنها الإسرائيليون في مصر، فبدلًا من «رعمسيس» تأتي التسمية اليونانية «هيروبوليس»، والتي تترجم عادةً ترجمة اعتباطية بمعنى «مدينة الأبطال»، فهل كانت مدينة حواريس الهكسوسية، هي بالتحديد التي حملت بعد ذلك اسم مدينة رعمسيس، أطلق عليها اليونانيون اسم هيروبوليس؟ أم أن هذه غير تلك غير الثالثة؟ هذا لغزٌ أول حول التسمية، ناهيك بعد ذلك عن تحديد الموضع الجغرافي التدقيقي، وفيه من الفروض والأقوال ما لم يلتقِ أبدًا مع بعضه البعض.

والتوراة تضع مدينة رعمسيس، وجارتها مدينة فيثوم أو بي توم، كمدنٍ رئيسية ضمن مقاطعة كبيرة، تسميها جاسان (أو باللسان العربي: غسان) فتقول:

> وسكن إسرائيل في أرض مصر في أرض «جاسان»، وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدًّا. (تكوين، ٤٧: ٢٧)

ثم لتزيدنا التوراة التباسًا تعطينا اسمًا آخر للمدينة، التي سكنها الإسرائيليون بمصر هو كما في النصوص:

> قدام آبائهم صنع أعجوبةً في أرض مصر، بلاد صوعن، شق البحر فعبرهم ونصب المياه كند ... جعل في مصر آياته وعجائبه في بلاد صوعن. (مزامير، ٧٨: ١٢، ١٣، ٤٣)

ونبدأ بالسؤال الملحاح الذي لم يجد حتى الآن إجابةً قاطعة بين مبعثرات التاريخ القديم وشظاياه: أين تقع المدينة التي اتخذها الهكسوس مركزًا عسكريًّا وإداريًّا في مصر، وجاءنا ذكرها عند المؤرخ المصري «مانيتون ق ٣ق.م.» باسم «حواريس» أو «أواريس»، أو «حواعرة» أو «هوارة» بالنطق المصري، علمًا أنها كانت تقع في مقاطعةٍ مصرية

باسم «سترويت»؟ وهو ما نقله عن «مانيتو» مؤرخو العصر الكلاسيكي أمثال يوسفيوس ويوليوس الأفريقي وغيرهم.

إن البحث عن مقاطعة الإله سيت، التي تمركز فيها الهكسوس «سترويت» في جدول المقاطعات المصرية، التي دوَّنها المصريون القدامى بأنفسهم، وعلى تغير أسمائها عبر الزمن، أمرٌ غير مجد، فقد سعينا وراء تلك الجداول، ولم نجد أي ذكر لمقاطعة باسم «سترويت».

وللحل افترضنا احتمالَين: الأول أن تكون جداول المقاطعات المصرية قد ذكرتها باسمٍ آخر، والاحتمال الثاني يرتبط بالأول، إذ يحيل الاسم «سترويت» فورًا إلى الإله «سيت»، ومن ثم يحتمل أن يكون «مانيتو» قد نحت لها اسمًا منسوبًا إلى ربها المعبود «سيت»، فأسماها «سيترويت» نسبة إليه، بمعنى المقاطعة «الستية».

وحتى الآن، ورغم ما بذل من جهود، لم يوفق علماء المصريات إلى اتفاقٍ واضح حول موضع «حواريس»، وهو في أصله المصري «حواره»، مع إضافة التصريف الاسمي «يس»، وهو التلوين اليوناني الذي لحق إله المقاطعة «سيت»، فحمل الاسم اليوناني «تيفون»، لما يجع بين الإلهين: المصري واليوناني من صفات الشر والجدب والأفعال الرديئة الحمراء، ويتضح ذلك الدأب اليوناني في إطلاق أسماءٍ يونانية على جميع المدن والآلهة المصرية الأخرى.

وتعتقد جلَّةٌ محترمة من الباحثين، أن مدينة الهكسوس «حواريس» أو «حاوعرة»، هي ذات المدينة التي عرفت بعد ذلك باسم «تانيس»، إلا أن المشكل يظل قائمًا إذ لم يتم اتفاق الرأي حول موقع «تانيس» ذاتها؟ ولم يتم الاتفاق حول موضعها بشكلٍ قاطع، وإن كان من المتفق عليه وجوب البحث عنها على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء، استنادًا إلى كون الإسرائيليين، وهم ساميون، قد عاشوا في تلك المناطق، وربما كانوا على علاقةٍ بالهكسوس، وقد رجحنا أن تكون تانيس هي القابعة تحت تل تنيس شمالي بحيرة المنزلة، وقد أطلقت التوراة على المدينة التي عاش فيها الإسرائيليون اسم «صوعن» (سفر العدد، ١٣: ٢٢) ولأن «صوعن» تعتبر عند بعض الباحثين هي ذات عين «تانيس»، فقد انتهوا بالقياس إلى أنها هي ذات «حواعرة/حواريس»، وإن كان هذا التأكيد برمته فيما يرى «جاردنر»[٣] لم يزل موضع جدلٍ شديد حول مصداقيته، التي لم تزل قائمة

[٣] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٨٧.

على افتراضاتٍ وتخمينات، وأنها تتوقف أساسًا على اليقين بأن بني إسرائيل عاشوا في «حاوعرة» الهكسوسية، وأن «حاوعرة» هي «تانيس» حقًّا، وأنها المدينة المعروفة في التاريخ والمذكورة في التوراة باسم «رعمسيس»، ومعنى «حاوعرة» في المصرية القديمة هو المدينة المتطرفة أو الواقعة على الحدود، وأسماها اليونانيون «أفاريس»، الذي حُرف إلى «أوراس» و«أواريس» و«هواريس» و«هوارة» و«حواريس»، وعادةً ما تسمى بها مدن البدو المتطرفة في مصر حتى اليوم، كما لو كانت بقية من مأثورٍ قديم، فيطلق المصريون على مدن الحواف الصحراوية اسم «الهوارة».

وسبق وأفادنا «مانيتو» أن حواريس كانت «تقع على الضفة الشرقية للفرع النيلي الدلتاوي المعروف باسم البوباسطي»، نسبة لتفرعه من جوار مدينة «بوباسطة» التي تقع على ساحله الغربي، والتي تعرف اليوم باسم «تل بسطة»، وكانت مقرًّا لتقديس الآلهة القطة «باستت»، (علمًا بأن هذا الفرع قد ضمر الآن، وحلَّت محله ترع ومصارف، مثله مثل الكثير من الفروع الكبرى الأخرى للنيل، والتي بلغ عددها أيام هيرودت سبعة فروع كبرى في الدلتا، وحدثنا عنها في تاريخه، ولم يبقَ منها سوى فرعَين رئيسيَّين هما دمياط ورشيد)، ونفس القول حول وقوع حواريس على الفرع البوباسطي للنيل، يأتي في قصة «أحمس ابن أبانا»، لتؤكده ولا تدع مجالًا للشك في ذلك، وهناك تيارٌ قوي بين العلماء كما سبق وأشرنا، يذهب إلى أن مدينة «حواريس» هي بالضبط مدينة «صان الحجر» الحالية، استنادًا إلى شواهدَ أهمها الشاهد الأركيولوجي، المعروف بلوح الأربعمائة سنة، الذي عُثر عليه بين مجموعةٍ كبيرة من الأنقاض في صان الحجر، التي تشير إلى مدينةٍ مصريةٍ كبرى، كانت تقوم في هذا المكان.

ويذكر نص اللوح الأربعمائي أميرًا باسم «رعمسيس»، يقوم على احتفالٍ كبير سمي الاحتفال الأربعمائي، فتم الربط بين «رعمسيس» هذا و«رعمسيس الثاني» من ناحية، وبينه وبين اللوح الأربعمائي من ناحيةٍ أخرى، وأخيرًا بين اللوح الأربعمائي وبين عبادة الإله «ست» في تلك المدينة، حيث معلوم أن «رعمسيس» وفراعنة الأسرة التاسعة عشرة، قد قدسوا «ست» الإله الذي سبق وقدَّسه الهكسوس في مدينتهم، حتى إن والد الفرعون «رعمسيس الثاني» انتسب باسمه إلى الإله «ست» وتسمى باسم «ستي» أي «الستي»، ومن ثم كان الاستنتاج أن «رعمسيس الثاني» قد أقام مدينة باسمه، في ذلك الموضع الذي كان يعبد فيه «ست»، وأن عبادة «ست» قد تكرست — حسبما جاء باللوح الأربعمائي — في ذلك المكان منذ أربعمائة عام سبقت «رعمسيس»، وعلى تلك الارتباطات تم الافتراض

عند جاردنر لمدة حكم الهكسوس لمصر بـ ١٠٨ سنوات، مع إضافة سني الملوك الذين حكموا مصر بعد الهكسوس حتى زمن «رمسيس الثاني»، لتكمل الأربعمائة سنة، ومسألة داية تكريس «ست»، كإله لمدينة باسم حواريس لدى الهكسوس واردة في تاريخ «مانيتو»، وأكدته «قصة الملك أبوفيس وسقننرع»، وقد برهن المصرولوجست «يونكر» على أن «ست»، كان الإله المحلي لبلدة باسم «سترت STRT»، وأنها سميت «سيترويت Sethroite» في العهد الإغريقي، والتي ذكرها «مانيتو» كمقاطعةٍ مصرية سكنها الهكسوس، وأكد «يونكر» أنها لا بد تقع في شمال شرقي الدلتا،[٤] لكن أين بالتحديد؟ لا يجيبنا «يونكر»، المهم أن علماء المصريات وضعوا استنتاجًا يقول: إن مدينة الهكسوس «حواريس»، هي ذاتها التي أعاد «رعمسيس الثاني» بناءها بعد ذلك بأربعمائة سنة، وأنها حملت اسم «رعمسيس»، وبعد ذلك أطلق عليها اليونان اسمها المشهور تانيس، وهي ذاتها التي أطلقت عليها التوراة اسم «صوعن» واسم «رعمسيس»، وقالت: إنها المدينة التي اضطهد الإسرائيليون في بنائها، وهي التي تحمل اليوم اسم «صان الحجر»،[٥] حيث عثر هناك على اللوح الأربعمائي، الذي يقول فيه «رعمسيس»، عندما كان أميرًا وقبل تنصيبه فرعونًا:

> السنة الأربعمائة من الشهر الرابع في فصل الصيف، في اليوم الرابع من حكم ملك الوجهَين البحري والقبلي ست Sotch (المقصود تكريس عبادة الإله سيت)، عظيم القوة ابن الشمس نبتي المحبوب من رع حور أختي، الذي سيبقى مخلدًا، حضر الأمير الوراثي المشرف على العاصمة، والوزير، والمشرف على البلاد الأجنبية، والمشرف على حصن شارو، ورئيس المازوري، والكاتب الملكي، والمشرف على الخيالة، ومدير عيد كبش منديس، والكاهن الأول للإله ست، والمرتل للإلهة بوتو فاتحة الأرضين، والمشرف على كهنة الإلهة ستير.
>
> لقد حضر الأمير الوراثي رعمسيس المرحوم، الذي وضعته ربة البيت المغنية تيا المرحومة، ليقول: الحمد لك يا ست بن نوت، يا صاحب القوة العظيمة في سفينة الملايين، الذي طرح الثعبان المعادي لرع أرضنا، والذي على رأس سفينة

---

[٤] سليم حسن: مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص٦٥.

[٥] Montel, Le Novelles Fouilles des Tanis, p. 15–32. انظر أيضًا: Will, The Problem of situation of Avaris, J.E.A, V. XXI, 1935, p. 11 ff.

رع، ومن صوته العظيم في الحرب، ليتك تمنحني حياةً جميلة، لأجل أن أخدمك، ولأجل أن أبقى في حظوتك.[٦]

ولنلحظ أن ذلك اللوح الأربعمائي، وحتى تدوينه ونصبه في مكانه، لم يكن يتحدث عن «رعمسيس الثاني» بوصفه فرعونًا، إنما بوصفه أميرًا وارثًا يحمل تلك الألقاب العديدة؛ لذلك ذهب الأستاذ «زيته» إلى الظن أن ذلك العيد الأربعمائي قد حدث في عهد الملك «حور محب» حوالي عام ١٣٣٥–١٣٠٨ق.م. والذي يفصله عن الملك «رعمسيس الثاني» ملكان هما: «رعمسيس الأول» و«ستي»، وربما كان «رعمسيس الثاني» إبان حكم حور محب أميرًا وقائدًا عسكريًّا مهمًا، قبل أن يتولى سدة الحكم بعد ذلك.[٧]

أما أول ذكر لمدينة «رعمسيس» باسم «بر رعمسيس»، فقد ورد في السنة الثانية لحكم «رعمسيس الثاني» حوالي عام ١٣٠٠ق.م. في نصب «أبيدوس»، الذي تعرض لأعمال «رعمسيس الثاني»، وإكماله معبد والده «سيتي الأول» في معبد «أوزيريس» بمدينته المقدسة «أبيدوس»، وقد وصف نصب أبيدوس رحلةً بحرية قام بها «رعمسيس الثاني»، حتى وصل إلى مدينة «بر رعمسيس»،[٨] وقد استنتج الباحثون من ذلك ما يؤيد رأي «زيته»، «وهو أن المدينة كانت موجودة وقتذاك، وأنها شيدت في عهدٍ سابق، وأن «رعمسيس الثاني» أضاف إليها وجدَّدها».

ويبدو أن أصحاب هذا الاتجاه الذي يرى أن «رعمسيس الثاني»، قد استكمل تشييد المدينة وأطلق عليها اسمه، وكانت تقوم على أنقاض «حواريس» الهكسوسية القديمة، وأنها هي ذات «تانيس» المذكورة بعد ذلك في المدونات، وأنها ذات المدينة المذكورة باسم «صوعن» في التوراة (انظر: متكررات منها مثلًا ما جاء في الأعداد ١٢، ١٣ من المزمور ٧٨، في قوله: «قدام آبائهم صنع أعجوبة، في أرض مصر بلاد صوعن، شق البحر، فعبرهم، ونصب المياه كسد.») وأنها جميعًا هي ذات «صان الحجر» الحالية، إضافةً لما تشير إليه تلك الأسماء من علاقةٍ لسانية، تجيز ذلك الاستنتاج ما بين «صوعن» و«صان».

وعليه فإن وجود المدينة «رعسميس» كما جاء عند «مانيتو»، وأنها كانت مدينة الهكسوس «حواريس»، معلومةٌ صحيحة مائة بالمئة، دعمتها نصوص التحرير المكتَشفة،

---

[٦] غطاس الخشبة: سبق ذكره، ص١٦٣.

[٧] سليم حسن: مصر الفراعنة، سبق ذكره، ج٤، ص٨٠.

[٨] سامي سعيد: الرعامسة ... سبق ذكره، ص٩٨.

وإن كان مكانها غير محدد باليقين حتى الآن، كذلك المعلومة الثانية حول المعبود الأول للهكسوس «ست» أيضًا صادقة مائة بالمائة، وهو ما يضيف باستمرار رصيدًا مستمرًّا لمصداقية «مانيتو» المصري السمنودي. المهم الآن أن حواريس لم يزل مختلفًا عليها وعلى موقعها أشد الاختلاف، وإن ذهبت جلةٌ محترمة من علماء المصريات إلى أن «حواريس» هذه، هي ذات المدينة التي حوَّلها رمسيس الثاني فيما بعدُ إلى مدينةٍ عامرة، وأعاد بناءها حتى كانت أزهى مدن الزمان، وأطلق عليها اسمه «رعمسيس» ... إلا أن ما يحبط أي باحث هنا، أن مدينة «رعمسيس» نفسها، والتي ذكرتها التوراة باعتبارها مدينة الاضطهاد الإسرائيلي في مصر، لم يتم الاتفاق على موقعها حتى اليوم بشكلٍ قاطع، ونعيد اختصار مجمل الاتجاهات التي تتفق جميعًا على الذهاب بها إلى شرقي الدلتا، على الحدود السينائية، وتناثرت الاقتراحات على خريطة محافظة الشرقية الحالية أو حدودها الشرقية مع سيناء، فقد ذهب «دي بوا إيميه» العالم المصاحب للحملة الفرنسية، إلى أن مدينة «رعمسيس» كانت تقع قرب مدينة «السبع أبيار» الواقعة على الساحل الغربي لبحيرة التمساح، وموضعها الآن تل المسخوطة قرب مدينة الإسماعيلية، أما «جاردنر» فقد ذهب إلى أنها «بي لوز» أو «بيلوزيوم»، المعروفة الآن بالفرما أو بالوظة إلى الشرق من بورسعيد، لكنه تراجع عن «بي لوز» واقترح مدينة «صان الحجر» الحالية على شاطئ بحيرة المنزلة الجنوبي، وذلك بعد أن ذهبت مجموعةٌ متميزة من المصرولوجيين إلى موضعتها هناك، ومن هؤلاء «يونكر» و«بروجش» و«بيير مونيتيه»، هذا بينما ذهب آخرون إلى وضعها على الخط الواصل بين شرقي الدلتا وبين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، في الوادي المعروف الآن بوادي طميلات، ومن هؤلاء «نافيل» الذي اقترح «صفط الحنة» غرب هذا الوادي موقعًا لرعمسيس، دون وضع نظرية أو خط سير واضح، وبعضهم ذهب بها شرقًا على ذات الخط، فاقترح «تل رطابة» مثل «بتريي»، وأوغل آخرون شرقًا فاقترحوا «تل المسخوطة»، كما عند دي بوا إيميه، أما آخر الاقتراحات وهو السائد الآن، فهو ما جاء بعد كشفٍ أثري كبير قام به «محمود حمزة»، واقترح معه أن تكون رعمسيس هي «قنتير» الحالية إلى الشمال من فاقوس شرقي الدلتا.

والمعنى أننا لو أخذنا بأن «حواريس» هي ذات مدينة «رعمسيس»، فإن علينا الاتفاق على موضع واحدة منهما أولًا، وحول الاسم «حواريس» فهو من الأصل «حوارة أو هوارة»، ويفيدنا «جاردنر» بأن معناه الإدارة المدنية للدولة، وإذا أخذنا بالنظرية القائلة إن الهكسوس قد كونوا إمبراطورية، فلنا أن نفترض وجود أكثر من مركزٍ إداري لهم

في المنطقة المحيطة بشرقي المتوسط، وهو ما يقود إلى افتراض وجود أكثر من «حوارة»، وهو المفتاح الذي سيدلُّنا الآن على الموضع، الذي تكرر كثيرًا في التوراة باسم «حويلة»، وما نقصده أنه لا خلاف على أن حواريس التي ذكرتها النصوص المصرية القديمة، كانت مركزًا للإدارة الهكسوسية في مصر، وأنها كانت على الطرف الشرقي للدلتا، الذي هو الطرف الغربي لسيناء، وإن لم يتمكن الباحثون من تدقيق موضعها هناك.

وكثيرًا ما ربطت التوراة بين مدينة في جنوبي فلسطين (حبرون/الخليل)، وبين حواريس المصرية، والتوراة تذكر حواريس باسمين يردان على التبادل، الأول والقديم هو «صوعن»، والثاني الأحدث هو مدينة «رعمسيس»، وتشير في تواترٍ متعدد في مناطقٍ متفرقة، إلى أن «صوعن» قد بُنيت بعد «حبرون» بسبع سنين، يبدو لنا كما سيأتي التفصيل بشأنه فيما بعدُ، أنها الفارق الزمني بين استيلاء الهكسوس تمامًا على حبرون/تاريخ احتلالهم مصر، وإقامتهم في صوعن/رعمسيس/حواريس.

الواضح لدينا على المستوى اللساني وحده (الآن)، أن «حويلة» التي تكررت في الكتاب المقدس، أنها بالتبادل بين حرف اللام والراء، باعتبارها حروف سقف حلقية، فإن «حويلة» ستكون «حويرة»، وهي المسمى الذي يلتقي تمامًا مع اسم عاصمة الهكسوس «حواريس»، بعد حذف التصريف الاسمي فتصبح «حواره»، وهي التي أطلق عليها المصريون «حواعرة»، وفي المعركة التي قادها أول ملك إسرائيلي، الملك «شاول» ضد العماليق العناقين في شبه جزيرة سيناء، يؤكد لنا الكتاب المقدس نتيجة المعركة بقوله: «وضرب شاول عماليق من حويلة، حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر» (صموئيل أول، ١٥: ٧) وهذه النتيجة تعني أن شاول بضربه مدينة العماليق، امتد تأثير تلك الضربة على العمالقة، بطول المنطقة الممتدة من «حويلة» إلى «شور» التي أمام مصر، وحتى الآن لم يتم تحديد أين تقع «حويلة» التوراتية على الإطلاق، إنما ذهب الجميع إلى تحديد «شور»، بأنها على الساحل الشرقي لبحر الخروج «سوف» مباشرة، حتى تكون أمام مصر للقادم من فلسطين أو سيناء عمومًا، استنادًا إلى مجموعة إحداثيات أعطتها لنا التوراة، حيث يتكرر ذكر «شور» مراتٍ متعددة، وأول الإحداثيات وأوضحها تأتي في أسطورة حدث عبور البحر بالعصا المعجزة، حيث نجد أول موضع ينزل به الإسرائيليون، بعد عبور البحر من الدلتا المصرية إلى سيناء، هو برية باسم شور «ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور» (خروج، ١٥: ٢٢)، مما يعني أنها على الساحل الشرقي مباشرة لهذا البحر، بينما تقع المدن المصرية العامرة غربي هذا البحر،

وكله شرق الدلتا، والمواضع المصرية على الساحل الغربي لهذا البحر كان أهمها «صوعن» أو «رعمسيس»، مدينة الفرعون التي يزعم الإسرائيليون أنهم اضطهدوا في بنائها، وعبروا من جوارها البحر في أسطورة العصا الحية، ويبدو أن هناك طريقًا كان يبدأ من الموضع شور حتى يصل إلى شرقي سيناء نحو فلسطين، أطلقت عليه العبرية «درك شور»، وجاء في الترجمة العربية «طريق شور، تكوين، ١٦: ١٧» «ولا زلنا نرتب أوراقنا فمهلًا».

الفصل الثاني

قناة سيزوستريس وهندسة المكان

هناك معلوماتٌ مؤكدة أن الفراعنة قد وصلوا النيل بخليج السويس على البحر الأحمر، وينسب المؤرخون اليونان تلك القناة للفرعون الشهير سيزوستريس، المظنون أنه ربما كان رمسيس الثاني، لكن يبدو لي وحسب فروضي، ومما جمعتُ من الأخبار غير الكاملة التي وصلتنا، أن شأن القناة أقدم من ذلك بكثير، وأنها ربما تعود إلى زمن ما يسمى بالفترة الوسطى الأولى، الواقعة بين نهاية الأسرة السادسة في الدولة القديمة وبين قيام الأسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى، حيث استغرقت تلك الفترة خمس أسرات كان من بينها أسرةٌ قوية، اتخذت من مدينة إهناسيا بمصر الوسطى عاصمة لها، وقد تلقَّبَ ملوكها باللقب «خيتي» أو «أخيتوي»، لنستمع هنا إلى «جون ويلسن» يحدثنا عن أسرة الملوك الإهناسيين، نسبة إلى إهناسيا المعروفة يونانيًّا باسم «هيرا كوبوليس» فيقول: «لقد كان العدو الذي يخشاه الإهناسيون هم الآسيويين حَمَلة القوس — رغم رنة الاحتقار في حديث الملك الإهناسي — ذلك لأن طبيعة بلادهم القاسية وما يلاقونه فيها من متاعب، تدفعهم إلى السطو على الدلتا، ويصفهم خيتي بقوله: انظر إلى الآسيوي اللعين، إن الأمور سيئة في البلاد التي يعيش فيها، فهم في حزنٍ من أجل المياه، وبلادهم من الصعب الوصول إليها «بسبب كثرة الأشجار، والطرق هناك وعرة بسبب الجبال»، ومن ثم فإن الآسيوي لا يقطن في مكانٍ واحد، وساقاه خلقتا للتجول.»[1]

[1] Wilson. J. A, ANET, p. 416.

ثم ينبِّه ولده في مجموعة نصوص، عُرفت بالعنوان «نصائح خيتي إلى ولده مري كارع»، أن يكون مستعدًّا لكل الاحتمالات، إزاء هؤلاء الآسيويين الذين يربضون على حدود الدلتا الشرقية، ينتهزون أي فرصة ضعف تبدو هناك، ومن هنا يقول «أحمد فخري» إن خيتي قام يُنبِّه ولده إلى أن يكون مستعدًّا للبدو دومًا، فمن خاف الحرب استعدَّ لها؛ ولذلك يوجه اهتمامه إلى «منطقة البحيرات المرة» لحماية مصر من خطر البدو، وينصحه بتحصين جزء منها، ثم تعمير الجزء الآخر «وإمداده بالماء»،[٢] ويعود ليؤكد على ولده: «إذا قامت بلادك في الجنوب بثورة، فإن الأجانب في الشمال سيحاربونك؛ فعليك أن تقيم مدنًا في الشمال.» بقصد إيجاد مجتمعٍ مصريٍّ مدني على الحدود يصدُّ أي اعتداءات.[٣]

ويقول «إبراهيم كامل» إن ملوك إهناسيا الملقبين باللقب أخيتوي أو خيتي «قد قاموا بتحصين الحدود الشرقية، «وإغلاق الوديان الصغيرة، إما بغمرها بالمياه عن طريق تحويل قنوات النيل إليها»، أو بتأسيس المدن المحصنة عليها.»[٤]

وإذا كان ذلك صحيحًا، فإنه يفسر لنا الإشارات القديمة الغامضة، عن وجود قناة النيل-البحر الأحمر زمن الدولة الوسطى بعد زمن إهناسيا وأخيتوي، وتلك ملاحظة «إبراهيم كامل» إذ يقول: «إن البحوث الجيولوجية وما كتبه المؤرخون القدامى من الإغريق والرومان، نقلًا عن المصريين أنفسهم، تدل كلها على أن تلك القناة كانت موجودة خلال عصر الدولة الوسطى.»[٥] كذلك نجد «مانيتو» قد وضع في قائمته للملوك ملكًا باسم «سيزوستريس» الذي سميت القناة نسبة إليه في الترتيب رقم ٣ لحكام الأسرة الثانية عشرة أول أسر الدولة الوسطى،[٦] مما يدحض الاتفاق غير المفهوم حول كون سيزوستريس هو رعمسيس الثاني. ويمد «إبراهيم كامل» الخيط على استقامته، «فيرى أن وجود القناة في هذا الزمن القديم، يفسر لنا عودة رحلة حتشبسوت من بونت عبر النيل، من الشمال مباشرة بالسفن التي أقلعت بها من القصير جنوب مصر على البحر الأحمر» ويقول: «يبدو واضحًا من واقع دراستنا لمناظر ونصوص رحلة بونت، التي أرسلتها الملكة حتشبسوت

---

[٢] أحمد فخري: مصر الفرعونية ... سبق ذكره، ص١٧٤.

[٣] Erman, The Literature of the ancient Egyption, London, 1927, p. 81.

[٤] إبراهيم محمد كامل: إقليم شرقي ... سبق ذكره، ص٢٣٧.

[٥] نفسه: ص٢٣٩.

[٦] جاردنر: مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٤٨١.

إلى تلك البلاد، أن السفن المصرية لدى عودتها من الرحلة، محملة بمحاصيل بلاد بونت، كانت تصل إلى قرب مدينة منف، حيث بدء القناة، ثم تبحر في النيل مُصعِدة حتى مدينة طيبة، عاصمة البلاد في ذلك الوقت.»[٧]

ويؤكد هذا المعنى، أنه قد تم العثور في تل رطابة بوادي طميلات إلى الغرب من تل المسخوطة، على «أثرٍ يرجع إلى الملك خيتي» من الأسرة الحادية عشرة من الفترة الوسطى الأولى، وهنا يتساءل المؤرخون: «ولكننا لا ندري إن كان هذا الأثر مؤكدًا قد نقل إلى البلد، أم أن «تاريخها (أي تاريخ تل رطابة) يرجع لعصرٍ سابق لعصر رعمسيس الثاني»، وإن كان هذا غير مؤكد.»[٨]

وفي أكثر من موضعٍ في كتاب الموتى، نستمع إلى إشاراتٍ حول ما يُسمى بالبحيرة «المزدوجة» المقدسة في أكثر من موضع،[٩] وفي اللوحة الرابعة من الفصل السابع عشر، بذات الكتاب نشاهد «كهنةً مصريين يقومون بواسطة الحيات بمعجزة فلق بحيرة ما».

(انظر شكل رقم ٢-١.)

ربما تلك البحيرة المزدوجة تحديدًا، والتي نعتقد من جانبنا أنها بحيرة التمساح تحديدًا، وأن قناة سيزوستريس المشهورة كانت تصب هناك.

للتيقن من هذا الفرض، نبحث فنعثر على خبر من زمن آمنحتب الثالث، آخر يفيدنا علمًا أن كهنة آمون عندما رفضوا أن تقوم زوجته الملكة تي بجولتها الطقوسية، كملكةٍ أولى رئيسية بالبحيرة المقدسة؛ لأنها غير مصرية الأصل، قرر آمنحتب الثالث الذي تولَّه بزوجته حبًّا، الاستمرار في سلسلة صداماته مع الكهنة، بإنشاء بحيرةٍ كبرى لهذا الغرض وصلتنا أطوالها؛ فعرضها يصل إلى ١٢٠٠ قدم أي حوالي ثلاثة كيلومترات، ويصل طولها إلى ٦٤٠٠ قدم أي حوالي ثمانية عشر كيلومترًا.[١٠]

وبالبحث في مصر عن بحيرةٍ موجودة الآن تحمل هذه المواصفات، لم نعثر سوى على بحيرة التمساح، وسنرى أن البحيرة بالفعل بحيرةٌ مزدوجة، يصل بين شقَّيها الشرقي

---

[٧] إبراهيم كامل: المصدر السابق، ص٢٤٢.

[٨] بوابة مصر الشرقية: سبق ذكره، ص١١١.

[٩] كتاب الموتى: الفصول ١٥ / ١٢ و١٣ و٥٨ / ٦ و١٧ / ٢١.

[١٠] شتيندورف وسيل: عندما حكمت مصر الشرق، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٩٧.

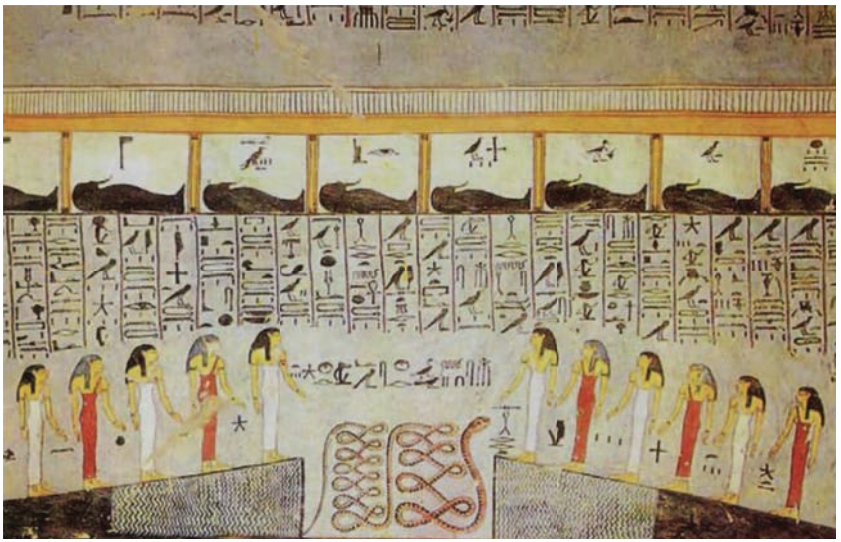

شكل ٢-١: معجزة شق ماء البحر بالعصا الحية بواسطة كاهناتٍ مصريات.

والغربي مضيقٌ ضحلٌ صغير، فلم تزل حدودها الحالية شاهدة على وضعها قبل حفر قنال السويس، ويبدو أن القسم الغربي الأصغر كان البحيرة التي تم حفرها للملكة تي، حيث تأتي أطوالها في النص الملكي بعرض ٧٠٠ ذراع أي حوالي نصف كيلومتر، وطولها ٣٧٠٠ ذراع أي حوالي ثلاثة كيلومترات، عن طريق وصله بالقناة النيلية بعد أن طمت هذه القناة بعد زمن خيتي، وكانت المنطقة بحكم طبيعتها الجيولوجية المرئية منخفضًا طبيعيًّا، لم يحتج جهدًا عظيمًا لإزالة ما تراكم بينه وبين البحر من سدودٍ ملحية، لتترك مياه النيل تنساب لتملأ منخفض التمساح، وأنه سرعان ما تسربت المياه عبر هذا المضيق إلى المناطق الواطئة إلى الشرق منها، مع فيضاناتٍ متتالية لتشكل بحيرةً أخرى أطول منها وأعرض، لتظهر لنا بحيرة التمساح بحيرةً مزدوجة قولًا وفعلًا.

ويبدو لنا أو ضع بحيرة تي في ذلك المكان، يتفق تمامًا مع منطق أن تي من تلك المناطق البدوية الشرقية — كما سنُثبت ذلك في أبوابٍ لاحقة — فهي حسب بحثنا هذا بشواهدَ وأدلةٍ غفيرة وكثيفة من أصلٍ مدياني سيناوي، ويدعم ذلك أن النص الخاص بإنشاء البحيرة يقول: «إن جلالته قد أمر بعمل بحيرة الملكة تي «عند مسقط رأسها»

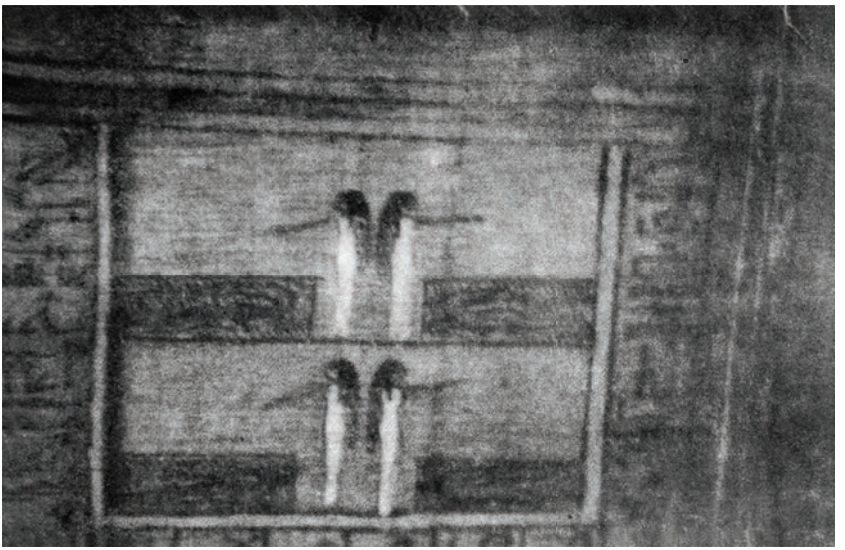

شكل ٢-٢: معجزة شق ماء عذب ربه تماسيح نيلية.

جاروخا Djarkha»، و«إن جلالته أقام احتفال «هدم السدود» في السادس عشر من الشهر المذكور، ثم أبحر في رعاية الله في مركبه الرسمي آتون المتألق.»[١١] والقول بهدم السدود يعني أنه قد تم توسيع القناة القديمة والقناة المؤدية لها، وعند الوصول إلى نقطة الالتقاء بينهما أقيم سد يمنع المياه عن السقوط في حفائر البحيرة، انتظارًا لحضور جلالة الملك ليفتتحها بنفسه، وأنه قد تم هدم هذا السد يوم افتتاح البحيرة بحضور الفرعون ومليكته العظمى، ونستمع من عبد المنعم أبو بكر للحدث كما دوَّنه المصري القديم يقول:

> العام الحادي عشر الشهر الثالث من الفصل الأول، اليوم الأول من حكم الملك آمنحوتب له الحياة وزوجته الكبرى زوجته الكبرى تي لها الحياة.

[١١] سيريل آلدريد: إخناتون، ترجمة د. أحمد زهير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م ... سبق ذكره، ص٥٤.

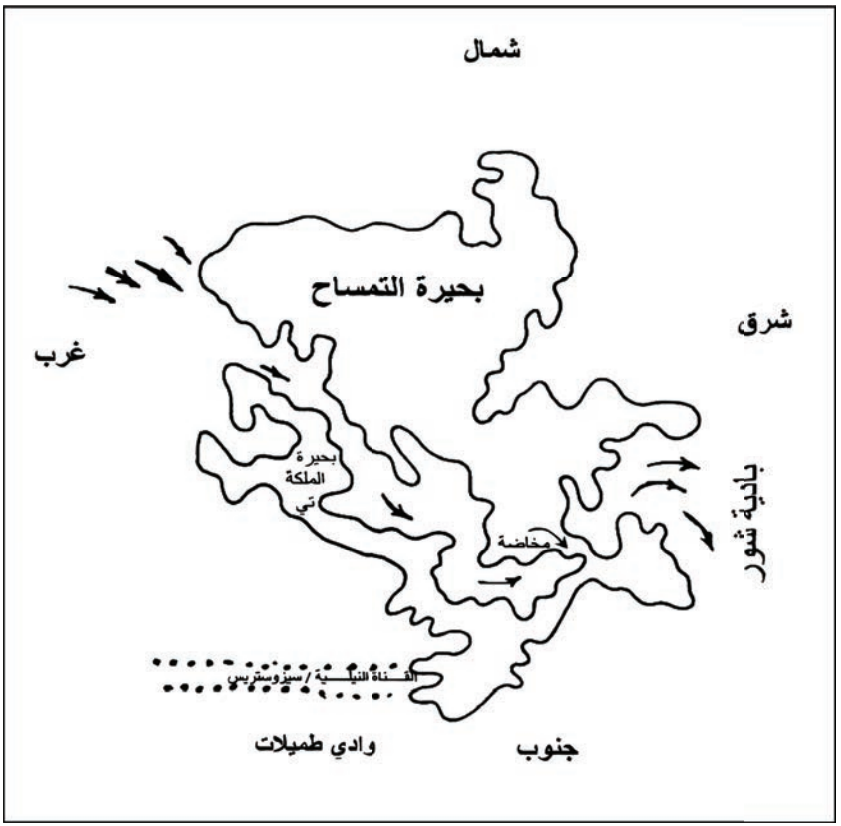

شكل ٢-٣: بحيرة الملكة تي/التمساح.

إن جلالة الملك قد أمر بحفر بركة لزوجته الملكة الكبرى تي في مدينة زارو خع، على أن يكون طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع، وقد احتفل الملك بافتتاح البركة في الشهر الثالث من الفصل الأول، وفي اليوم السادس عشر أبحر فوق سطحها على الزورق الملكي بهاء آتون.[١٢]

[١٢] عبد المنعم أبو بكر: إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة، عدد ٥٢، ص٢٥، ٢٦.

ولدى المؤرخين العرب تختلط الحقائق بالأخيلة، وتختلط الأماكن ببعضها على حد تعقيب جمال حمدان، وهو يحدثنا عن ياقوت في حديثه عن مدينة تنيس، يقول: «إن التي أسستها وسمَّتها باسمها هي دلوكة ملكة مصر الفرعونية القديمة، بعد حادثة خروج موسى وكانت هي التي «قادت إليها مياه النيل»، بينما كانت منطقة المدينة أرضًا صلبة كلها.»[١٣]

وقد علمنا أن تنيس كانت داخل بحيرة المنزلة، وبالتالي لم تكن أرضًا صلبة ومحيطها كله زراعي لا صحراوي، إنما الأرض الصلبة كانت عند بحيرة التمساح، والمهم في الخبر أنه يتحدث عن «قناة تخصُّ فرعونة»، وهو ما يلتقي مع خبر بحيرة تي، ناهيك عن كون اسم دلوكة لا يلتقي مع اسم تنيس، بينما ياقوت يؤكد أنها دلوكة هي التي أسست المدينة وأسمتها باسمها، لكن علينا أن نلحظ بشدة التطابق الفونيطيقي بين اسم دلوكة أو تاروكا، وبين الاسم الذي أعطانا إياه نص آمنحتب الثالث لمكان البحيرة «زارو خا»، أو «زارو كا»، أما المدهش حقًّا أن ياقوت يقول إن مدينة دلوكة أو زاروكة في زمنه كانت تسمى ذات الأخصاص، أي العشش أو الحظائر أو المظلات، وهو اسم لا تجده إطلاقًا في سيرة مدينة تنيس، إنما هو المعنى العبري لكلمة سكوت، المحطة الأخيرة للخارجين من مصر قبل شق البحر؛ لأن سكوت تعني الحظائر أو العشش أو الأخصاص، ثم إننا نعلم أن جميع الحملات العسكرية المصرية، تتحدث عن خروجها من آخر مدينةٍ مصرية نحو سيناء، والشام تقع على الحدود المصرية الشرقية، وجاء اسم هذه المدينة على مختلف القراءات «سيلة، زل، شور، ثارو، زارو، شارو»، والواضح أن الشق الأول من اسم مدينة بحيرة التمساح «زارو-خع»، يلتقي تمامًا مع اسم «زارو» أو «سيلا» المشهور للقلعة الحدودية الكبرى، منطلق الحملات المصرية على آسيا.

وقد ترك هذا الوادي (وادي طميلات) بمدنه ذكريات عظمى في مخزون الذكريات العربي عن المدائن القديمة الكبرى بالمنطقة، مأثورًا يتحدث عن قصورٍ عظيمة عرفها العرب في ترحالهم لقربهم منها، ومعلوم أن وادي طميلات عرف بهذا الاسم حديثًا، لكنه كان يعرف قديمًا باسم وادي «الساتير أو السدير»، والساتير عرفه اليونان باعتباره وحشًا إلهيًّا شريرًا، يلقي بنا اسمه مع الإله المصري للشر «سيت»، «فهو وادي سيت وهو ما

[١٣] جمال حمدان: شخصية ... سبق ذكره، ج١، ص٢١٦.

يمكنه تفسير الاسم سيترويت، كاسم لتلك المقاطعة المتصلة بالبوادي السينائية دون بقية البلاد المصرية»، وقد ذكره باسم السدير معجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم محمد رمزي.[١٤]

وفي وادي السدير قامت مدائن فيثوم ورعمسيس، وفيها قصر الفرعون الذي عرفه العرب باسم قصر السدير، وتغنَّوا به شعرًا كما جاء عند عدي بن زيد يقول:

وتبين رب «الخورنق» إذ أشرف يومًا وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك «والبحر معرضًا والسدير»[١٥]

ولا يحتاج إلى تنبيه ربطه بين «بحر مستعرض»، الذي نراه قناة سيزوستريس (الذي يسير عرضًا بين الغرب والشرق، بعكس كل مجاري الدلتا التي تسير من الجنوب إلى الشمال)، وبين الوادي المسمى بالسدير، حيث يجري هذا البحر، أما الخورنق فلا شك لدينا أنه الكرنك، وقد اشتهرت قصر الكرنك الشتوي وقصر السدير الصيفي لفراعنة مصر، حتى صارا مضرب الأمثال كما في الأبيات القائلة:

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري
وإذا شربت فإنني رب «الخورنق والسدير»
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

نعم نحن نقول إن تلك القناة التي كانت بعكس كل فروع الدلتا، تسير عرضًا هي المقصودة في شعر عدي بن زيد «بالبحر المعرض»، وسنعلم بعد قليلٍ لماذا اعتبرت «بحرًا» رغم أنها قناة.

ومع الاتفاق بين المؤرخين الذين قلَّما يتفقون على كون المسخوطة هي التي عرفها اليونان باسم هيروبوليس، فإننا — وفق كل ما بيدنا الآن — من معطياتٍ، يمكننا

[١٤] محمد رمزي: القاموس الجغرافي، القسم الثاني، ج١، ص٧٧.
[١٥] ابن قتيبة: المعارف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ص٦٤٧.

أن نجازف ونقول إن مدينة الهكسوس الكبرى بمصر، والتي حملت اسم حواريس وأواريس وهوارة، قد قامت في تل المسخوطة تحديدًا، وأنها هي التي حملت بعد ذلك اسم رعمسيس، فالكلمة بوليس اليونانية تعني مدينة، أما الشق الأول من اسم المدينة وهو «هيرو» أو «إيرو»، ولا تعني «هيرو» الأبطال، إنما هي مدينة الهكسوس «حيرو»، ومع تصريفها اسميًّا تصبح حيرويس أو حواريس، وبكتابتها يونانيًّا تصبح حيروبوليس، أو هيروبوليس، ويحدثنا «الدكتور محمد سيد غلاب» بما وصله من معلوماتٍ عن مدينة هيروبوليس فيقول: إن هذه المدينة قد «نمت إلى مدينةٍ تجارية في عهد بطلميوس الثاني، كما كانت مدينةً دينية إلى جانب مكانتها كمدينةٍ تجارية ومركزٍ دفاعي وميناءٍ نهري وبحري، «فقد كانت منطلق السفن الملكية الحربية» والتجارية نحو البحر الأحمر، «وقد عرفت في عهد الرومان باسم مدينة إيروبوليس Eropolis أو إيرو، وكانت مركزًا تجاريًّا وحربيًّا» شيد على قناة النيل/البحر الأحمر، وقد ظلت قناة النيل/البحر الأحمر هذه مهملة بعد ذلك — الترتيب الزمني للأحداث مرتبك — حتى ولي الملك نيخاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ٦٠٩–٥٩٤ق.م. وحاول إعادة حفر القناة، ولكنه لم يتم مشروعه هذا رغم اهتمامه بقوة مصر البحرية، ثم حفر دارا بن قمبيز الفارسي الذي فتح مصر في القرن الخامس ق.م. ترعة على غرار ترعة الفراعنة القديمة، وكانت هذه القناة تخترق وادي الطميلات (السدير)، وتتبع مجرى ترعة الإسماعيلية الحالية، وقد أمكن تتبع مجرى هذه القناة، بما وضعه دارا من شواخصَ حجرية تخليدًا لذكرى هذا المشروع، الذي كان يرمي من ورائه إلى تنشيط تجارة مصر مع بلاد فارس عبر البحر الأحمر.»[١٦]

ويقول إبراهيم نصحي: «إذا كان من الجائز أن يكون قد سبق دارا إلى حفر قناة وادي الطميلات، «أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة أو حتشبسوت»، فإن النصوص التي تتحدث صراحةً عن هذه القناة مدونة على اللوحات الفارسية، ولوحة بطلميوس الثاني، فقد أقام دارا على مجرى القناة ثلاث لوحات في تل المسخوطة وسيرابيوم وكبريته، وأقام «خلفه الفارسي» أجزركسيس لوحةً رابعة عند الكوبري شمالي مدينة السويس بستة كيلومترات، وقد لوحظ أن كل لوحة تبعد عن الأخرى بحوالي ٢٥ كيلومترًا، وأن المسافة بين تل المسخوطة ومخرج القناة من النيل عند تل بسطة، تبلغ ضعف هذه المسافة؛ ولذلك إما أن تكون قد أقيمت لوحةٌ خامسة (في المنتصف) بمنطقة التل الكبير

[١٦] غلاب: سبق ذكره، ص٢٦.

على الحافة الجنوبية للهضبة الصحراوية، لكن هذه اللوحة لم تكتشف بعدُ، وإما أن يكون نخاو هو الذي أعاد حفر القناة من تل بسطة حتى تل المسخوطة، ويكون دارا وأجزركسيس قد أعاد حفر الباقي، من تل المسخوطة حتى رأس خليج السويس.»[١٧]

ويضيف «غلاب» القول: «ويتحدث مؤلف كتاب تاريخ الفرنجة Histoire des frances ٥٧٦م، عن «طريقٍ مائي يصل بين ذراع البحر الأحمر والمستنقعات والبحيرة المرة والتمساح، وقناة تصل هذا كله بالنيل»، فهل معنى هذا أن القناة كانت موجودة حتى القرن السادس الميلادي؟ على كل حال فقد كانت مدينة «إيرو» (يقصد هيروبوليس) موجودة في القرن الرابع، كما لو كانت كليزما (السويس الآن) قائمة أيضًا حتى الفتح العربي لمصر، وكان البحر الأحمر معروفًا عند العرب باسم القلزم، وهو تحريف لكليزما اليونانية، ويبدو أن قناة النيل/البحر الأحمر ضؤل شأنها بعد القرن الثاني الميلادي، وكانت تتعرض لسفي الرمال، ولم يكن خليج وادي طميلات، يمتلئ بالماء إلا أوقات الفيضان، ولكن بعض البرك والمستنقعات تخلفت عنها، فكانت تطهر من الرمال حينًا وتترك حينًا آخر، وقد استطاع العرب بعد فتح مصر مباشرة، الاستدلال على مكانها بسهولة؛ فأعيد حفرها باسم خليج أمير المؤمنين، وتم حفرها عام ٣٤ للهجرة، ولم ينقطع سيل ماء النيل عند البحر الأحمر إلا سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.»[١٨]

وهذا يعني «أن القناة قديمة العهد، بدأ ذكرها منذ عهد خيتي في زمن الفترة الأولى، وظل حتى الزمن العربي في عصره العباسي، وأنها قد ربطت بحيرة التمساح بالبحيرات المرة بالخليج العربي (خليج السويس/البحر الأحمر)، دون الاحتياج لعصورٍ جيولوجية ودون مد خليج السويس خارج حدوده (كما افترض دي بوا إيميه) وهو ما ربط البحيرات جميعًا بالخليج، لتشكل خطًّا واحدًا هو امتداد للبحر الأحمر، وأصبحت جديرة جميعًا باسم «بحر سوف»، الذي تصب فيه مياه النيل قادمة عبر القناة».

ولقد ذهب «دي بوا إيميه» إلى حل لغز مدينة رعمسيس، عندما جعلها المدينة التي عرفها اليونان باسم «هيروبوليس»، ووضعها على رأس الخليج العربي/السويس، الذي أسموه حينًا الخليج العربي، وحينًا الخليج الهيروبوليتي؛ مما أدى إلى استنتاجه

[١٧] نصحي: سبق ذكره، ص٤٣، ٤٨.

[١٨] غلاب: سبق ذكره، ص٢٧-٢٨.

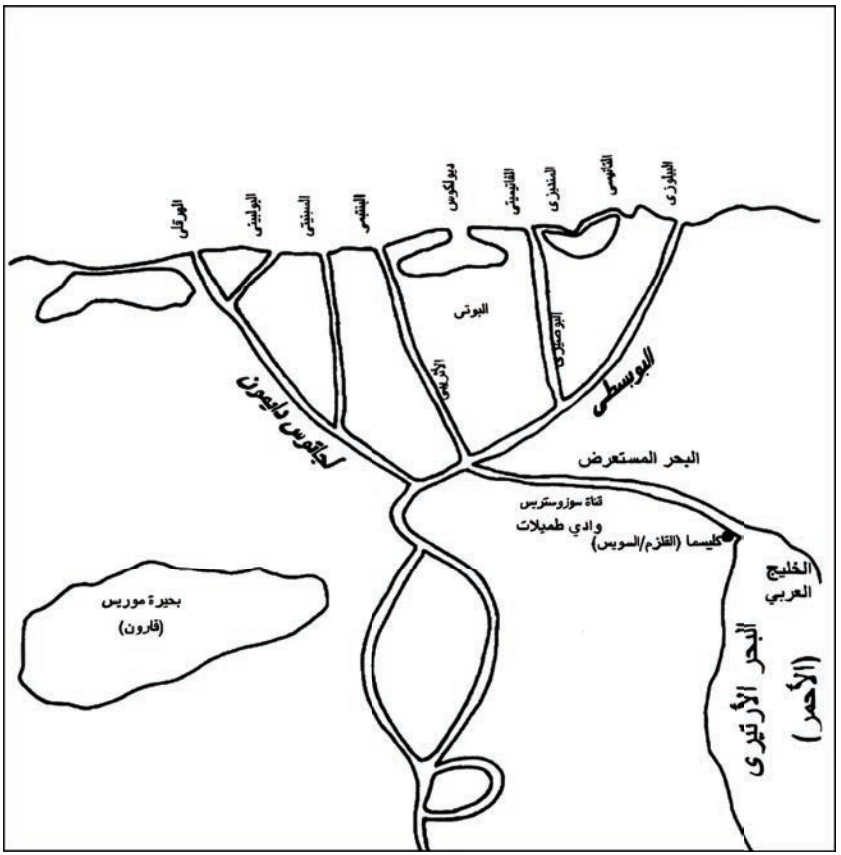

شكل ٢-٤

أن «هيروبوليس» تقع عند قمته وأعطته اسمها؛ لذلك مد الخليج وعبر به الحوض جميعه، ليعبر به البحيرات المرة ويصله ببحيرة التمساح، وهناك عند منطقة السبع أبيار (الإسماعيلية الحالية) أو إلى الغرب منها، حيث تقع تل المسخوطة، وضع دي بوا إيميه مدينة رعمسيس، وقد استند دي بوا إيميه في وصلة خليج السويس ببحيرة التمساح عبورًا على البحيرات المرة إلى عدة شواهدَ هامة فعلًا، فكما أوردنا سلفًا أنه

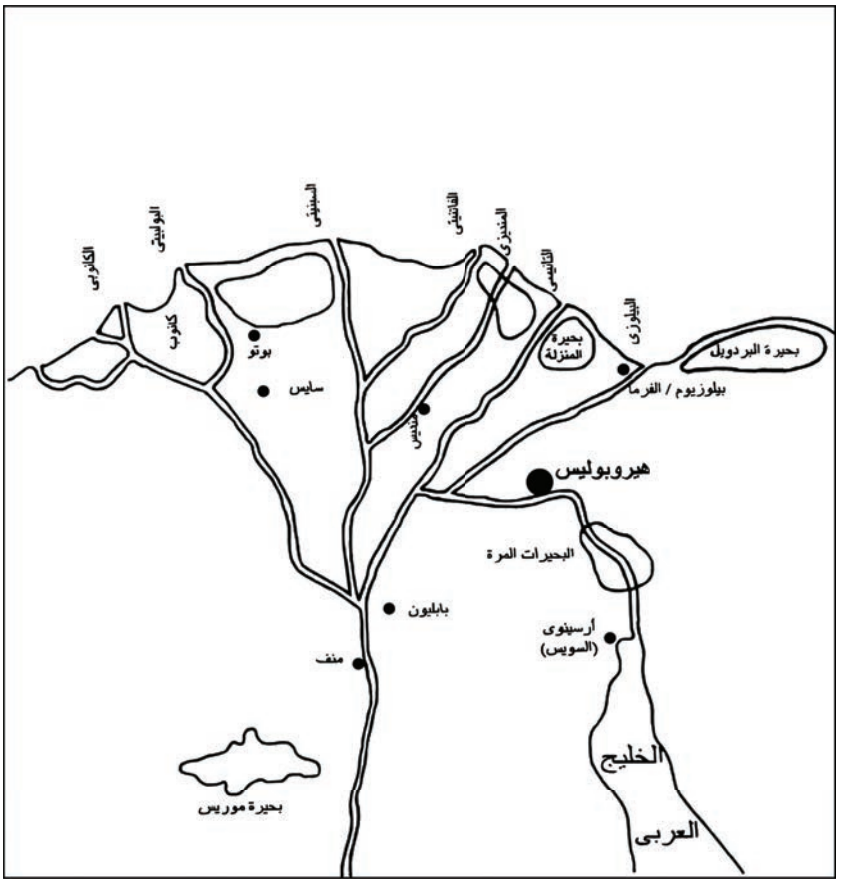

شكل ٢-٥: خريطة بطلميوس لفروع الدلتا حسب تفسير بول، ومن جانبنا نرى أن الفرع العرضي مقصود به قناة سيزوستريس لمخالفتها خط سير بقية الأفرع، وهي البحر المعرض أو المستعرض في الروايات والأشعار العربية.

عُثر في الحوض الرملي ما بين خليج السويس والبحيرات المُرة على طبقاتٍ من الملح البحري، تصل في كثافتها إلى درجة أنها أخذت شكل قباب من الملح، وبالحفر في مواضعَ مختلفة من ذلك الحوض الطويل، كان الماء يوجد دومًا على عمق ما بين أربعة وخمسة

أمتار فقط، وله ذات مذاق مياه البحر، وإنك في ارتحالك بطول ذلك الحوض المستطيل، ستصادفك مناطقُ كثيرةٌ موحلة مع مستنقعاتٍ ملحيةٍ متناثرة، ناهيك عن كون الحوض نفسه ينخفض عن سطح البحر بحوالي خمسة عشر مترًا. وقد عثر «دي بوا إيميه» إبان بحثه الميداني في هذا الحوض على قواقعَ بحرية ومخلفات لنباتاتٍ بحرية، تنتشر على خطٍّ طولي يسير على مستوًى خطٍّ واحد من خليج السويس/العربي إلى البحيرات المرة، ثم من البحيرات المرة إلى بحيرة التمساح، حيث يتوقف هناك. وتأسيسًا على هذا أقدم «دي بوا إيميه» على فرضيته، فقام يوصل أو يمد أو يدمج الخليج العربي/الهيربوليتي/السويس بالبحيرات حتى التمساح، حيث احتسبه كان يصل إلى هناك زمن الخروج، لتقع تل المسخوطة هيروبوليس على قمة ضفته الغربية،[١٩] ومع هذا الفرض لا بد من افتراضٍ آخر، هو أن الخليج عند هذه القمة كان فسيحًا متسعًا، كي يمكنه أن يغطي عرضًا ستة عشر كيلومترًا كاملة، هي المسافة بين الشاطئ الغربي لبحيرة التمساح وبين تل المسخوطة، إلى الغرب منها «بستة عشر كيلومترًا».

ولتأكيد وجهة نظره يذهب دي بوا إيميه في وصلة الخليج ببحيرة التمساح، إلى القصص القديم المتواتر عن قناةٍ كانت تربط النيل بالخليج، وعرفناها باسم قناة سيزوستريس، ويقول إن مدينة القلزم القديمة المظنون أنها السويس القديمة لو كانت كذلك فعلًا، أي لو كانت تقع قديمًا محل السويس الحالية، فكان لا بد أن تمر القناة منطلقة من النيل، لتعبر وادي طميلات الدير إلى بحيرة التمساح، لتخرج منها جنوبًا لتعبر البحيرات المرة، حتى تصل رأس الخليج عند السويس الحالية، لتصب في الخليج، لكن ذلك ليس صحيحًا بالمرة؛ لأن دي بوا إيميه لم يجد أي أثر لطمي النيل في حوض القلزم جميعه، أو حتى أية بقعةٍ قريبة من بحيراته: التمساح والمرة الكبرى والمرة الصغرى. ولم يسفر البحث عن وجود أي طمي، وكل ما وجده آثار للبحر وليس للنهر، ويستنتج دي بوا إيميه من ذلك أن البحر كان يمتد بخليجه العريض حتى بحيرة التمساح، وأن القناة القادمة من النيل من الغرب، كانت تصب في بحيرة التمساح، وعليه فقد كانت ميناء القلزم تقع على الشاطئ الغربي لبحيرة التمساح، التي كانت بهذا الشكل هي قمة الخليج، ولم تكن القناة تصب عند السويس الحالية، إنما في بحيرة التمساح،

[١٩] دي بوا إيميه: سبق ذكره، الدراسة السادسة، ج٣ من وصف مصر، ص١٣٧–١٣٩.

التي هي في رأيه مع البحيرات المرة كانت جزءًا من خليج السويس، انفصل عنه بعد ذلك بعواملَ جيولوجية.

وقد استشهد «دي بوا إيميه» على مذهبه بوصف «لوبير Le pepere» لمياه الفيضان، وهي تندفع نحو الشرق قادمةً من الدلتا، خارجةً بشكلٍ طبيعي من النيل، لتجري بكمياتٍ كبرى واندفاع؛ مما يشير إلى انحدارٍ سريع للأرض على خط المجرى، وقد أكد شيوخ البدو في تلك المنطقة (عند السبع أبيار) للمسيو «ديفيليه»، أن الماء كان يستمر في تدفُّقه حتى يصل إلى موضعٍ يتجمع عنده، أطلق عليه البدو اسمًا على مسمى، هو «رأس المية» قرب بحيرة التمساح، وهذا يعني أن مياه النيل وقت الفيضان كانت تندفع بشكلٍ تلقائيٍّ طبيعي، في منحدر يخترق وادي طميلات/السدير، لتصب في نقطة قرب بحيرة التمساح، وهو الأمر الذي يؤكد أخبار القدماء، عن وجود قناة تربط خليج السويس بالنيل، وربما كانت المسافة من النيل حتى هذه النقطة، التي تقف عندها مياه النيل، هي التي أشار إليها الدكتور غلاب من هنيهة، أن من حفرها هو الفرعون نخاو أو على الأصح هو من أعاد حفره، ثم جاء «دارا» الفارسي واستكمل حفر الجزء الباقي حتى السويس، وبخصوص تلك القناة يقول «هيرودت»: «وأنجب بسماتيك ولدًا هو نيخوس (نخاو) الذي حكم مصر، وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحرٍ أروتري (بحر أروتري هو الإريتري أي الأحمر، وقوله إن أول من حفرها هو نخاو، يعني أن هذا ما وصله وليس بالضرورة صادقًا [المؤلف])، والتي حفرها من بعده دارا الفارسي، وطول القناة يساوي مدى إبحار أربعة أيام، وقد حفرت عريضة «حتى إن سفينتَين من ذوات الثلاث صفوف من المجاديف، تعبرانها جنبًا إلى جنب (لاحظ هذه صفات سفنٍ بحريةٍ ضخمة وليست نيلية [المؤلف])، ويؤتى إليها بالماء من النيل منصرفًا من مكانٍ فوق مدينة بوابسطيس بوبسطة (ضمن مدينة الزقازيق حاليًّا [المؤلف]) بقليل، بالقرب من المدينة العربية باتوموس»، وتنتهي إلى بحر أروتري، ثم تسير في منحدراتٍ متجهة من الجبل نحو الجنوب، حتى تبلغ الخليج العربي. وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها في عهد نيخوس مائة وعشرون ألف عامل.»[٢٠]

وهنا يقف دي بوا إيميه مستندًا إلى هيرودت، ليقول إن تلك القناة الكبرى كانت تخرج من جنوب تل بسطة، وهذا يعني خروجها من الفرع المعروف بالفرع البوباستي،

[٢٠] هيرودت في مصر: ٢٩٠–٢٩٢.

القادم من الزقازيق لتصل مباشرة إلى الخليج العربي، الذي يمتد عنده حتى بحيرة التمساح؛ لذلك رفض دي بوا إيميه الطول الذي أعطاه لنا هيرودت للقناة وهو تسعون ميلًا؛ لأنه يصل بها للسويس الحالية، ويأخذ برأي بلليني Pelline الذي قال إن طولها كان ٦٢ ميلًا فقط؛ لأن ٦٢ ميلًا كانت أقرب للمسافة بين بسطة وبحيرة التمساح.[٢١]

المشكلة هنا كما سبق وأشرنا، أن مد الخليج حتى بحيرة التمساح، كما يريد «دي بوا إيميه» إن كان حقيقةً، فقد كان أمرًا قديمًا قدم عصره الجيولوجي، ويؤكد لنا رفضنا لاحتساب الخليج كان يمتد بحجمه الهائل هذا حتى التمساح، أن الدراسات الحديثة بعد دي بوا إيميه بزمانٍ، أعادت دراسة حوض القلزم، فوجدت تحت آثار البحر بأعماقٍ أبعد، طبقات طميٍ نيليٍّ وافرة، لا تشير إلى قناةٍ صناعية كانت تربط النيل بالخليج، إنما إلى فرعٍ نيليٍّ حقيقيٍّ قديم، كان يعبر الحوض جميعه ليصبَّ عند السويس الحالية، وفي ذلك يقول جمال حمدان إنه كان ضمن أفرع النيل «فرعٌ ناقص أو متدهور نوعًا، كان يخرج قبل الفرع البيلوزي، ويتَّجه شرقًا ليتصل بالبحيرات، ليخترقها جنوبًا نحو البحر الأحمر عند كليسما/السويس، ويبدو أن هذا الفرع كان يسير بوضوحٍ في وادي طميلات الحالي.»[٢٢] ثم يزيدنا إيضاحًا بشأن هذا الفرع النيلي القلزمي، ضمن حديثه عن انقراض فروع الدلتا القديمة، حتى لم يبقَ منها سوى فرعَي دمياط ورشيد، فيقول حمدان: «يبدو أن الانقراض قد بدأ من الشرق، حيث «الفرع الواهي الضعيف الطميلاتي القلزمي»، وبعده أتى دور البيلوزي أقصاهم شرقًا، الذي ذكره الجميع إلا جورج القبرصي، مما يوحي أنه كان قد اختفى قبل القرن السابع الميلادي على الأقل، ويلي بعد هذا غربًا التانيسي فالمنديسي.»[٢٣]

لكن العمق الذي تم فيه العثور على طمي ذلك الفرع القلزمي القديم، يشير إلى أنه كان في عصورٍ قديمة، لكن آثاره هي التي أوعزت للفراعنة بشق القناة على ذات خطه القديم.

هنا تواجه نظرية دي بوا إيميه مشكلةً كبرى، تسقطها تمامًا رغم عبقريتها؛ لأن وجود فرعٍ نيليٍّ قديم، يعني أن حوض القلزم كان كما حوضنا، وليس امتدادًا للخليج، وأنه

---

[٢١] دي بوا إيميه: سبق ذكره، الدراسة السادسة، ج٣، ص١٤٠.

[٢٢] جمال حمدان، شخصية مصر ...

[٢٣] نفسه، ج١، ص٢٠٦.

كما هو لأزمانٍ بعيدة، وأن انفصال البحيرات هو أقدم من زمن ذلك الفرع النيلي المنقرض، ويعود إلى حقبٍ موغلة في القدم، بدليل أن النيل هو الذي كان يسير في حوض القلزم وترك آثاره هناك، «ولم يكن الخليج ممتدًا حتى التمساح، لكن هنا يبقى اللغز الكبير، فمن أين جاءت آثار البحر المالح، لتترك آثارها في الطبقات العليا الحديثة لحوض القلزم؟»

ثم يأتي هيرودت ليزيد الأمر اضطرابًا، بقوله إن في المنطقة مناط الحديث، كان يوجد أقصر طريق بين البحر الأحمر وبين البحر الأبيض، وأن هذا الطريق (موضع قناة السويس حاليًّا)، هو الحد الفاصل بين البلاد المصرية والبلاد الفلسطينية (كانت سيناء تُعدُّ عند المؤرخين اليونان فلسطينية لسكناها بالبدو؛ ولذلك أسموا خليج السويس بالخليج العربي)، فيقول نصًّا: «وهناك يوجد أقصر طريق وأصغر، للذهاب من البحر الشمالي إلى البحر الجنوبي، وهذا نفسه يسمى بحر أروتري، من جبل كاسيوس والحد الفاصل بين مصر وسوريا.» لكن المثير للبلبلة في كلام هيرودت، وهو يتحدث عن خط جبل كاسيوس (الكسارون الآن عند الفرما) يقول: «إن القناة هناك تصبح أكثر تعرجًا؟ وهكذا فالقناة هنا تتجه شمالًا نحو الفرما، وليس جنوبًا نحو السويس، وهي عند الفرما أو قربها تصبح أكثر تعرجًا!».

ولمزيدٍ من الاضطراب بشأن قناة سيزوستريس، ما جاء عند دي بوا إيميه وهو يتحدث عن الفراعنة في آخر عهودهم زمن البطالمة، عندما أراد أحد البطالمة إعادة حفر القناة، بعد أن عدَتْ عليها الأيام والإهمال وسفي الرمال فطمرتها، فيقول: «بطلميوس حاول إعادة المشروع، لكن مهندسيه أكدوا أن «مستوى سطح البحر الأحمر، يرتفع بمقدار ثلاثة أذرع عن سطح مصر»، فخشي غرق المنطقة، أو أن يتلف ماء البحر مياه النهر، فأمر بإيقاف العمل بعد أن وصل إلى العيون (يقصد البحيرات [المؤلف]) المُرة.»[٢٤]

والآن لنتوقف لنلتقط الأنفاس وسط هذا الرتل المختل، نحاول أن نحدد ما لدينا من معلوماتٍ عن قناة سيزوستريس:

(١) أن هناك «قناةً عرضية»، كانت تربط فرعًا شرقيًّا لدلتا النيل بخليج السويس، عبورًا على البحيرات الواقعة بينهما. لكن من عند البحيرات جنوبًا وحتى خليج السويس العربي، ينعدم وجود تلك القناة، لعدم وجود أي أثرٍ حديث لطمي النيل في حوض القلزم

[٢٤] دي بوا إيميه، سبق ذكره، ص١٧٣-١٧٤.

جميعه، والأثر القديم للطمي يشير إلى أن النيل كان له في العصور الجيولوجية القديمة، فرعٌ قديمٌ متدهور يسير في حوض القلزم حتى السويس، وهو ما يعني تراجع البحر عن حوض القلزم والبحيرات قبل ذلك بأزمان، ليسمح للنهر وطميه بالتواجد في هذا الحوض، وتبقى مشكلة من أين أتت الآثار الباقية لمياه البحر المالح (الأحدث) بحوض القلزم؟

(٢) زمن الحملة الفرنسية على مصر، لم تكن قناة سيزوستريس موجودة عمليًّا، لكن زمن الفيضان كانت مياه النيل تجري شرقًا بشكلٍ طبيعي تمامًا مندفعةً مخترقة وادي طميلات، حتى تصب عند رأس المية قرب المسخوطة وبحيرة التمساح؛ مما يشير إلى وجود فرعٍ نيليٍّ قديم تجري محله تلك المياه.

(٣) أن إشارة هيرودت لاتساع القناة، بحيث تستوعب «عابرتَين متجاورتَين»، من السفن البحرية ذوات الثلاثة صفوف من المجاديف، تشير إلى أن القناة لم تكن مجرد ترعةٍ صغيرة، إنما جهزت لاستقبال السفن العابرة للبحار؛ مما يتعارض مع القول إنها كانت فرعًا ضعيفًا واهنًا.

(٤) أن أحد البطالمة أراد إعادة حفر القناة، فأكد له مهندسوه أن مستوى البحر الأحمر أعلى بمقدار ثلاثة أذرع، وهو ما وجدناه حقيقة إبان ارتحالتنا وراء مواقع الأحداث؛ إذ ينخفض هذا «الحوض حوالي خمسة عشر مترًا» عن سطح البحر، وأمر بطلميوس بإيقاف المشروع، بعدما تبين له الخطر عندما وصل بالحفر إلى البحيرات المرة؛ «مما يشكك في كل ما سبق».

والآن ما قيمة كل تلك المعلومات؟ وماذا لدينا لينتج جديدًا بعد النماذج التي طرحناها لعلماء أجلاء، من أجل تحديد موقع مدينتَي رعمسيس وفيثوم الواقعتين في مقاطعة جاسان؟

لقد تأكد لنا من المؤرخين والجغرافيين الكلاسيك، وجود فرعَين شرقيَّين منقرضَين للنيل، كان الأول وهو البيلوزي ينطلق من جنوبي تل البسطة أي من الفرع البوباستي، ويتجه نحو الشمال الشرقي ليصبَّ عند بيلوزيوم/الفرما، والثاني ينطلق من موضعٍ ما بالقرب من بسطة بدوره، ليتجه شرقًا عبر وادي طميلات، ليلتقي ببحيرة التمساح، ويتصل بعد ذلك بالبحيرات المرة، ثم يهبط إلى رأس خليج السويس، وعرَّفه المؤرخون الكلاسيك باسم قناة سيزوستريس. وقد وصلتنا خرائطُ أولية رُفعت عليها القناتان كما في خريطة استرابون وخريطة هيرودت (حسب تفسير بول)، في زمن كان فيه

النيل لم يزل يحتفظ بسبعة أفرع بالدلتا، وقبل أن تنقرض جميعًا وتتحول إلى ترعٍ ومصارف، بحيث لم يبقَ منها الآن سوى فرعَي دمياط ورشيد.

وحتى زمن الحملة الفرنسية، نسمع «لوبير» أحد علماء الحملة، يؤكد أنه حتى زمانه — فقط منذ قرنَين من الزمان — كان الفيضان يدفع بكمياتٍ هائلة من الماء شرقًا، حتى قرب المسخوطة غربي بحيرة التمساح على حدود سيناء الغربية، وذلك يعني أنه مع انقراض فروع الدلتا القديمة، «فإن الماء كان يعرف طريقه الشرقي العتيق حتى زمن الحملة الفرنسية»، ويتفق ذلك مع تقرير عالم الحملة المسيو ديفليه عن رأس المية، عند موضع ألسنة كراش قرب بحيرة التمساح، كمصبٍّ للمياه المتدفقة من النيل نحو الشرق.

كما أن ذات الخرائط القديمة تؤكد وجود قناة، تربط بين الفرع البوبسطي وبين خليج السويس، وقال هيرودت حسبما وصله إنها حفرت زمن نخاو، ولكنا ذهبنا إلى أنها حفرت قبل ذلك بزمان، ربما من أيام خيتي في العصر المتوسط الأول، لكن بالتأكيد منذ زمن آمنحتب الثالث وزوجته تي، لكن هيرودت يقول إن بطلميوس لما حاول حفرها من جديد، حذَّره مهندسوه لانخفاض سطح مصر هناك عن مستوى سطح البحر، ويكون السؤال البدهي: «إذا كانت الأرض هناك منخفضة عن سطح البحر وهو الثابت فعلًا، فكيف أمكن حفر القناة زمن نخاو ومن قبله آمنحتب الثالث، ثم زمن سيزوستريس ومن قبله زمن خيتي أو أخيتوي قبل الدولة الوسطى وقبل الجميع؟» لم نجد حلًّا سوى افتراض أن قناة سيزوستريس، لم يكن الغرض منها إيصال الماء العذب إلى منطقة القلزم والبحيرات، كهدفٍ أول لمثل هذا العمل، بدليل أنها بالفعل لم تصل بمائها العذب إلى هناك، حيث لم يعثر على طمي النيل في حوض القلزم، وعوضًا عنه وجدنا آثارًا بحرية، وعليه «لا حل سوى افتراض أن غرض القناة كان غرضًا تجاريًّا عسكريًّا في المقام الأول»، فلم يشغل الفرعون الماء العذب أو المالح، إنما شغله إقامة الخط التجاري البحري، وخط حماية خندقي بالمياه، هو ما نعتقد أنه المعروف في التاريخ المصري القديم، باسم سور الأمير (الحاكم) الذي يصد الآسيويين. لقد تم حفر القناة ليس لتحمل مياه النيل من عند مصبها عند بحيرة التمساح إلى الخليج، بل العكس هو المقصود، أي «لتحمل مياه البحر الأحمر المنحدرة في القناة»، بعد إزالة الحاجز الرملي الكبير، لتندفع باتجاه البحيرات عبر حوض القلزم، ثم نحو الوادي المنخفض طميلات، حتى تتوقف عند أكثر المناطق موازنة على اليابس مع سطح البحر، وهناك — عند منطقة التوازن — تلتقي المياه الحلوة القادمة من القناة من الغرب، من مخرجها عند الفرع البوبسطي.

ولأن الماء المالح كان لا بد سيختلط بالحلو، ويغلب أحدهما الآخر حسب قوَّته وتدفُّقه، فقد لاحظ الدكتور «نصحي» ذلك، وقال لمحةً سريعة في جملةٍ واحدة: إن «حوض البحيرات المرة كان بمثابة حوض موازنة، بين المياه القادمة من النيل، وبين المياه القادمة من البحر الأحمر.»[٢٥] وإن كان تحديده لمكان الموازنة برأينا غير موفق ولا دقيق.

ولما كان اليابس حسب جميع التقارير أدنى ارتفاعًا من سطح البحر، خاصةً إذا ما اخترقت القناة أوطأ مناطق الدلتا الشرقية في وادي طميلات العميق؛ لذلك «نفضل افتراض حوض الموازنة في وادي طميلات، أو بالأحرى في نقطةٍ ما شرقيه تقع في مكانٍ ما يحتاج إلى تحديد، عند موضع التقاء القناة القادمة من الجنوب بماء البحر المالح، مع الفرع النيلي العذب القادم من الغرب؛ لأن الطرف الشرقي من وادي طميلات أكثر انخفاضًا من حوض القلزم نفسه، وهو بدوره كان منخفضًا عن سطح البحر أصلًا».

ومن ثم نرسم تصورًا أن فرع القناة الجاري عبر وادي طميلات، كان هو منطقة التوازن بين لحظات مد، تندفع معها المياه المالحة، ثم تعود مع الجزر ليندفع ماء النيل العذب يطاردها مرةً أخرى، ويترك لنا آثاره طميًا واضحًا بطول وادي طميلات، «ويحوِّل سواحل القناة إلى مناطقَ غنية بأحراش البوص»، حيث توافُر الماء العذب مع المالح مع ضحالة قياسًا على حال البحر نفسه، ومن هنا نعتقد سبب إطلاق التوراة اسم بحر البوص على البحر الأحمر جميعه، باعتبار هذا الفرع أو تلك القناة كانت تحتسب جزءًا من خليج السويس؛ لأنها امتدادٌ صناعي له، وهو ما لمحه «إبراهيم نصحي» إذ يقول: «إن القدماء كانوا يعتبرون البحيرات المرة امتدادًا للبحر الأحمر؛ ولهذا فإن بلينوس كان يدعو خليج السويس بأجمعه الخليج الهيروبوليني نسبة إلى هيروبوليس»،[٢٦] بينما هيروبوليس كانت تقع في شرقي وادي طميلات غربي الإسماعيلية الحالية وبحيرة التمساح، وليست عند خليج السويس.

إذن، وبهذا المعنى لدينا هنا قناتان وليس قناةٌ واحدة، قناة ماء عذب مخرجها من الفرع البيلوزي، تنحدر بمائها طبيعيًّا عبر وادي طميلات، حتى تصل إلى نقطةٍ قرب بحيرة التمساح، ربما تكون المسخوطة، وأن اسم التمساح يشير إلى أن هذه القناة

[٢٥] د. إبراهيم نصحي: السويس من العصور القديمة حتى الفتح العربي، دراسة ضمن كتاب السويس، صادر بالسويس، مصر، د.ت، ص٤٧.

[٢٦] نفسه ص٥٢.

كانت تحوي ماءً عذبًا لا مالحًا، فالتماسيح المصرية لا تعيش إلا في الماء العذب النيلي في مصر، وربما جرت تسميتها بهذا الاسم تمييزًا لها عن البحيرات المالحة، التي لا تعيش فيها التماسيح، وأطلق عليها اسم البحيرات المرة، فالماء المر عند المصري حتى اليوم يعني الماء المالح، هذا علمًا أن دي بوا إيميه لم يشر لا من بعيدٍ ولا من قريب، إلى نتائج بحثه عن آثار البحر المالح ما بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح؛ مما يعني أن المسافة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح شمالًا، كانت تخلو من آثار البحر التي أشار إلى انتشارها بطول حوض القلزم، وهذا أيضًا يعني أن القناة التي تمَّ شقها من عند السويس الحالية، وتم وصلها بالبحيرات المرة، لتنحرف بعدها غربًا نحو النقطة، التي يتوقف عندها صعود الماء المالح في منطقة توازن حاملة معها ماء البحر، لم تكمل خطها المستقيم نحو الشمال حيث بحيرة التمساح، وخلو المسافة ما بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة من آثار البحر يؤكد ذلك، وهو ما يعني أن القناة قد انحرفت بعد البحيرات المرة غربًا، بمياهها المالحة القادمة من الخليج، لتلتقي بالمياه العذبة القادمة من النيل (ويبدو أنه قد تم مد قناة الماء العذب من بحيرة التمساح، لتلتقي بالفرع البيلوزي مرةً أخرى قرب شرقي مدينة القنطرة، لتصبح القنطرة غربها وتل أبو سيفا بشرقها، وكان لا بد هناك من إنشاء قناطر للعبور نحو أبو سيفا وسيناء، تركت أثرها في اسم البلدة «القنطرة»، وهي فيما نعتقد تلك القناة الضائعة، التي كانت تعرف تاريخيًّا باسم قناة الجفار)، ومعنى هذا أن «الفرعون ومهندسيه قد قاموا بحفر القناة من السويس إلى البحيرات المرة، ثم حفروا من غربي البحيرات المرة منحرفين بها نحو الغرب، لتلتقي بفرع الماء النيلي الطبيعي القادم من الزقازيق عند نقطةٍ بعينها، وهي تلك النقطة التي أصبحت مركز التوازن، أو ملتقى البحرين أو مجمع البحرين، وأن عند هذه النقطة أنشأ الفرعون مدينته العبقرية، لتكون ميناءً عالميًّا تلتقي عنده السفن القادمة ببضائع أفريقيا والجنوب الآسيوي عبر البحر الأحمر، عبورًا بالقناة المالحة على البحيرات المرة ثم غربًا إلى المسخوطة، بالسفن القادمة من عالم البحر المتوسط عبر الفرما، فقناة الجفار حتى التمساح فمدينة الفرعون، التي حملت بعد ذلك اسم رعمسيس، والتي وصفت بأنها بوابة مصر الوحيدة، وهو التعبير الذي يجد صداه في تخريجنا هنا وحده دون غيره؛ إذ تصبح جميع الطرق إلى مصر بهذا الشكل محاطةً بخندقٍ مائيٍّ عظيم، ولا يبقى سوى منفذٍ واحدٍ بري، يصل إلى تلك المدينة، هو المسافة المثلثة بين البحيرات المرة وبحيرات التمساح، وأن هذا المنفذ لا بد ينتهي نحو المدينة،

التي يلتقي عندها طرفا الماء في زاويةٍ حادة (حسب ما هو مبين بالشكل رقم ٢-٦)، لتجعل مدينة رعمسيس بوابة مصر الوحيدة».

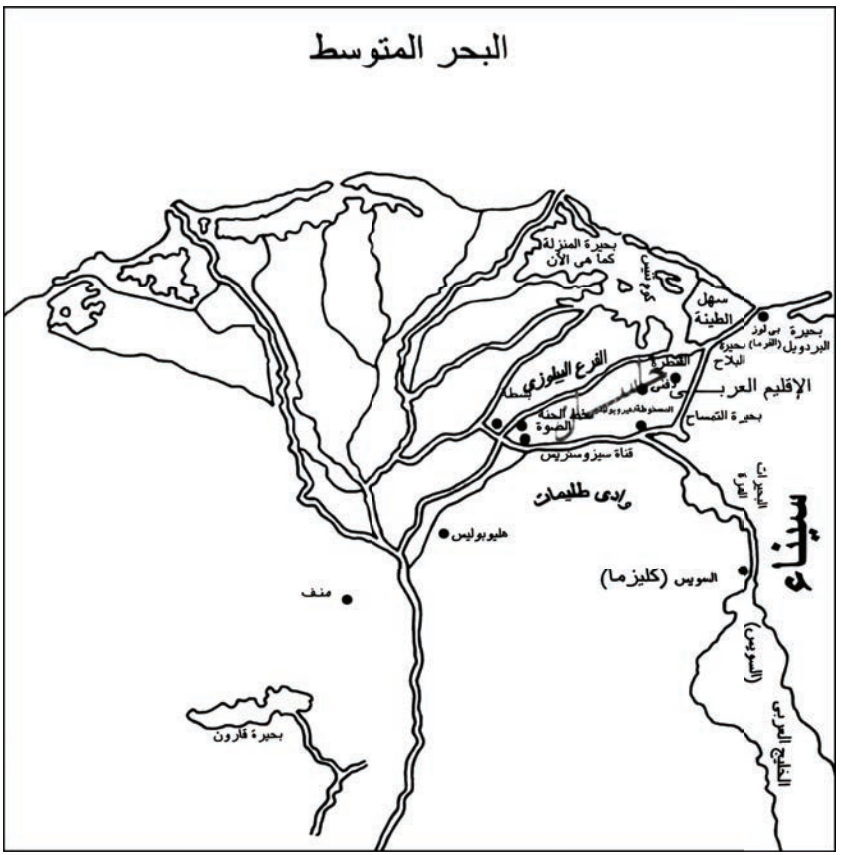

شكل ٢-٦: تصورنا لموضع رعمسيس في إقليم جاسان حيث استُعبِد الإسرائيليون (المسخوطة = رعمسيس).

وهذا التخريج الذي نسوقه يلتقي بشدة مع خرائط جغرافيي ومؤرخي العصر الكلاسيكي، وخاصةً مع أخبار هيرودت وخريطة بطلميوس واسترابون وتفسير بول

شكل ٢-٧: شقٌّ تفصيلي.

لخريطة استرابون، الذي يأخذ من الفرع البوبسطي/التانيسي «فرعَين»، يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقي حتى يصب عند بيلوز/الفرما، ويتجه الآخر نحو البحيرات المرة والتمساح البحر الأحمر.

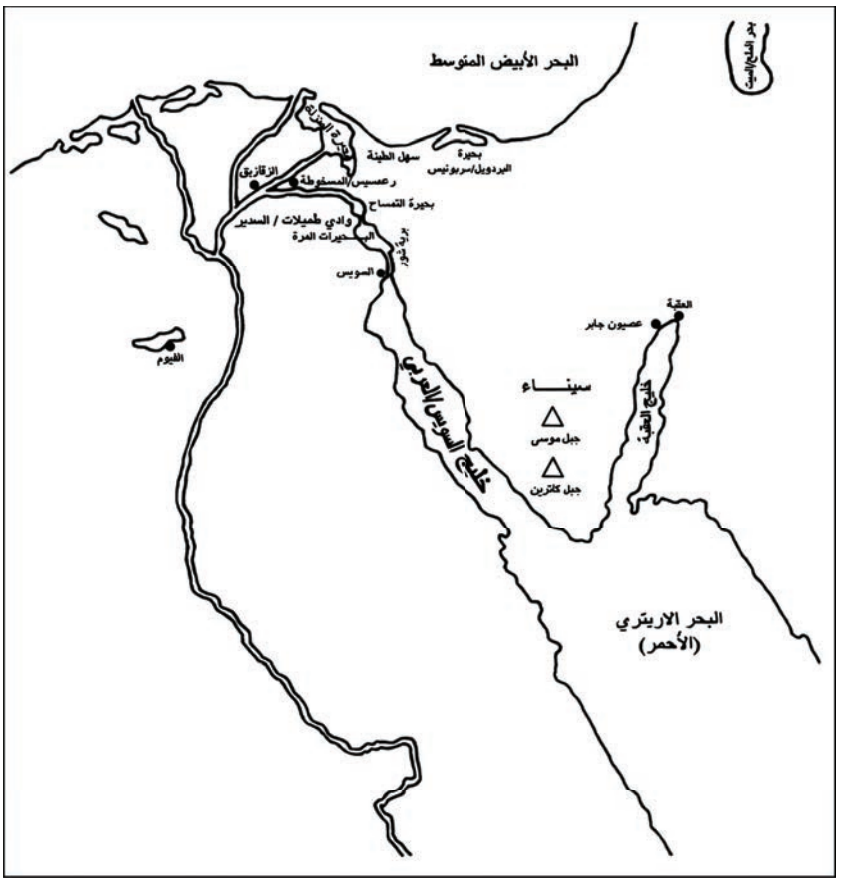

شكل ٢-٨: تفصيل أوضح.

وهيرودت من جانبه يخرج الفرعَين جنوبي تل بسطة/الزقازيق بقليل، ويضع المدينة الثانية من مدن الاضطهاد (فيثوم/بي توم/باتوموس)، عند نقطةٍ مقوسة في انحناءة قناة سيزوستريس من الشرق نحو الجنوب.

وذلك يفسر لنا أيضًا التضارب بين هيرودت وبليني، حول طول قناة كان مظنونًا أنها واحدة، فقال هيرودت إنها كانت تسعين ميلًا، وقال بليني إن طولها كان ستين

ميلًا، «بينما كان بليني يتحدث عن طول القناة العذبة من الزقازيق إلى المسخوطة، وهيرودت يتحدث عنها بشكلٍ طولي من الفرما إلى السويس، كما هو حال قناة السويس اليوم».

لقد حفر الفرعون أخيتوي ثم آمنحتب الثالث قناته البحرية، وهو يعلم ماذا يفعل بالضبط، لقد كان يعرف جيدًا عن انخفاض حوض القلزم، وبعض من سطح وادي طميلات عن سطح البحر، ومع ذلك أمر بإزاحة أكوام الرمال العظيمة من أمام خليج السويس، لينحدر الماء في الحوض المنخفض، حاملًا معه الماء المالح دافعًا البحر خارج حدوده، ليظل في طريقه حتى يتوقف عن الصعود عند نقطة، يلتقي فيها بالفرع العذب القادم من النيل، ليبني الفرعون في نقطة اللقاء مدينته العبقرية وزهرة مدائن العالم القديم، التي أصبحت بهذا الشكل مركزًا وسطيًّا رئيسيًّا، بين فرعَين يشكلان سورًا حاميًا لمصر، ثم إنها بذلك أصبحت ميناءً فريدًا من نوعه في تاريخ الدنيا، فهي بذلك ميناء للبحرين الأبيض والأحمر في عمق الأراضي المصرية داخل اليابس، وليست ميناءً على بحر، هي الميناء الوحيد عبر التاريخ كله داخل عمق اليابس، تصلها السفن القادمة ببضائع الهند وأفريقيا من البحر الأحمر عبر القناة المالحة، وتصلها السفن القادمة من بلاد الشام وتركيا وجزر المتوسط عبر الفرع قناة الجفار، ويشرف الفرعون منها على ممتلكاته في آسيا من أقرب نقطةٍ ممكنة، لتتحول المنطقة إلى منطقة جذبٍ تجاري عظيم وعالمي. وهكذا فقط يكون المستحيل قد أصبح ممكنًا! لميناء داخل اليابسة ويستقبل سفن عالم الشمال وعالم الجنوب.

وفي الوقت نفسه تقع المدينة العبقرية عند منطلق الخطوط الرئيسية للمواصلات مع آسيا، فعندها يبدأ الخط المتجه شمالًا فشرقًا المحاذي للبحر المتوسط، المعروف بطريق حورس الحربي الكبير، ثم طريق متلا وطريق الجدي اللذان يخترقان وسط سيناء نحو الشرق ونحو الجنوب، بينما المنطلق للجميع من عند نقطة انطلاقٍ واحدة لا يوجد غيرها، عند المدينة الميناء، وتصدق قصيدة مدح رعمسيس الكبرى ثم الصغرى، وهي تصف المدينة بأنها تقع على بداية «الطريق الوحيد نحو آسيا، وأنها بمفردها كمدينةٍ حدٌّ فاصل بين الأراضي المصرية والأراضي الفلسطينية».

ثم إن الفرعون المصري قد ضمن بذلك سيطرته التامة أيضًا على بلاده من الداخل لمنع أي عمليات هروب، فمدينته العبقرية تقع على المجرى النهري الرئيسي، لقد كان الموقع فريدًا يليق بمن هندسه.

وحسب هذا التصور، فإن ذلك التخطيط الاستراتيجي العسكري الإداري الفني الفذ، قد حجز مصر تمامًا عن سيناء بقناة سيزوستريس المتصلة بالخليج العربي (السويس)، بالبحر الأحمر جنوبًا وقناة الجفار والفرع البيلوزي المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط شمالًا، ولم يترك مكانًا مفتوحًا للقادم من سيناء إلى مصر، سوى تلك المساحة الصغيرة، ولا بد في هذه الحال للداخل إلى مصر من المرور على قلاعها الواقفة بين القناتَين عند مدينة رعمسيس، كي يتمكن من دخول مصر، وأصبح الماء حائلًا دون الدخول أو الهروب، إلا عبر تلك المساحة الضيقة الواقعة تحت رقابة الجيش الكاملة، والأكثر يسرًا في مدينة المدائن وميناء الموانئ اللغز المعجز «رعمسيس».

وأصبحت مساحة وادي طميلات المحصورة بين بحيرة التمساح والبحيرة المُرة شرقًا، وحتى نقطة التقاء الماءين عند رعمسيس غربًا، مساحةً خاصة جدًّا كادت تكون سينائية تمامًا وخارج مصر؛ لذلك يصبح مفهومًا لماذا أسماها اليونان المقاطعة العربية والفلسطينية لاتصالها المباشر ببوادي سيناء السامية.

وتحكي لنا التوراة حكاية خروج بني إسرائيل من مصر تحت قيادة «موسى»، وتفصل أسماء المواضع بتفصيلٍ يقول:

> فارتحل بنو إسرائيل من «رعمسيس» إلى «سكوت» نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيفٌ كثيرٌ أيضًا مع غنمٍ وبقر «ومواشٍ وافرة جدًّا». وكان لما أطلق فرعون الشعب «أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة» لأن الله قال: لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر، «فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف»، وارتحلوا من «سكوت» ونزلوا في إيثام في طرف البرية. وكلم الرب موسى قائلًا: كلم بني إسرائيل أن «يرجعوا»، وينزلوا أمام «فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون»، مقابلة تنزلون عند البحر ... فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب، تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب، فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا، فشد مركبته وأخذ قومه معه، وأخذ ستمائة مركبةٍ منتخبة وسائر مركبات مصر، وجنودًا مركبية على جميعها، وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر، حتى سعى وراء بني إسرائيل، وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه، وهم «نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون». ومدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريحٍ

شرقيةٍ شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون، فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه، فدفع الرب المصريين في وسط البحر. ثم ارتحل موسى بإسرائيل من «بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور». (خروج، ١٢: ٣٧، ٣٨؛ ١٣: ١٧، ١٨، ٢٠؛ ١٤: ١، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٧؛ ١٥: ٢٢)

فماذا لدينا هنا من مواضعَ جغرافية على خط السير الهلامي هذا؟

الفرض التأسيسي أن مدينة رعمسيس تقع على حدود الدلتا الشرقية مع البراري السينائية، بين البحر المتوسط شمالًا، وخليج السويس أو القلزم أو العربي من البحر الأحمر جنوبًا.

والنص يقول إنهم ارتحلوا من رعمسيس إلى موضعٍ آخر، يحمل اسم سكوت، وأن الموقع سكوت كان أول محطة على طريقٍ يحمل اسم طريق أرض الفلسطينيين، وأن «طريق أرض الفلسطينيين» كان قريبًا من الموقع سكوت، أي إنهم اتجهوا نحو بداية طريقٍ معلوم، يعبر سيناء ليفضي إلى أرض فلسطين، وهو طريق حورس الحربي السائر بحذاء شاطئ المتوسط، لكن النص يقول إن الرب بعد أن تركهم يمضون هذه المسافة إلى سكوت نحو الطريق الدولي، خشي من تعرض شعبه لمعركة وحرب؛ مما يعني أن هذا الطريق يقف عليه قومٌ مسلحون، يمكنهم أن يجعلوا الشعب يندم على خروجه من مصر، أو بالأحرى أن موسى قد شاهد علامات وجود تلك القوة العسكرية الحدودية، فأمر رجاله بالعودة مرةً أخرى، وهو ما يفهم من التعبير: «فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف.» وكانت تلك العودة نحو صحراء تحمل اسم برية بحر سوف، وهو ما يفيد أن تلك البادية تحمل اسم بحر داخل محيطها الجغرافي، هو بحر سوف، وهكذا عادوا من سكوت أول محطات الطريق الدولي نحو فلسطين، ونزلوا إلى موضعٍ باسم إيثام في هذه البادية (برية بحر سوف)، ومن هناك رجعوا مرةً أخرى، ونزلوا في موضعٍ تتعدد إحداثياته الجغرافية، حتى تكاد التوراة تضع له حدوده الأربعة، فالحد الأول الواضح هو البحر، وفي المقابل الآخر للبحر «مجدل» أي القلعة، وعليه فقد كان الإسرائيليون لحظة الخروج بين القلعة والبحر، وأمامهم يقع موضع باسم «بعل صفون»، وهو اسم إله،

مما يشير إلى معبدٍ أو تمثال لهذا الإله في ذلك الموضع، أما الموضع الذي نزلوا فيه على بحر سوف، فكان يحمل اسم «فم الحيروث»، التي هي في أصلها العبري بي هـ حيروت، ومن بي هـ حيروت عبروا البحر المفلوق بالعصا الثعبانية، ليخرجوا إلى صحراء باسم برية شور، تقع إلى الشرق من بحر سوف.

نحن إذن بعد أن حددنا موضع رعمسيس بالمسخوطة حاليًّا أو الخشبي، ولا زلنا نجمع لها الأدلة، بحاجةٍ إلى تحديد عدد من المواضع الجغرافية هي:

- «فيثوم»: رفيقة رعمسيس في التوراة، حيث استُعبِد بنو إسرائيل في بناء المدينتَين.
- «سكوت»: الواقعة على أول الطريق الدولي وإيثام الموجود في برية بحر سوف.
- «فم الحيروث»: بين مجدل والبحر أمام بعل صفون.
- «بحر سوف»: الذي تقع على شاطئه الغربي الإحداثيات السابقة.
- «برية شور»: على الشاطئ الشرقي من بحر سوف.

(١) هندسة المكان

المفترض حسب رواية التوراة، أن تقع مدينة الاضطهاد «رعمسيس» قرب بحر سوف، وعلى جانب هذا البحر من جهة الغرب، وعليه يتم الاستنتاج أن الخارجين خرجوا من رعمسيس، ولم يتجهوا شرقًا نحو البحر مباشرة، الذي لا نجد له مقابلًا له في تلك المنطقة، سوى بحيرة التمساح، إنما اتجهوا شمالًا نحو الطريق الدولي (طريق حورس) الحربي المتجه نحو فلسطين، ونزلوا محطة سكوت، ثم عادوا منها جنوبًا مرةً أخرى نحو بحيرة التمساح، بعد أن خشوا حربًا، ليحدث العبور من مدينة رعمسيس التي خرجوا منها في البداية، وهو ما يعني افتراض وجود رعمسيس قرب بحيرة التمساح، وهو ما سبق وذهب إليه دي بوا إيميه عبقري الحملة الفرنسية الفذ، عندما اعتبر تل المسخوطة هي مدينة رعمسيس، وهو الأمر الذي عثرنا له على كثيرٍ من القرائن والشواهد والمؤيدات، فقد عثر ليبسيوس في موقع تل المسخوطة عام ١٨٦٠م، على تماثيل لرمسيس الثاني مع الإلهَين رع وآتوم، كما عثر على آثار سورٍ عظيم يحيط بالبلدة، كما عثر على تماثيل لأبي الهول من الجرانيت الأسود، تحمل اسم رمسيس الثاني، كذلك عثر نافيل هناك عام ١٨٨٤م على حجرات مخازن مصنوعة من اللبن؛ لذلك ذهب كلاهما إلى موضعة مدينة رعمسيس في موضع المسخوطة/الخشبي الآن بوادي طميلات غربي

بحيرة التمساح،[٢٧] لكن دون أن يقدم أحدهما أو يكابد ما كابدناه هنا، لقد وضعوها فروضًا سريعة في شكل فكرةٍ فلاشية، تنبني على وجود آثار مصرية لرعمسيس الثاني وليس أبعد من ذلك.

وهنا نعثر بعد لأيٍ على واحدة من أخطر الشوارد لكنها الشواهد، المتمثلة في الإله الذي أفصحت عنه آثار المسخوطة، الذي ورد مكتوبًا «وع نب هوو»، الذي يعني «الرب الوحيد هوو»،[٢٨] وهو ما يصادق على كل ما قلنا حتى الآن؛ لأن «هوو» ببساطة هو «يهوه»، هذا ناهيك عن دليلٍ قاطع، حيث لا يكتب النصب السبعوني للتوراة اسم مدينة الاضطهاد بالاسم رعمسيس، إنما بالاسم هيروبوليس، والمعلوم أن اسم «هيروبوليس» في العصر اليوناني كان الاسم الذي أطلقه الإغريق على تل المسخوطة الحالية، فقد ذكر استرابون أن هيروبوليس تقع قرب ميناء أرسينوي على خليج العرب، وقد أكد أميلينو في جغرافيته أن هيروبوليس هي المسخوطة.[٢٩]

لكن يبقى المأخذ على هذا الفرض؛ لأن تل المسخوطة لا تقع على بحيرة التمساح، إذا افترضنا أن بحيرة التمساح هي بحر سوف، إنما تبعد عنها إلى الغرب، بمسافةٍ تصل إلى ستة عشر كيلومترًا.

خاصةً أننا سبق ورفضنا نظريات، تجعل بحر سوف مجرد بحيرة مثل بحيرة المنزلة عند بروجش، أو بحيرة البلاح عند علي شافعي، أو بحيرة البردويل عند بيير مونتييه، وأصررنا على خليج السويس بالبحر الأحمر، فهل ثمة حل؟

لقد حللنا ذلك عندما قلنا إن الماء العذب كان يتدفق تلقائيًّا حتى يصل المسخوطة، وإن ما فعله آمنحتب الثالث، أنه أعاد الحفر من فرع النيل البوباستي، الذي سبقه إليه أخيتوي، للمسافة بين المسخوطة وبين بحيرة التمساح (١٦كم)، لإقامة بحيرة لمليكته تي، وحفر من جنوب البحيرات المرة إلى خليج السويس، ليأتي بالماء المالح القادم من البحر إلى البحيرات المرة، بإزالة التلال الملحية أمام ماء الخليج ليس أكثر، ليندفع الماء للبحيرات المرة، ومن البحيرات المرة تم حفر مسافة ستة عشر كيلومترًا غربًا، ليلتقي ماء البحر بماء النيل في نقطة، لتقام هناك مدينة رعمسيس، في موضعٍ بحاجة بالضرورة إلى

---

[٢٧] بوابة، سبق ذكره، ص٩٧–٩٨.

[٢٨] سليم حسن: أقسام ... سبق ذكره، ص٧٦–٧٧.

[٢٩] رمزي: قاموس البلدان المندرسة، ص١٩٣.

قناطرَ للعبور، ولا ننسى لوحة الكرنك، التي رسمت لنا مدينة رعمسيس، في هيئة قناطر تطل على نهرٍ وبحر معًا.

ويظل علينا مع كل تلك المجازفات أن نحدد: أين تقع رفيقة رعمسيس التي دونت التوراة اسمها فيثوم؟

وهنا نقف مع أميلينو الذي اعتمد على خط سير أنطونين الروماني، وقد وضع أنطونين مدينة فيثوم (بي توم أو باتوموس بالنطق اليوناني)، على بعد ٢٤ ميلًا غربي هيروبوليس/المسخوطة غربًا، ومن ثم استند أميلينو إلى ذلك، وانتهى إلى أن بي توم هي التل الكبير الآن، فحدد موقع فيثوم بأنه التل الكبير،[٣٠] وهو ما نخالفه فيه بشدة، كما سيأتي بيانه.

وفي رسالة الكاتب بينبس لسيده أمنموبي، يقول عن مدينة رعمسيس:

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعمسيس.
محبوب آمون ...
لديها مؤن وذخيرة كل يوم.
بركها تزخر بالسمك و«بحيراتها» بالطيور
...
وشواطئها محملة بالبلح
...
وهي تناطح السماء في «ارتفاعها»
...
وفيها سمك وز الأحمر من «قناة» (تلف بالوثيقة)
...
وسمك بتن من «بحيرة» (تلف بالوثيقة)
...
ويستخرج من «بحيرة حور» النطرون
...

[٣٠] رمزي، قاموس البلدان المندرسة، ص١٩٣.

وسفنها تروح وتجيء إلى «الميناء»
...
إن «مستنقعات» زوف تنبت لها البردي
«وسيحور» تمدها باليراع
«والبحر» فيه سمك بج وسمك أد.

وإشارة الكاتب بينبس إلى سمك وز الأحمر، من عند مدينة رعمسيس، إشارة لسمك ليس نيليًّا على الإطلاق؛ لأن النيل في مصر لا يعرف أي لون للأسماك سوى الرمادي، التي تظهر في نادر أنواعه الخضرة القاتمة والصفرة فيما هو أشد ندرة. وعليه لا بد أن يكون سمك وز المستخرج من مياه مدينة رعمسيس سمكًا بحريًّا، والأكثر التقاء معنا إشارة التقرير، أن «هذا السمك الأحمر البحري لا يعيش في بحر، إنما في قناة» فقدنا اسمها بتلف الوثيقة، ومعنى ذلك أنه يتحدث عن سمكٍ يعيش في القناة القادمة بمياه البحر الأحمر، حتى المسخوطة حيث منطقة التوازن، أما «سيحور» فهي الفرع البيلوزي (قناة الجفار) أو «الشيحور» بالتوراة، الذي وصفته التوراة بأنه «الشيحور الذي هو أمام مصر» (يشوع، ١٣: ٢). وعن ماء حور أو سي حور أو الشيحور، حدثنا النبي الإسرائيلي إرميا، وهو يندد بشعبه الذي يلجأ بسوائمه إلى مياه مصر، يناديه قائلًا: «والآن مالك وطريق مصر لشرب مياه شيحور» (إرميا، ٢: ١٨).

ولا حل سوى أن تكون بحيرة حور، هي التي نعرفها اليوم باسم بحيرة البلاح، أما مستنقعات زوف التي كانت تمد مدينة رعمسيس بالبردي، فيمكن أن تكون هي بحيرة التمساح.

ثم بهذا التصور الذي طرحناه وحده، تنطبق لوحة الكرنك وتتطابق بالكامل مع الموضع الذي حددناه، حيث وضعت مدينة رعمسيس على ماءين: أحدهما مالح بتصوير الأسماك البحرية، والآخر عذب بتصوير بيئةٍ نهريةٍ نيلية.

وفي التوراة يتكرر ذكر مدينة مصرية باسم «نو آمون»، كما في سفر «ناحوم، ٣: ٨–١٠»، وتذكر في مواضعَ أخرى باسم «آمون نو» كما في «إرميا،٤٦: ٢٥»، وأحيانًا تذكر فقط باسم «نو»، كما في «حزقيال،٣٠». وقد ذهب الباحثون إلى أن المقصود بها طيبة (الأقصر الحالية)، لورود اسم آمون وهو سيد طيبة ورب الدولة، في اسمها المركب «نو آمون».

لكننا نعلم أن أحد الألقاب المتكررة لرعمسيس — الذي منح المدينة اسمه — الذي عادةً ما يلازم اسمه هو «رعمسيس ميامون»، ونظن مدينة «نو آمون» هي «ميامون»

لاختلاط النوم بالميم، إشارة لمدينة رعمسيس العبقرية كما حددنا موضعها، ويدعمنا في ذلك المواصفات التي قدمتها التوراة لمدينة «نو آمون» أو كما نظن «ميامون»، حيث تطابق المواصفات التوراتية خريطتنا لرعمسيس تطابقًا تامًّا، انظر معي التوراة تقول مخاطبةً أورشليم، تصغيرًا إزاء مدينة عظيمة أخرى، تقع في مصر اسمها «نو آمون»:

> هل أنت «يا أورشليم» أفضل من نو آمون؟ «الجالسة بين الأنهار، حولها المياه حصن ومن البحر سور لها». (ناحوم، ٣: ٨–٩)

ومثل هذا الوصف إطلاقًا لا يطابق «طيبة/الأقصر»، فالبحر ليس سورًا لها، فهي بعيدة تمامًا عن أي بحر بالمطلق، وليس هناك أنهار بل نهرٌ واحد هو شريان النيل القادم من أفريقيا، أما تلك الجالسة «بين الأنهار والبحر سور لها والمياه حصون»، فلا شك لدينا أنها مدينة رعمسيس/المسخوطة، حسب نظريتنا أو جغرافيتنا.

الفصل الثالث

إحداثيات مواضع الخروج

(١) فيثوم

فيثوم العبرية هي في المصرية القديمة بي – توم، أي مقر الإله آتوم، ورد ذكرها عند المؤرخين الكلاسيك مصرفة اسميًّا بالاسم باتوموس، وقد وضعها هيرودت على القناة الواصلة بين الفرع البوبسطي للنيل وبين بحيرة التمساح، والتي تمتد حتى الخليج، وأطلق المؤرخون الكلاسيك على مدينة بيتوم «أرابيا» أي المدينة العربية، نسبةً إلى غلبة العنصر الآسيوي البدوي على سكانها حتى العصر اليوناني.

ولدينا الآن وثيقتان شديدتا التنافر، كلٌّ منهما تعطي تقريرًا عن موضع فيثوم بالنسبة لرعمسيس: الأولى هي خط سير الحاجة إيثريا، التي تقول إن المدينة العربية «أرابيا»، تبعد عن رعمسيس مسافة أربعة أميال فقط، والثانية خط السير الروماني «أنطونين»، ويعطينا مسافة أربعة وعشرين ميلًا كاملة، وعليه سنقوم بتحقيق كلتا المسافتَين، لنرى إلى أين تلقي بنا تقديراتهما، ونبدأ بخط السير الروماني «أنطونين».

وباعتماد لوحات دارا التي وضعت على مسافاتٍ متساوية كل منها ٢٥كم، يمكننا أن نقوم ببعض الحسابات مع أنطونين (وليس مع أميلينو الذي ذهب إلى أن بيتوم حسب أنطونين هي التل الكبير ولا نعلم كيف).

إن المسافة إذن بين تل المسخوطة وبين تل بسطة/الزقازيق حاليًّا خمسون كيلومترًا، لو طرحنا منها ٢٤ ميلًا أي ٣٧ كيلومترًا ستكون المسافة بين الموضع الذي نبحث عنه (فيثوم) وبين تل بسطة/الزقازيق حوالي ١٣ كيلومترًا، ولو بحثنا شرقي الزقازيق على خط وادي طميلات بعد ثلاثة عشر كيلومترًا سنجد قريتَين متجاورتَين يفصل بينهما كيلومتر واحد، إحداهما باسم «سفط الحنة» والأخرى باسم الصوة، وعندما وصلنا إلى ذلك، «ومضينا نبحث وراء سفط الحنة والصوة، كانت النتائج مبهرة حقًّا».

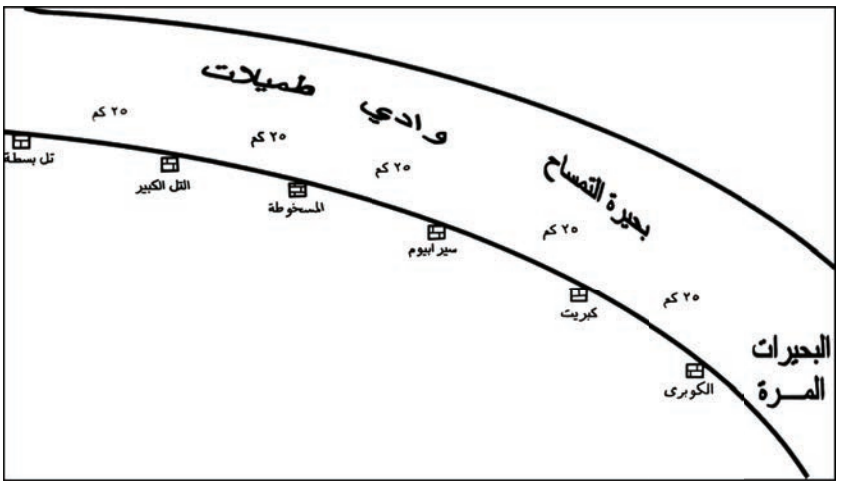

شكل ٣-١: لوحات دارا.

وخط السير الروماني للإمبراطور أنطونين، إذ يشرح يقول إن المسافة ٢٤ ميلًا بين هيروبوليس (رعمسيس/المسخوطة) وبين بي توم، يحدد أكثر فيقول إن نقطة انتهاء الـ ٢٤ ميلًا، تقع عند «بيتوم أو باتوموس التي تسمى ثو»،[١] ذلك الاسم الغريب الذي لم يزل موضع خلافٍ حادٍّ بين المؤرخين، دون تحديدٍ جغرافيٍّ واضح، و«ثو» برأينا تؤدي إلى «ثوم» أو بي توم، وقد أكد سليم حسن أن بلدة «ثو» أو «سو» أو «صو» موضعٌ مجهول تمامًا حتى الآن، وكل ما نعلمه عنه أنه كان عاصمةً لمقاطعة باسم «حقا عنز».[٢] ولو ترجمنا حقا عنز عن الهيروغليفية فسيكون «حكم السمكة، باعتبار السمكة هي عنز»، وحقا هي الحكم، ولو ترجمناها بافتراض الأثر السامي من البدو، وهي منطقةٌ سامية تسمى العربية، فإن الترجمة ستكون: مقر حكم العنزيين أو الرعاة أو أصحاب العنز، وهو المرجَّح لدينا وسيتأكد في الأبواب المقبلة، عندما نعلم أن العنزيين هم من

[١] رمزي، القاموس، سبق ذكره، ج١، ص١، ٢، ٦٦.
[٢] سليم حسن، أقسام ... سبق ذكره، ص٨٥.

الساميين، أما معنى كلمة «صو» نفسها في المصرية القديمة، فهو المكان المحصور أو المضيق،[٣] وسنرى عندما تكتمل فرضياتنا ونرسم خريطتنا، كم يصدق اسم «صو» على موقعها الجغرافي.

ثم إن «سو» أو «صو» أو «ثو» تحمل معنًى آخر، يلائمنا تمامًا ويدعم أطروحاتنا؛ لأنها كما تعني المضيق فهي أيضًا تعني في المصرية القديمة اسم الإشارة للغائب المذكر «هو»، وهو ما يُحيل مبنًى ومعنًى إلى رب التوراة «يهو»، الذي لا يلفظ اسمه ويُكنَّى عنه باسم الإشارة «هو»،[٤] وبفعل الكينونة (يكون أو الكائن).

ثم معنًى ثالثًا يشير إلى ترافقٍ وتجاور وتلاصق بين مدينتين هما «صو» و«بيتوم»؛ لأن كلمة «صو» تعني أيضًا «يمشي بقربه»، رفقة، تجاور؛ فهي المجاورة أو الرفيقة،[٥] ولا يزال المصري حتى اليوم يستخدم كلمة «سوا» تعبيرًا عن الرفقة والتلازم.

وقديمًا جازف جوتييه — فيما يبدو تخمينًا — مجازفةً نراها صادقة حقًّا، فقال في قاموسه أن «صو» هو الاسم الديني لمدينة Per Atoum «بر آتوم»، المذكورة في الوثائق المصرية، وأن اسمها المدني كان فيثوم Phithom المدوَّن بالتوراة، وأن اسمها الرومي هو Patoumos. بعد كل هذا الكلام الجميل، يحدد موضعها عند التل الكبير، ولكن لدينا الآن وبيدنا مع التدقيق قرية «الصوة»،[٦] الملاصقة لسفط الحنة على مرمى ميلٍ واحد منها، ثم نتذكر أن هناك اسمًا لمدينة ورد بالتورة هو «صوعن»، لم كن نعلم بالقطع هل كان يطلق على قسم من مدينة رعمسيس، أم على قسم من مدينة فيثوم، والآن لا شك قد أصبحنا نعلم، «فالصوة هي صوعن أما فيثوم فيجب أن تكون سفط الحنة»، ونتذكر هنا نافيل عندما ألقاها إلقاءً، وقال إن مدينة رعمسيس هي سفط الحنة، لكن على أية حال لم تكن سفط الحنة هي رعمسيس حسبما وصلنا إليه، إنما سفط الحنة هي بيتوم/فيثوم/باتوموس/أرابيا/المدينة العربية المعروفة عند اليونان باسم فاكوسة (وليس فاقوس الحالية)، وهناك تم العثور على قطعتين من الجرانيت الأسود باسم رعمسيس الثاني، إضافةً إلى قطعتين أخريين باسمه من البازلت، أما المدهش فهو أن

[٣] رمزي، القاموس، البلدان المندرسة، ج١، ص١٨٤.

[٤] أنطون ذكري، مفتاح اللغة المصرية ... سبق ذكره، ص٦١.

[٥] نفسه، ص٧٩.

[٦] رمزي، ٢، ١، ٦٦.

يحتفظ اللسان المصري حتى الآن بذكريات الماضي، فلم يزل المصرف القائم محل الترعة القديمة من النيل إلى بسطة يحمل اسم مصرف «الفيوم»! ولا علاقة له بالفيوم الحالية، ولا يوجد في الجوار أي مكان باسم الفيوم، ومن ثم فلا ريب أنه من البقايا اللغوية الحاملة لمدينة «فيثوم».

ويرى جوتييه أن اسم كلمة «سفط» في سفط الحنة، مشتقة من اسم الإله «سوبد» — بقلب الباء فاء — المعروف باسم رب الشرق المصري القديم،[٧] ويرجح أن اسمها المصري القديم كان «برسوبد»، ويبدو أن هذا التخريج لدى جوتييه وآخرين، قد اعتمد على نقوش وجدت على ناووس في سفط الحنة وضمنها «بيت سب»، رغم أن ترجمة «بيت سب» بأنها «بيت سوبت» فيه تكلفٌ شديد؛ لأن ترجمتها المباشرة كما هي «بيت سب» تعني «بيت الجميزة». هكذا فسروا «سفط» وبقيت «الحنة»! هنا قيل إنه كان للبلدة اسمًا آخر هو «سختيو حنو» أي حقل الحنا، وهكذا تكون سفط الحنا قد أخذت اسمها من اسمَين قديمَين، سفط من اسم الإله «سوبد» في كلمة «بيت سب»، والحنا من «حنو» في كلمة «سختيو حنو»![٨]

وما دمنا غير موافقين على هذا التخريج فماذا لدينا؟ سنعيد كلمة سفط مباشرة إلى «سبيت» أو «سبت»، التي تعني إقليم أو فرع أو مقاطعة، وليس إلى الإله سوبد، مع ملاحظة أن قرى تملأ كل بر مصر الآن، يبدأ اسمها بكلمة سفط، ولا يمكننا بحالٍ أن نتصور أن مئات القرى في عمق مصر، كانت تعبد الإله سوبد رب المشرق إلهًا رئيسيًّا لها تأخذ منه اسمها، وهو إله مغمور الشأن بين آلهة مصر، لكن الأرجح أن تكون كل تلك القرى وتحمل اسم سفط شقًّا في اسمها، بمعنى إقليم كذا، وعليه فاسم سفط الحنة هو إقليم الحنة، لكن الحنة لدينا ليست نبات الحنة أو غيط الحنة أبدًا، إنما هي «حنت» الكلمة المصرية القديمة التي تعني: «الفاصلة»، وكانت تطلق على المواضع المفصلية، مثلًا كما في مقاطعة شرقي النيل/حلوان الآن، كان اسمها حنت أي الفاصلة بين القطرين القبلي والبحري،[٩] وجاء ذكرها في قائمة سنوسرت بهذا المعنى،[١٠] وعليه يصبح أصل

[٧] رمزي: القاموس ... سبق ذكره، القسم الثاني، الجزء الأول، ص٧٣.

[٨] محمد إبراهيم كامل: إقليم شرق الدلتا في عصوره التاريخية القديمة، ج٢، الهيئة المصرية العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٥٣–٥٥.

[٩] سليم حسن: أقسام ... سبق ذكره، ص٢٣.

[١٠] نفسه، ص٦٦.

«سفط الحنة هو سبت حنت أي المقاطعة الفاصلة»، وهو ما يصادق تمامًا على موقعها كما نرى على خريطتنا.

ويُصادق على كلامنا هنا أن ستي الأول، عندما قام بحملته على الشاسو (بدو سيناء)، بدأها من المدينة الواقعة على «القناة الفاصلة»[١١]، وهي القناة الفاصلة التي عرفناها باسم قناة سيزوستريس، التي كانت ذلك الزمان تبدأ من جنوبي تل بسطة، على هيئة كوع ينحني خارجًا شرقًا من الفرع البوبسطي، ثم تضرب شرقًا مخترقة وادي طميلات حتى تصل بحيرة التمساح.

وتتدافع الدلائل بين أيدينا عندما يطالعنا معجم البلدان، بأن سفط الحنة قرية في جوف مصر قرب بلبيس، ويفيدنا المشترك لياقوت بأنها هي سفط «ترابية أو طرابية أو طرابيته»،[١٢] وهكذا يمسي أمر سفط الحنة شديد الوضوح. لقد أطلق اليونان على مدينة فيثوم القديمة (باتوموس) اسم «أرابيا/العربية»، وأضاف لها اللسان المصري كلمة «أرض» المصرية «ت/طأ»، فأصبحت «طأ/أرابيا» هي ترابية أو طرابية في معاجم البلدان العربية، أما اسم «فاكوسة» فلا شك أنه كان اسم المقاطعة، وكانت المقاطعة التي عاش الإسرائيليون في مدنها باسم جاسان، ولو أضفنا إليها «بي» أي «موضع أو بيت» كالعادة المصرية، فستصبح بي جاسان أو بالأحرى فاقوسان أو فاكوسة.

هذا ما كان عن مطابقتنا لخط السير الروماني (أنطونين)، ٢٤ ميلًا بين هيروبوليس/المسخوطة وبين باتوموس/فيثوم، وأدى بنا إلى «الصوة وسفط الحنة كموقع لفيثوم»، أما لو أخذنا بما جاء عند الحاجة إيثيريا، بأن المسافة بين رعمسيس وأرابيا فيثوم أربعة أميال فقط، وإذ كنا قد سلمنا بأن رعمسيس هي المسخوطة فإن على مسافة ٤ ½ أميال، إلى الغرب منها تقع تل رطابة بكل آثارها الفنية بدورها بالمخازن والتماثيل الرعمسية، ناهيك عن كون «تل رطابة» يمكن أن يكون تحريفًا لسانيًّا للاسم «طرابيته»، الذي أطلقه العرب على أرابيا فيثوم، لكنا نميل بشدة إلى خط سير أنطونين، كإمبراطور يحوز الثقة بما لديه من جهازٍ هندسيٍّ عسكريٍّ متكامل، وربما سقط من مدوِّن إيثريا رقم المدونات اليونانية التي تشير إلى الرقم «٢» اللاحق برقم «٢٤ ميلًا»، فأدى إلى فوضى هائلة في تحديد موقع المدينة العربية، وإذا أردنا الفرض الذي يذهب إلى

[١١] مصر قديمة: ٦، ٣٥.

[١٢] رمزي: ١، ٢، ٧٣.

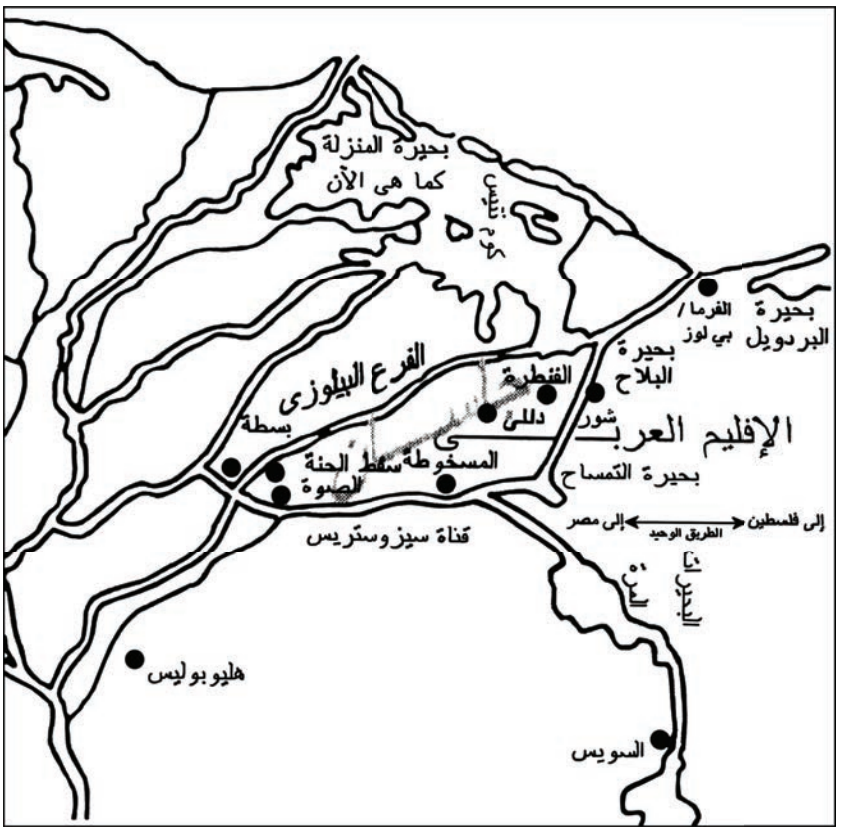

شكل ٣-٢: قطاع أوضح لموضع الأحداث حسب رؤيتنا وتخريجنا.

تل رطابة، فالمسافة بين المسخوطة ورطابة، تزيد عن أربعة أميال بقليل، وفي هذه الحالة ربما كان رقم أنطونين الأصلي «٤»، وأضيفت إليه «٢» بالخطأ، أو لوجود حرف لغوي يليه فسر على أنه «٢» فأصبحت «٢٤»، هذا إذا احتسبنا فيثوم هي رطابة الحالية.

وبهذا التصور نكون قد احتسبنا أن مدينة بيثوم التوراتية هي باتوموس عند هيرودت، ويدعم ذلك قوله العابر: «ويوجد في «بلاد العرب» مكان يقع باتجاه مدينة

«بوتو»، وقد ذهبتُ إلى هذا المكان أثناء بحثي عن الحيات ذات الأجنحة.»[١٣] ولأن علم المصريات لا يعرف سوى مدينةٍ مصرية واحدة باسم بوتو، تقع شرقي فرع رشيد الحالي عند مدينة سايس غربي الدلتا، بعيدًا عن موقعنا هنا شرقي الدلتا، فقد عقب «أحمد بدوي» على قول «هيرودت»: «الغالب أن بوتو هنا مدينة أخرى، ربما كان مكانها بالقرب من البحيرات المُرَّة.»[١٤] والتي يجب أن تكون في هذه الحال هي بي ثوم أو فيثوم.

وإذا صدقت تصوراتنا جميعًا أو بعضها، مع خرائطنا التي خرجناها، والخرائط التي وصلتنا عن القدماء، فلا بد أن منطقة محيط الزقازيق الحالية ووادي طليمات بمدائنه الرائدة فيثوم ورعمسيس، قد تحولت تقريبًا إلى جزيرةٍ بين فرعي المياه، وهي الرواية التي يصادق عليها خبر من هيرودت، يقول عن تل بسطة: «ويقع نطاق معبدها المقدس هكذا كله «ما عدا المدخل»: عبارة عن «جزيرةٍ» إذ تمتد «قناتان»، لا تتصلان ببعضهما، إذ تصل كلٌّ منهما إلى مدخل المعبد، ثم تندفع إحداهما حوله من جانب، والثانية من جانبٍ آخر، ويبلغ عرض كلٍّ من القناتين ثلاثين مترًا.»[١٥]

وقد لفت نظرنا مأثور كان معلومًا لدى تجار عرب الحجاز عشية الإسلام، وكانوا قد أصبحوا تجار العالم في القرن السادس الميلادي، وورثوا البتراء بكل صنوف تجارتها العالمية، وتاجروا مع مصر وعرفوا مدينتها العبقرية، وعايشوا الإسرائيليين وعرفوا مأثورهم عن مدينة الاضطهاد المصرية، وسار بينهم حديث عن بحرَين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، أي لا يبغي أحدهما أو يطغى على الآخر، وأن أحدهما ماءٌ مالح والآخر ماءٌ عذب، ليسجل القرآن الكريم ذلك المأثور العربي بقوله:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ*بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾. (الرحمن: ٢٩-٣٠)

وفي موضعٍ آخر يصف ذات المكان بإشارته لفعلٍ إلهيٍّ معجزٍ عبقري بقوله:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾. (الفرقان: ٥٣)

---

[١٣] هيرودت في مصر، ١٣.

[١٤] هيرودت في مصر، ٢٢٤.

[١٥] مجموعة مؤرخين: الإسماعيلية بوابة مصر الشرقية، لجنة صياغة التاريخ بالحزب الوطني الديمقراطي بالإسماعيلية، مطبعة الفجر الإسماعيلية، ١٩٦٠م، ص١٠٤-١٠٥.

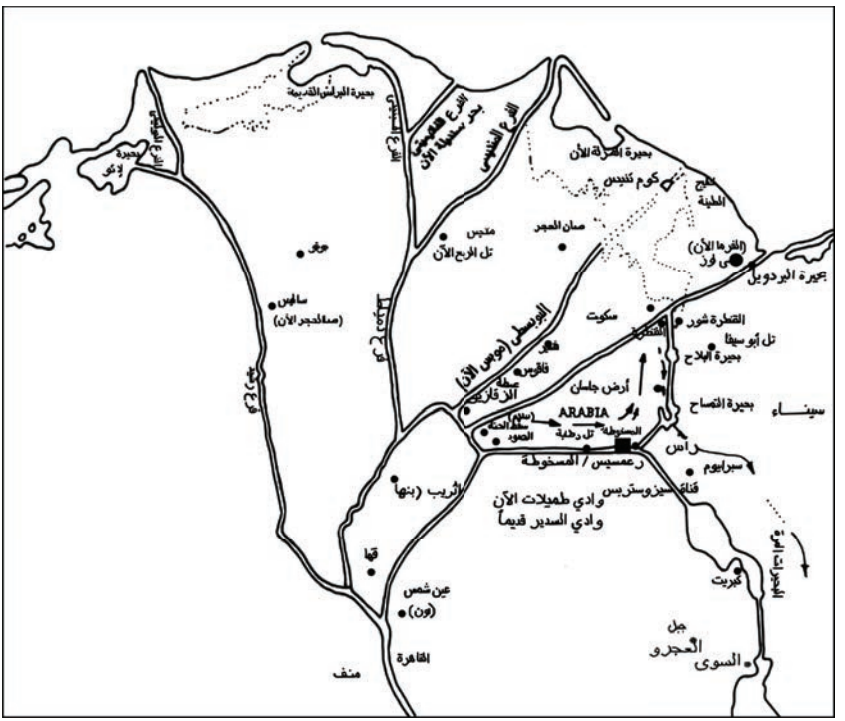

شكل ٣-٣: خروج بني إسرائيل من مصر حسب نظريتنا.

وقد ذهب المفسرون في تفسير هذه الآيات مذاهب شتى، فمنهم من قال إن البحرَين هما خليج السويس وخليج العقبة، أما البرزخ فهو مثلث شبه جزيرة سيناء، لكن ذلك التفسير لا يطابق القول بلونَين متمايزَين من الماء. ومنهم من قال إن البرزخ هو مصبُّ نهري دجلة والفرات، وهما المقصودان بالبحرين، حيث يسير الماء العذب في البحر مسافة، يمكن شرب الماء العذب منها داخل البحر، وقد استند هؤلاء لكلمة فرات، رغم أنها في اللغة تعني الماء العذب على إطلاقه، ولا تخصُّ نهر الفرات العراقي بالتخصيص وبالذات.

أما نحن فنعتقد أننا قد عثرنا على الموقع الصحيح لبحرَين متمايزَين بينهما برزخ، «وقد اقترب من موقعنا ابن الكندي فيما وصله من مأثور، والذي قال عن مدينة

الفرما/بيلوز: «وبها مجمع البحرين وهو البرزخ الذي ذكره الله عز وجل، فقال: مرج البحرين يلتقيان.»[١٦] كذلك كان ابن إياس يعلم أن البحرَين المتمايزَين عذبًا وملحًا يصلان البحر الأحمر، أو كما كان يعرف زمنه ببحر الصين، والبحر الأبيض الذي كان يعرف باسم بحر الروم»، استمع إليه يقول في الجزء الأول من كتاب النجوم الزاهرة وكلماته الباهرة، التي تؤكد كل ما قلنا:

> إن مجمع البحرين يقع في مصر في «منطقة وسطى»، بين بحر الروم (البحر الأبيض [المؤلف]) وبحر الصين (البحر الأحمر [المؤلف])، والحاجز بينهما مسيرة «ليلةٍ واحدة».[١٧]

ومن جانبه احتفظ المأثور الإسلامي بذكرياتٍ، تربط بين ملتقى البحرين عند مدينة رعمسيس، وبين النبي موسى الذي ذهب إلى موضع ملتقى البحرين، ولا نعرف لموسى أية علاقة بالعراق والفرات، لكن علاقته بمصر هي الفصل، ليلتقي هناك بالحي الغائب المعروف باسم الخضر عند مجمع البحرَين.

ثم يجب فهم ما ورد متكررًا بالنصوص المصرية في أزمنةٍ مختلفة عن «سور الأمير أو سور الحاكم الذي يصد الآسيويين» في ضوء ما طرحناه، فهو لم يكن سورًا حجريًّا بطول المسافة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، إنما كان فقط مجموعة قلاع بين بحيرة التمساح وبحيرة البلاح، بينما شكلت القناتان عائقًا مائيًّا ضد أي محاولة دخول، وكان يكفي نثر بعض القلاع، وهنا وهناك للمراقبة، كي تكون حدود مصر آمنة بما يكفي؛ ومن ثم كان لا بد على الداخل إلى مصر، أن ينتهي اضطراريًّا إلى مدينة رعمسيس أولًا، حيث الطريق الوحيد الفاصل بين كل أرضٍ مصرية وكل أرضٍ فلسطينية.

أما عند الفاصل البري بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة، فلا بد أنه قد تواجد أكبر معقلٍ عسكريٍّ مصري.

ونلتفت هنا بعنايةٍ إلى الخبر الذي وردنا من زمن الفرعون مرنبتاح، عن قلعة باسم «ختم سكوت»، وورد في معجم جوتييه ذكر لقلعةٍ كبرى، حملت في زمانه اسم قمور Kemour، كانت تقع شرقي القصاصين، أي ملاصقة لمكان المسخوطة الآن، التي تقع

---

[١٦] نعوم بك شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل بيروت، ١٩٩١م، ص١٨٥.

[١٧] رمزي: القاموس ... سبق ذكره، البلدان المندرسة، ص٤٠٣.

على بعد ٣كم من القصاصين، ولدينا تسجيل كامل لخط رحلةٍ عسكرية، تلك التي قام بها سيتي الأول، لتأديب حلف القبائل السينائية المتمردة؛ ولأننا سنستقي خطوات سير الحملة من جاردنر، فسنهمل تفسيراته ونستبقي الأصل. يقول النقش إن سيتي خرج بحملته، من عند موقع تم تصويره محصنًا، له ضفتان/قنطرتان على قناتين، اسمه «الفاصلة» (لأنه يفصل مصر عن الصحراء)، ويتألف هذا الموقع من مبانٍ في الشمال والجنوب، وله «بابان أحدهما في الشرق وآخر في الغرب»، ويؤدي الباب الشرقي إلى قنطرة فوق قناة.

وكان أول محط نزل به ستي للاستراحة، عند قلعةٍ مستطيلة تقع على بركةٍ مستطيلة الشكل، والاستطالة من الشمال إلى الجنوب، وهي في رأينا قلعة المسخوطة/هيروبوليس، أما البحيرة التي تجاورها في اللوحة فهي بحيرة التمساح المستطيلة من الشمال إلى الجنوب، وقد دون النص اسم تلك القلعة «عرين الأسد» كناية عن الفرعون.

ثم بعد ذلك وعلى الترتيب مع المسير شرقًا، نجد قلعةً أخرى تقع على ذات البحيرة، التي تقع عليها قلعة عرين الأسد، أي حسب تفسيرنا على بحيرة التمساح، أي إنها تجاور المسخوطة، وهو ما يعني في رأينا وقوعها إلى الشرق من المسخوطة مباشرة، وحملت هذه القلعة في النقش اسم «مجدل ماعت» أي قلعة العدل.[١٨]

ويدعم ذلك التفسير أن رعمسيس الأول، كان يحمل وهو وزير في عهد الفرعون حور محب، عدة ألقاب تُحيل إلى الموضع الذي نقف عنده الآن، فهو:

- حارس الحدود الشرقية ومقره قلعة «ثارو».
- رئيس «قلعة مصبات النيل».
- رسول الملك إلى البلاد الأجنبية.
- المشرف على «قلعة العدل».[١٩]

وللمزيد نقرأ في أدب الدولة الوسطى؛ لنقف مع القصة الشهيرة باسم «سنوحي»، ويتحدث فيها بطلها «سنوحي» عن هربه من مصر، إثر مؤامرة دبرت في القصر، بقصد

---

[١٨] Cardiner, The Militatry Road Between Egypt and Palestine, J. E. A, Vol VII, 1920, p. 99, ff.

[١٩] سامي سعيد: الرعامسة، ١٢، ١٣.

اغتيال الملك «أمنمحات الأول»، الذي نجا من المؤامرة، فقرر سنوحي الهرب فورًا خارج البلاد؛ مما يشير إلى أنه ربما كان متواطئًا. يقول سنوحي:

> ثم أسلمت الطريق إلى قدمي متجهًا نحو الشمال، ووصلت أخيرًا إلى جدار الأمير (الحاكم)، الذي كان قد أقيم لصد الآسيويين والقضاء على سكان الصحراء، وقد خبأت نفسي في خميلة، خوفًا من أن يراني الحارس، الذي كان رابضًا فوق الجدار ليل نهار.[٢٠]

فهل لم يجد سنوحي للهرب سوى مكان تقف عليه الحراسة؟ وأمامه كل بوادي سيناء المفتوحة على الدلتا الشرقية؟ نظريتنا وما طرحناه يجيب على السؤال؛ لأنه لم يكن هناك سوى طريقٍ واحد ومدينةٍ واحدة يمكن الخروج منها. وتقول القصيدة الكبرى في مدح رعمسيس: «وجميع الممالك تسعى إليك على الطريق الوحيد.»

«وهنا أقول لأهل الأركيولوجيا وعلوم المصريات، احفروا المسخوطة وستجدون هناك بقية آثار مدينة رعمسيس كاملة، وتحت رعمسيس ستجدون مدينة الهكسوس «حواريس»، واحفروا الصوة وسفط الحنة أو تل رطابة، وستجدون هناك مدينة «فيثوم»، أو هكذا أرجو حسبما وصلت إليه نتائج هذا البحث، القائم على النظر العقلي في وثائق التاريخ، وفق منطقٍ رياضيٍّ بحت، وتكون جهودكم مشكورة».

(٢) سكوت

هي أول محطة للخارجين من مدينة رعمسيس، وتقع على بداية الطريق الدولي المذكور في التوراة، باسم طريق أرض الفلسطينيين، ونحن نعلم من الوثائق المصرية أن الطريق الدولي الحربي الكبير إلى فلسطين، كان يعرف باسم طريق حورس الكبير، وكان يبدأ من عند مدينةٍ محصنة بالقلاع الضخمة، كانت تعرف باسم زارو أو ثاروا أو سيلا أو شور، وقد تم تحديد سيلا إلى الشرق من مدينة القنطرة الحالية بثلاثة كيلومترات، عند موضعٍ يعرف الآن باسم تل أبو سيفا أو أبو صيفا،[٢١] فإذا افترضنا أن هذا الطريق هو

---

[٢٠] سليم حسن: الأدب، ج١، ص٤٥.

[٢١] كامل: إقليم شرقي الدلتا ... سبق ذكره، ص٢٢٠.

ذات الطريق، الذي قرر الخارجون اتخاذه في البداية للاتجاه نحو فلسطين، فلا بد في هذه الحالة أن تكون القنطرة غربي أبو صيفا مباشرة، هي التي أشارت إليها التوراة بالاسم سكوت، وهو خط السير المنطقي نحو فلسطين، لكن عند وصولهم واكتشافهم حجم وضخامة الاستعدادات العسكرية، على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشرق من قلعة سيلة، قرروا العودة مرةً أخرى جنوبًا باتجاه ما أسمته التوراة بحر سوف، وفي هذه الحالة سيكونون باتجاه بحيرة التمساح، أو على التدقيق مقابل الخانق اليابس الممتد بطولها، وأنهم نزلوا بعد عودتهم من سكوت جنوبًا في موضعٍ يدعى إيثام. وفي النصوص المصرية نقرأ عن قلعة زمن الفرعون مرنبتاح، تحمل اسم «ختم سكوت»، وأنها تقع قرب بحيرة تحمل اسم «بي توم مرنبتاح»، وأن في محيطها تقع مدينة اسمها «أتوما»، حيث يسكن البدو،[٢٢] التي أرى أنها هي إيثام الواردة بالتوراة.

وقد وردت بالقوائم المصرية مدينة، تحمل اسمًا يطابق الاسم التوراتي سكوت، بالصياغة تيكوت وتكو، بحسبانها مدينة لمقاطعة من مقاطعات الوجه البحري، وورد ذكرها في بردية أنستاسي من الأسرة ١٩ «بحسبانها تقع على الحدود، ويسكنها أقوام من الأجانب».[٢٣]

وفي تل المسخوطة الواقع في وادي طميلات غربي بحيرة التمساح، تم العثور على لوحة لبطلميوس الثاني، محفوظة الآن بالمتحف المصري عليها النص التالي:

> ... وفي الشهر الثالث من العام السادس من حكم جلالته (أي حوالي ٢٨٠ق.م.) «حفروا قناة» لإدخال السرور على قلب أبيهم آتوم الإله العظيم، «والإله الحي سكوت»، وبقصد إحضار إلهة مديرية خنت يابت.[٢٤]

ويلتقي هنا اسم الإله سكوت بالموضع سكوت، والنص يفيد بوقوع معبد الإله سكوت في مديرية خنت يابت، وبالبحث نجد ما يؤيد وضعنا لسكوت التوراتية عند القنطرة غربي قلعة سيلا/أبو صيفا، إذ نعلم أن عاصمة مقاطعة خنت يابت هذه، كانت هي قلعة سيلا ذاتها.[٢٥] وقد أوضح العالم روجيه من جانبه أن ثارو/سيلا كانت

---

[٢٢] بوابة: سبق ذكره، ص٩٧–٩٨.

[٢٣] بوابة: سبق ذكره، ص٩٧.

[٢٤] نصحي: سبق ذكره، ص٤٨.

[٢٥] كامل: سبق ذكره، ص٢٢٠.

عاصمة لمقاطعة خنت يابت، وأنها كانت من أكبر القلاع التي تحمي المدخل الشرقي الرئيسي لمصر.[٢٦]

كما وجدنا عند جوتييه أن سكوت (بالعبرية سوخيت وتعني مظلات أو عشش)، هي بالمصرية تيكو أو تكوت، وأن لها في المصرية القديمة معنيين: الأول هو مدينة الحقل، أما الثاني وهو ما يُطابق حال المدينة حسب رؤيتنا؛ لأنه يعني «باب الشرق».[٢٧]

(٣) فم الحيروت

لحل تلك الإشكاليات جميعًا حلًّا سهلًا، ولاحتمالات سكنى الإسرائيليين بمصر في أقصى الشمال، عند صان الحجر أو قنتير، واحتمالاتٍ أخرى بسكنهم في وادي طميلات، والاحتمالان يستتبعان الخروج عبر طريق حورس الحربي المنطلق من صان الحجر، محاذيًا للبحر المتوسط، أو الخروج عبر وادي طميلات إلى ممر متلا أو ممر الجدي الممتدين إلى وسط سيناء، فقد تم طرح حلٍّ سريع وسهل، أصبح اليوم كما لو كان ليس له بديل، يقول بدفعتَين للخروج، أي إن الإسرائيليين خرجوا على مرتين: الأولى من صان الحجر أو ربما قنتير، والدفعة الثانية من وادي طميلات عند المسخوطة، لكن نظريتنا لم تُبقِ مساحة للطروحات المجازفة المستسهلة، فالإسرائيليون حسب خريطتنا قد خرجوا من فيثوم/الصوة/سفط الحنة، ليمروا بعد ذلك على رعمسيس (المسخوطة/الآن: الخشبي)، ليأخذوا بقيتهم من هناك نحو الشمال إلى القنطرة غرب «سكوت»، لينيخوا هناك يتدبرون أمرهم، فيقررون التوجه نحو بداية خط الطرق الدولية المؤدية إلى فلسطين، لكن ليكتشف الخارجون أن قلاع مصر في سيلة/شور (القنطرة شرق)، كانت قد أخذت عدتها كاملة، وتحاشيًا للحرب حسب نص التوراة:

> إن الله لم يهدهم في «طريق أرض الفلسطينيين» مع أنها قريبة؛ لأن الله قال: لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر، فأدارهم الله في طريق برية بحر سوف. (خروج، ١٣: ١٧، ١٨)

---

[٢٦] كامل: سبق ذكره، ص٢٢١.

[٢٧] رمزي: القاموس، سبق ذكره، البلدان المندرسة، ص٢٨٧، وبوابه: سبق ذكره، ص٩٨.

وإذا أخذنا باحتمالات الطرد، وأنهم لم يخرجوا عنوةً وعتوًّا، رغم إرادة المصريين كما تحب التوراة أن تصور الحدث لإبراز قدرات يهوه، إنما خرجوا مطرودين حسبما فلتت منها الحقائق في مواضعَ أخرى، فقد عادوا وهبطوا جنوبًا نحو بحيرة التمساح، يتسللون تسلل الهاربين من المنطقة المعتادة، لفرار العبيد والآبقين والمحكومين بالأحكام، بين شقي البحيرة الضحلة إبان قدوم الرياح، التي ترفع الماء الضحضاح، فيتحولون عن الطريق الرئيسي بتبرير التدخل الإلهي، فأدارهم الله في طريق بحر سوف، أي جنوبًا نحو بحيرة التمساح؛ لأنه كان طبيعيًّا أن تعتبر بحيرة التمساح امتدادًا لبحر سوف، لاتصالها به عبر قناة سيزوستريس، ونستمع التوراة تحكي تلك اللحظة التاريخية، التي قام عليها كل تاريخ إسرائيل فتقول:

> وكلم الرب موسى قائلًا: كلم بني إسرائيل أن «يرجعوا» وينزلوا أمام «فم الحيروت» بين «مجدل والبحر» أمام «بعل صافون»، مقابلة تنزلون عند البحر. (خروج، ١٤: ٢)

وعند فم الحيروت أو بي هـ حيروت بالعبرية، تتم المعجزة الكبرى، فيقول المقدس التوراتي إن العصا الحية اللاعبة بسحرها قد فلقت بحر سوف، وعبر الخارجون بعيدًا عن الطرق المطروقة المعروفة.

والآن هل بيدنا ما يمكننا من تحقيق إحداثيات هذه المواضع الأربعة:

فم الحيروث: أو بي هـ حيروت.

مجدل: أي القلعة.

البحر: وهو بحر القصب سوف.

بعل صافون: وهو معبد للإله بعل السامي الأصل.

لقد سبق وعلمنا أن هذه المنطقة، كانت مركزًا كبيرًا لعبادة الإله بعل صافون/سيت وكل آلهة دافيناي (ارجع إلى نظرية علي بك شافعي)، ومعلوم أن التمساح كان من أبرز الرموز المصرية للإله الشرير «سيت بعل»، فقد عرفنا أن هذا المعبد كان في القنطرة غرب، حيث قلعة سكوت، حيث كانت تقع قلعةٌ أخرى هي قلع العدل «مجدل ماعت»، التي هي في رأينا مجدل التوراة، أما فم الحيروت فهو ما ترجمته «مدخل الحيروت»، وإذا كنا قد اتفقنا على أن مدينة رعمسيس هي هيروبوليس، وأن هيروبوليس (الاسم الروماني

لمدينة الهكسوس)، هي مدينة الهكسوس التي عرفها اليونان باسم «حواريس»، فإن اسمها المصري كان «حوت وعرت»، وهو ما يتطابق تطابقًا مدهشًا مع الكلمة التوراتية «حيروت»، فقد عبروا تمامًا وبكل دقة، من المنطقة التي يمكن للآبقين والخارجين على القانون استخدامها، وأعطوها اسمًا يدل على معناها الجغرافي، فهي المدخل غير المطروق المؤدي إلى «حيروت» أو «حوت وعرت» أو «حواريس»، عبر بحيرة التمساح.

وبحيرة التمساح كان يمكن عبورها يبسًا، فتصبح كبحرٍ عن يمين وعن يسار، حتى يتم العبور من الخانق الواقع في أقصى جنوبها الشرقي، مع أول بادرة ريح شديدة، وهو ما قالته التوراة كسبب لجفاف البحر المفلوق، أما ما أضافته التوراة عن المطاردة، وغرق جيش أكبر دولةٍ معروفة آنذاك، فهو الأمر الذي ليس عليه دليلٌ واحد في أي وثيقةٍ من وثائق دول المنطقة، بل ولا أي إشارة يمكن تأويلها أو حتى وضعها موضع الاحتمال الظني.

لقد خرج موسى التوراتي مخرج المجرمين والعبيد الفارِّين، مطرودين لا مُطاردين.

وهناك احتمالٌ آخر يعطينا تخريجًا ثانيًا، يعضدنا في تفسيرنا بي هـ حيروت، فأمام بحيرة التمساح كان يقع جبل يحمل اسم جبل الخير، وهو بالمصرية القديمة حينوتا خيرتا،[٢٨] وهو ما يلتقي مع بي هـ حيروت التوراتية، ناهيك عن كوننا قد دققنا القول إن المسخوطة هي هيروبوليس أي هيرو/إيرو/حيرو/وكلها تحيل إلى أواريس أو حواريس الهكسوسية، التي دونتها التوراة حويلة المصرية، ويدعم ذلك التفسير ما جاء عند بليني، يصف خريطة المنطقة، فيقول: إن الخليج العربي/السويس كان العرب يسمونه خليج Eaant إيان، وهو ما نظنه قد حمل اسم الملك الهكسوسي خيان الوارد في الكتابات العربية، بحسبانه فرعونًا من العماليق باسم الريان، ويقول ابن كثير عن هذا الفرعون العماليقي: «هو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن «فاران» بن عمرو بن «عملاق» بن لاوذ بن سام بن نوح.»[٢٩] ويستمر بليني ليقول: وهناك توجد مدينتان هامتان: الأولى هي مدينة «هيروبوليس»، ومدينة قمبيز (كبريت حاليًّا)، ثم يقول ما نصه وهو يتجه غربًا «وتأتي بعد ذلك أمة «العمالقة» Tyres.»[٣٠]

---

[٢٨] سليم حسن: أقسام، ص٧٧.

[٢٩] ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج١، ص١٩٤.

[٣٠] دي بوا إيميه: الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدراسة الثانية من وصف مصر، ص١٧٣.

وغني عن الذكر أنه في تلك المنطقة، التي عرفها اليونان باسم المقاطعة العربية، تم اكتشاف (دوَّنته هنا أثناء كتابة هذا الفصل [المؤلف])، وردت أخباره بصحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٠/١١/٩٤ بالصفحة الأولى، تحت عنوان: «العثور على ٥٠ مقبرةً من عصر الهكسوس، حقائق علمية عن الخروج الأول لليهود»، وتحت هذا العنوان يأتي الخبر يقول: «تم اكتشاف جبانةٍ أثرية ترجع إلى عصر الهكسوس، في منطقة تل الكوع بوادي الطميلات بالإسماعيلية، تم العثور على ٥٠ مقبرةً حتى الآن بحالتها كاملة، وتضم الأثاث الجنائزي وعددًا كبيرًا من الأواني الفخارية والأدوات والجعارين، كما عثر على دفنات لحيوانات يرجح أنها الحصان الذي أدخله الهكسوس لمصر لأول مرة، يستكمل الاكتشاف الجديد حلقةً مهمة في التاريخ لوقوعه في وادي طميلات، والمشهور بخط سير الخروج الأول لليهود من مصر ... صرح الدكتور عبد الحليم نور الدين الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار «أن هذا الاكتشاف يثير تساؤلاتٍ علميةً مهمة، لوجوده في موقعٍ لم يكن معروفًا من قبلُ، أي علاقة بوجود الهكسوس في مصر».» لكن حسب بحثنا هذا نكون قد سبقنا هذا الكشف، إلى معرفة ذلك الموقع واتصاله عبر سيناء بمواقع الهكسوس الكبرى، ووضعنا للكشف أسسه التاريخية والجغرافية، وهو ما ستتضح تفاصيله الكاملة التامة المانعة والخرسانية في الجزء الثاني من هذا العمل.

وبهذا التصور لخريطة الخروج، لا بد أن تكون هناك قلعة قرب موقع التسلل عبر بحيرة التمساح، تستحق الاسم العبري مجدل، وفي هذه المساحة التي حددناها تؤكد الورقتان الديموطيقية والفينيقية، اللتان اكتشفهما نويل جيرون أن في هذا المحيط الجغرافي الضيق، كان يوجد معبد للإله بعل صافون/سيت رب الهكسوس المقدم، فالورقة تحوي تضرعات للإله «بعل صفون وكل آلهة دافني»، ودافني هي دفنة الحالية التي أسمتها التوراة تحفنح، أو بالتصريف الاسمي تحفنحيس، المنشأة على اسم ملكة مصرية، ودافني تقع في مركز وسط بين القنطرة وبين بحيرة التمساح إلى الغرب قليلًا.

والتوراة تردد أن عبور البحر الإعجازي، قد تم «أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر، أمام بعل صفون» (خروج، ١٤: ١).

أما المنطقة التي خرجوا إليها فتقع إلى الشرق من جنوبي بحيرة التمساح، ليتجهوا نحو جنوبي سيناء، ولا شك أن اسم تلك المنطقة «برية شور»، يعود إلى اسم القلعة المصرية الكبرى سيلا/زارو/شارو/شور، التي منحت اسمها بشهرتها للبوادي الممتدة من البحر المتوسط شمالًا، إلى خليج السويس جنوبًا، إلى الشرق من سور الأمير العظيم، الذي يصدُّ الآسيويين وعابري الرمال.

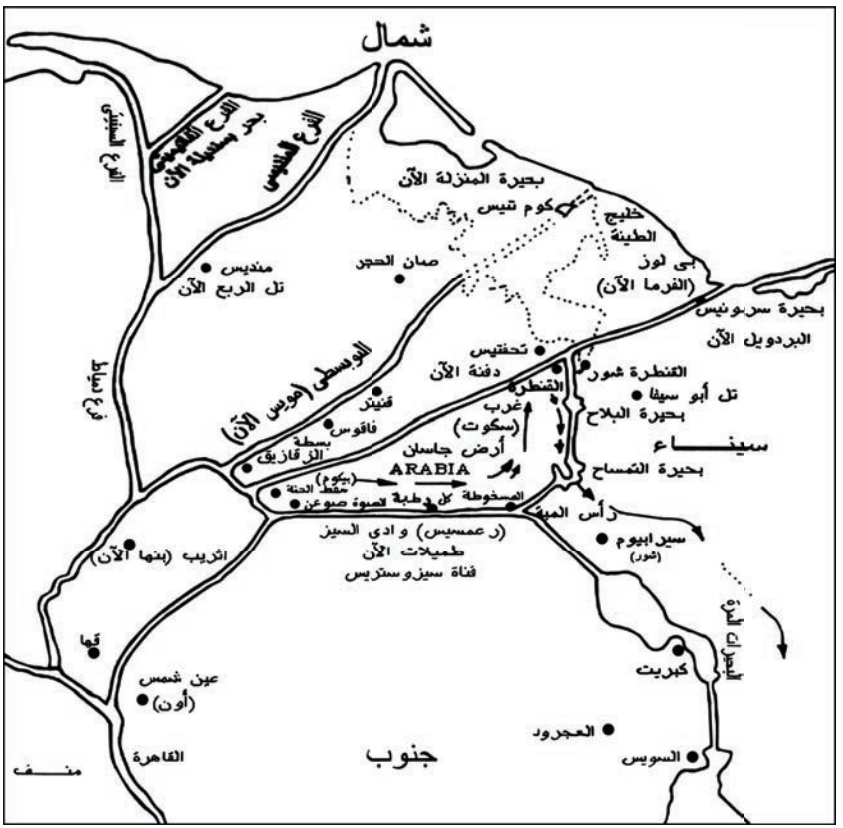

شكل ٣-٤: خروج بني إسرائيل من مصر حسب نظريتنا.

شكل ٣-٥: صورة بالأقمار الصناعية لقناة السويس الحالية.

شكل ٣-٦: موقع مدينة رمسيس حسب تخريجنا.

شكل ٣-٧: تفصيل أوضح.

شكل ٣-٨: قطاعٌ تفصيلي لموضع الخروج حسب نظريتنا.

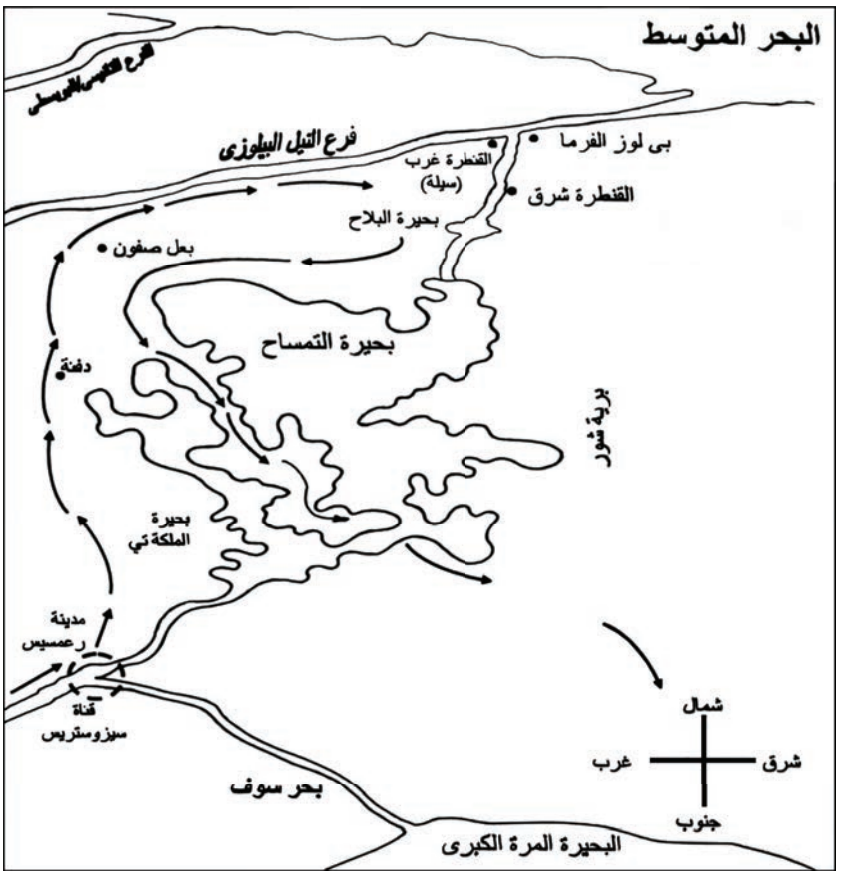

شكل ٣-٩: موضع الخروج حسب تخريجنا.

أما الآن فسنعرض لخط سير بني إسرائيل الخارجين من مصر عبر سيناء، بعد عبورهم البحر المفلوق «سوف» بالعصا المعجزة، لتدقيق المواضع التي مرُّوا بها في محطات حِلٍّ وترحال.

(٤) الخروج عبر سيناء

ويمكن لغير المهتم بهذه التفاصيل التجاوز عنها، والاطلاع على خرائط هذا الفصل، ليتابع خط سير الخروج عبر سيناء، وهو على الترتيب سار خط السير كالآتي:

- الخروج من بحر سوف مباشرةً إلى صحراء برية شور (خروج، ١٥: ٢٢)، وهو اسم الساحل الشرقي للبحر المفلوق، ويؤدي إلى بداية الطريق السينائي، ومعلوم أن «إيل» أو كبير الأرباب السامي الذي حل محله يهوه السينائي، كان يلقب باللقب «هـ-شور» أي الثور، وقريبٌ منه في المصرية القديمة «هـ-تور» أي بقرة السماء، أو البقرة العالية أو السامية، وتقابل هذه الكلمة في الآرامية Tor، وفي الأكادية والعبرية Shor، وفي الأوغاريتية الحورية و ت ر، وفي الحبشية سور، وفي اللاتينية Taurus، وفي اليونانية Touros، وفي اللتوانية Tauras، المهم في كل هذا ما يقوله علي الشوك: «والعلاقة واضحة بين كلمة ثور والفعل ثار ... وتقابل ثار العربية شاور العبرية وتعني: يثب، يقفز، يقوى، وهناك كلمة سار العربية بمعنى مشى، وتقابلها شور العبرية وتعني: يدور، يسافر، ويمكن ذكر كلمة السور أيضًا ومثلها شور العبرية، وتفيد المعنى نفسه.»[٣١] وهنا نتذكر أن آخر مدينةٍ شرقية في مصر كانت تحمل اسم «ثارو» في المدونات المصرية، وأنها كانت مخرج جميع حملات مصر على آسيا، وأنها كانت أول الطريق نحو سيناء، وأنها كانت قلعة ذات أسوارٍ عظيمة، وأنها والأهم تنطق في العبرية «شور»، لقد كانت ثارو أو سيلة هي أول مدائن الخروج بعد عبور البحر المفلوق.
- تحرك الركب بعد ذلك في سيناء، مسيرةً استغرقت ثلاثة أيام جنوبًا، بلغوا بعدها موضعًا باسم مارة «فجاءوا إلى مارة، ولم يقدروا أن يشربوا ماءً من مارة؛ لأنه مر؛ لذلك دعي اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه شجرة فطرحها في الماء فصار عذبًا» (خروج، ١٥: ٢٣–٢٥) وبعد رحلتنا المعذبة الشاقة وراء مواضع الخروج، أمكننا افتراض

[٣١] علي الشوك: جولة ... سبق ذكره، ص١٠١.

أن الموضع مارة هو موضع البير المرة الآن أو جبل مر، وتقع داخل سيناء إلى الشرق من مدينة السويس الحالية.

ومن المناسب هنا أن نعلم أن تلك المعجزة التوراتية، أمرٌ اعتيادي تمامًا يمارسه الأهلون هناك حتى الآن، فمعلومٌ أن بعض الآبار في الصحراء، تحتوي على كبريتات الكالسيوم، التي تجعل الماء مر المذاق، وأنه إذا أضيف لتلك المياه حمض الإكساليك، تَعادلَ التركيب واختفت المرارة، ولم يزل بدو سيناء حتى اليوم يستخدمون أغصان شجرة اسمها «ألواح»، تحتوي على حمض الإكساليك لإزالة مرارة الآبار، بحكم التجربة المكتسبة خلال الأجيال.

- ارتحلوا من مارة إلى منطقة اسمها إيليم، وصفتها التوراة بأنها غنية بالنخل وبالعيون (خروج، ١٥: ٢٧)، وهو المكان الذي يمكن احتسابه منطقة عيون موسى الحالية جنوب شرقي السويس.
- ارتحلوا من إيليم ونزلوا على ساحل بحر سوف، وهو ما يعني أنهم كانوا يلتزمون الطريق المحاذي لشرقي خليج العرب/السويس.
- عادوا من ساحل بحر سوف إلى عمق الصحاري السينائية مرةً أخرى، ليعمقوا بالداخل إلى منطقةٍ باسم برية سين (خروج، ١٦: ١)، المحتمل أنها المعروفة الآن باسم جبل سن البشر، وهناك يعاني الخارجون من الجوع، رغم ما نعلمه من وجود السوائم معهم، ونفسره بأوامرٍ بعدم أكل اللحم، تحت قيادة رجلٍ عاش في قصور مصر، ويعمل في الغالب بمحرماتها؛ لذلك كان اعتراض الخارجين على موسى وهارون يقول: «ليتنا متنا بيد الرب في مصر، إذ كنا جالسين عن قدور اللحم نأكل خبزًا للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر؛ لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع» (خروج، ١٦: ٣) وهنا تأتي معجزةٌ جديدة، تستمر مدةً طويلة، تتمثل في طعام المن وطيور السلوى، التي قدمنا بشأنها التفسير، ونضيف هنا ما اكتشفه بودينسها يمر عام ١٩٢٧م في سيناء، لصنف من الأثل يفرز في الربيع سائلًا حلو المذاق، سرعان ما يجفُّ ويتحول إلى كراتٍ بيضاء، تشبه حبات البرد فور تعرضه للهواء، وإذا حُرق يعطي تبخيرًا طيب الرائحة، وحتى اليوم ينطلق بدو سيناء مع بداية الربيع في جماعاتٍ كبيرة لجمع تلك الكرات، وبإمكان الشخص الواحد أن يجمع حوالي كيلوجرام ونصف في اليوم، وهي كميةٌ كافية لتغذية فرد ليومٍ واحد أو يومَين، ويبدو أن موسى

كان يعرف القيمة الغذائية لهذا المنِّ.[٣٢] أما السلوى فسوف نعرفه في الأبواب المقبلة بحسبانه طائر السمان/الزقزاق.

- ارتحلوا من برية سين إلى موضع باسم دفقه (عدد، ٣١: ١٢)، والتي نحققها بموضع «عين الفوقية» الآن، إلى الجنوب من جبل سين البشر، ومن هناك ارتحلوا إلى موضع باسم الوش (عدد، ٣١: ١٣)، لم نتمكن من تحقيقه، وإن كنا نظنه موقع سرابيط الخادم الآن.
- ارتحلوا من الوش إلى رفيديم (عدد، ٣١: ١٤)، وقد عثرنا إبان سعينا في رحلتنا التنقيبية على ثلاثة مواضع باسم رفيه، فهناك على التجاور وادي رفية وجبل رفية وبئر رفية وجمعها العبري «رفيديم»، وتقع هذه الرفيات أو بالجمع العبري رفيديم في صحراء الطور، إلى الجنوب الشرقي من وادي مكتب، ووادي فيران، وهناك تحدث مشكلة عدم وجود الماء مرةً أخرى، فنجد أعجوبةً أخرى لم تزل إلى الآن من الأمور الاعتيادية، فيضرب موسى الأرض بعصاه، فتنبجس بالمياه عيونًا (خروج، ١٧: ١)، وبدو سيناء حتى اليوم يمارسون ذلك أيضًا؛ لأنهم يعلمون أن مياه الأمطار تتجمع عند سفوح الجبال، تحت شريطٍ رمليٍّ متماسك، وهو التماسك الذي ينشأ من رطوبة الماء تحت الرمل، ويكفي في هذه الحال طرقه بأداةٍ صلبة لتنبجس المياه من تحته.

  وعند رفيديم تأتي جماعات تسكن سيناء، يسميهم الكتاب المقدس باسم العماليق أو العناقين على التبادل المتكرر، العمالقة لتدخل معركة مع الخارجين ينسحب العمالقة بعدها.
- يرتحلون من رفيديم إلى برية سيناء (خروج، ١٩: ١)، ليجدوا جبل سيناء يرتجف بالزلزلة والدخان والنار (خروج، ١٩: ١٨)، ويبدو أن المصريين كانوا قد أقاموا هناك تمثالًا عظيمًا من الفيروز (الحجر الأزرق الصافي، وهو من أحجار سيناء المشهورة)، ربما كان للإله حور أو للإله سيت؛ لأن نص التوراة يحدثنا عن كون موسى أخذ معه سبعين من شيوخ إسرائيل، وصعد بهم الجبل ليشاهدوا رب البركان، ربهم؛ لأن جبل سيناء هو جبل الله حوريب المقدس، وتقول التوراة: «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من

[٣٢] كاسيدوفسكي الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١١١-١١٢.

شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، تحت رجلَيه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله» (خروج، ٢٤: ٩–١١).

وفي موقع برية سيناء/جبل الله حوريب/كاترين وموسى الآن، يصعد موسى الجبل وسط ضباب البركان، ليأتي بألواح الشريعة المكتوبة بإصبع الله، ويغيب هناك أربعين ليلة يزوغ أثناءها الخارجون عن ربهم، ويعبدون العجل الذهبي الذي صنعه هارون، ويرقصون حوله عراة، فيغضب موسى ويكسر الألواح، ويضربهم يهوه بالموت في تبعيرة ومسه وقبروت هتأوت، على مسيرة ثلاثة أيام من الجبل (عدد، ١٠: ٣٣)، وفي ذات الموقع يأتي الأمر الإلهي، بصناعة التابوت الذي سينزل الرب ليسكن فيه، ويحملونه معهم في ارتحالاتهم. ونظننا قد تمكننا من تحقيق موضع قبروت هتأوت، أي المقابر بموقع بئر الرقبة وجبل البرقة الآن، إلى الشمال الشرقي من جبل كاترين على الجانب الأيسر لخليج العقبة.

بعد ذلك يصل المرتحلون إلى محطة باسم حضيروت (عدد، ١١: ٣٥)، وهناك تتذمر مريم شقيقة موسى وهارون، وتحمل غاضبة هي وهارون على موسى، اعتراضًا على زواجه من امرأةٍ كوشيةٍ زنجية، وهو ما أغضب يهوه على مريم، فأصابها بعدوى البرص (عدد، ١٢: ١–٩)، وقد أمكننا تحقيق حضيروت بموضع الحضيرة الآن شمالي جبل البرقة وجنوبي وادي وتير الحالي.

يمرون بعد ذلك بعددٍ من المواقع، أمكننا تدقيق بعضها، ولم نتمكن من تحقيق أغلبها، وهي على الترتيب: رثمه (عدد، ٣٣: ١٨)، ثم رمون فارص (عدد، ٣٣: ١٩)، ثم لبنة (عدد، ٣٣: ٢٠)، ثم رسة (عدد، ٣٣: ٢٤)، ثم قهيلاتة (عدد، ٣٣: ٢٢) وربما كانت هي وادي القهلت أو القلت الآن بين إيلات والثمد، ثم جبل شافر (عدد، ٣٣: ٢٣)، ثم حرادة (عدد، ٣٣: ٢٤)، ثم مقهيلوت (عدد، ٣٣: ٥)، ثم تاحت (عدد، ٣٣: ٢٦)، ثم تارح (عدد، ٣٣: ٢٧)، ثم مثقة (عدد، ٣٣: ٢٨)، ثم حشمونة (عدد، ٣٣: ٢٩)، ثم مسيروت (عدد، ٣٣: ٣٠)، ثم بني يعقان، ثم حور الجد جاد (عدد، ٣٣: ٣٢).

والواضح أن كل تلك المراحل من خط السير كانت تقع على الساحل الغربي لخليج العقبة؛ لأنها تنتهي عند قمة خليج العقبة في موضع باسم «يطبات»

(عدد، ٣٣: ٣٣)، ويوجد بهذا الاسم عدد من المواقع هناك، مثل طوبية وطابا ويطبات، والأغلب أن المقصود بها طوبية إلى الجنوب من قمة الخليج ببضعة أميال؛ لأنهم بعد ذلك يمرون بموقع عبرونة (عدد، ٣٣: ٣٤)، ثم ميناء عصيون جابر، الذي تذكره التوراة باعتباره يقع على بحر سوف، على قمة خليج العقبة بجوار أيلة (إيلات)، الميناء المعروف على خليج العقبة (عدد، ٣٣: ٣٥؛ تثنية ٢: ١).

ويبدو أنهم كانوا في مبدأ الأمر يريدون الوصول إلى نقطةٍ حصينة، تسمح بإيواء هذا العدد الغفير جنوبي فلسطين، حتى يقرُّوا قرارهم بدخول فلسطين من جنوبها أم من شرقها، وكانت تلك المنطقة المختارة هي قادش برنيع/عين مشفاط عدد ٣٣ / ٣٦، التي تم تحقيقها والاتفاق عليها بين مدارس نقد التوراة بعين قديس الحالية، عند برية صين وبرية فاران، اللتين حققناهما ببرية تسين وبرية باران الحاليتَين، ومن قادش بعد ثمانية وثلاثين عامًا، تخللتها صراعات واتفاقات بين أهل مديان وبين الخارجين، قرروا عبور بلاد آدوم من عند العقبة وعصيون جابر، دون الدخول في أية صراعات أو معارك مع أهل آدوم؛ مما يشير إلى التحالف القرابي بين الجميع، ومن هناك يعبرون بلاد موآب ثم عمون إلى جبل نبو شرقي الأردن مقابل أريحا، حيث تزعم التوراة موت موسى هناك (عدد، ٣٣: ٤٧)، وكان هارون قد مات قبله ودفن في جبل هور (عدد، ١٤: ٢٢)، الذي يحمل أيضًا اسم جبل موسير (تثنية، ١٠: ٦)، وبعدها يقودهم يشوع عابرًا نهر الأردن من شرقيه إلى غربه، لفتح فلسطين بادئًا بأريحا.

وهنا تحكي لنا التوراة عن معجزةٍ جديدة، بطلها هذه المرة يشوع بن نون خليفة موسى، فقد كانت أريحا قلعةً حصينة، يحيط بها سورٌ قويٌّ منيع، يقف عقبةً كئودًا إزاء أي طامع، وهنا تروي التوراة أن يشوع قام بعملَين معجزَين: الأول عند عبور نهر الأردن، والثاني عند اقتحام أريحا.

والمعجزة الأولى هي تكرار لمعجزة فلق البحر الموسوية، فقد أمر يشوع باختيار اثنى عشر رجلًا، يمثلون الأسباط ليحملوا تابوت العهد على أكتافهم، ويخوضوا به في ماء الأردن، وعندما فعلوا ذلك توقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندًّا واحدًا بعيدًا جدًّا عن آدام المدينة التي إلى جانب صرتان، والمنحدرة إلى بحر العربة (البحر الميت) بحر الملح، انقطعت تمامًا وعبر الشعب مقابل أريحا (يشوع، ٣: ١٦-١٧).

ولو افترضنا أن ذلك قد حدث، فإن تفسيره شديد السهولة واليسر، وقائم ويحدث ويتكرر حتى الآن، دون حاجة لمعجزات؛ لأن مدينة آدام التي يشير إليها النص هي

شكل ٣-١٠: الغزو: العبور من جنوبي دولة آدوم إلى ما بين دولتَي موآب وعمون لغزو غربي النهر، مع حملاتٍ مكثفة على طول الساحل الشرقي لنهر الأردن حتى جبل الشيخ (حرمون بالتوراة).

داميح الحالية، على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الشمال من أريحا، وهي التي تضع بيدنا مفتاح التفسير؛ لأن معنى ذلك أن يشوع لم يعبر مباشرة برجاله من أمام أريحا، إنما اختار هذه النقطة البعيدة، بمسافة خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الشمال ليعبر منها النهر، والسبب أنه عند داميح/آدام يضيق مجرى الأردن بين جدارَين من الأرض، ويغلب

على تركيب الجدارين الجير مع الطين الهش، وهناك ودومًا تحدث انهياراتٌ مفاجئة مع أي قلقلة أو اهتزازاتٍ أرضية، وكان آخر الأحداث من هذا النوع عام ١٩٢٧م، عندما توقف ماء الأردن وانقطع عند هذه النقطة لمدة أربع وعشرين ساعة كاملةً نتيجة انهيارًا جرف داميح،[٣٣] وكثيرًا ما عجبنا لماذا أمر يشوع رجاله جميعًا، حسب رواية التوراة — بالاصطفاف في هذه النقطة، مع دق الأرض بالأقدام دقاتٍ عسكريةً شديدة، كانت كافية لزلزلة الجرف، وانقطاع ماء النهر وحدوث المعجزة.

أما المعجزة الثانية فكانت حول حصون أريحا، عندما أمر يشوع رجاله قائلًا: «تدورون دائرة المدينة سبع مرات، والكهنة يضربون بالأبواق، ويكون عند امتداد قرن الهتاف، عند استماعكم صوت البوق، أن جميع الشعب يهتف هتافًا عظيمًا فيسقط سور المدينة مكانه» (يشوع ٦: ٤-٥).

وإن المرء ليسأل نفسه في دهشةٍ عن الحكمة، في دوران جيشٍ هائل حول مدينةٍ محصنةٍ مطمئنة سبع مرات، والكهنة ينفخون الأبواق، والجيش يهتف بصوتٍ عالٍ قوي، وعلاقة هذا كله بسقوط السور المفاجئ، اللهم إلا إذا كان هذا كله لإلهاء حراس الأسوار، وإلقاء الرعب والذعر بين سكان أريحا، مع التغطية على عملٍ عسكريٍّ حقيقي، يتم تحت ستار من الهرج والمرج والأصوات المُفزعة، في خفاء الغبار الذي يثيره دوران المهاجمين حول القلعة.

ونحن نعلم من نقوش الرافدين القديم، أن الآشوريين قد ابتدعوا أسلوبًا فريدًا لتفجير الأسوار الحصينة، قبل اكتشاف النار اليونانية/البارود، فكان المهاجمون يشغلون المدافعين بالأصوات والحركات، التي لا تعني شيئًا، بينما يتسلل بعض الفدائيين، ويحفرون حفرًا طويلة عميقة تحت الأسوار، يضعون فيها جذوع أشجار سريعة الاشتعال، تتفسخ وتفرقع عند إضرام النيران فيها فتنهار الأسوار،[٣٤] وهكذا فتح الخارجون أريحا، كان فتحها بحاجةٍ إلى معرفة أساليب الحرب في زمنهم، أكثر مما كانت بحاجةٍ إلى معجزات.

---

[٣٣] نفسه: ١٥٨.

[٣٤] نفسه: ١٥٩.

هنداوي